

الدَّاءُ وَالْإِوَاءُ

أَوْ
الْجَوَابُ الْكَافِي
لِمَنْ سَأَلَ عَنْ الدَّاءِ وَالْإِوَاءِ



حَقَّقَهُ أَحَادِيثُهُ وَعَلَّقَهُ عَلَيْهِ
أَبُو عَمْرٍو مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ سُلَيْمَانَ

مَكْتَبَةُ سَمِيرَافَرُوق

501 / ٥٠١ / ٥٠١ / ٥٠١ / ٥٠١ / ٥٠١ / ٥٠١ / ٥٠١ / ٥٠١ / ٥٠١

الدَّاءُ وَالِدَوَاءُ

أَوْ

الْجَوَابُ الْكَافِي
لِمَنْ سَأَلَ عَنْ الدَّاءِ وَالشَّافِي

تَأليف

الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب

ابن قيم الجوزية

المتوفى ٧٥١ هـ

خبره أحاديثه وعلومه عليه
أبو عمرو محمد بن علي بن ربحان

ناشر

مكتبة عمر فاروق

4/501 شاه فيصل كالوني كراچی

الذاء والذواء	:	نام کتاب
صفر المظفر ۱۶۲۸ھ مارچ ۲۰۰۷ء	:	پہلا ایڈیشن
۱۱۰۰	:	تعداد
زم زم پرنٹنگ پریس کراچی	:	طابع
۳۰۴	:	صفحات
فیاض احمد: 021-4594144-8352169	:	ناشر
موبائل: 0334-3432345	:	
مکتبہ عمر فاروق شاہ فیصل کالونی نمبر ۴ کراچی	:	

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾.

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾.

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أما بعد: فقد شاءت إرادة الله - عز وجل - أن يخرج للقراء الأعزاء كتاب : «الدواء والدواء» وهو المسمى أيضاً باسم : «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» لشيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله تعالى، ونسبة الكتاب إليه - رحمه الله - لا شك فيها، وهو أمر مجمع عليه، كما أن الكتاب غني عن التعريف، فقد طبع مراراً، غير أن طبعتنا هذه تمتاز عن سابقتها : بتخريج الأحاديث تخريجاً علمياً مع الحكم عليها بما تقتضيه صناعة الحديث من صحة، أو حسن، أو ضعف، معتمدين في ذلك على أحكام الأئمة المعبرين في هذا الشأن، وعلى وجه الخصوص الشيخ الألباني محدث العصر، حفظه الله، ونفع بعلمه المسلمين، وغيره من المحدثين، وهذا ما يلزمه القارئ إن شاء الله تعالى أثناء قراءته لتخريجات الكتاب، إلا بضعة أحاديث لا تتجاوز أصابع اليدين لم نجد للشهم العوالي من المحدثين حكماً عليها بدرجة فيما تحت أيدينا من المصادر والمراجع فهذا على ضربين :

الأول : ما وجدنا له إسناداً في كتب الأصول المشهورة المتداولة، فهذا قمنا بدراسة

إسناده دراسة علمية على حسب ما تقتضيه قواعد وأصول علم الحديث فحكمنا عليه بما يليق بحاله من صحة أو حسن أو ضعف، وذلك من واقع الإستاذ نفسه، ولم نتعرض في هذا الحكم لمسألة المتابعات والشواهد.

الثانى : ما لم نتمكن من الحكم عليه بما يليق بحاله، وذلك إما لعدم وجود مصدره تحت أيدينا كحديث ابن عباس عند الطبرانى فى «الكبير» مثلاً فهذا فى الجزء المفقود فيما نعلم، وقد أخذنا هذا الحديث وأمثاله بواسطة، كتاب «مجمع الزوائد»، وإما لعدم معرفتنا لرجال الإسناد، وذلك فيما وجدنا له إسناداً، فهذا النوع لا يتجاوز أربعة أحاديث اكتفينا فيها بالعزو إلى مصادرهما دون الحكم عليها بشيء من صحة أو حسن أو ضعف، راجين الله تعالى أن يوفقنا فى العثور والحكم عليها بما يليق بها، فإن حصل ذلك ألحقناه بالكتاب فى طبعة لاحقة.

وكذلك قمنا بتغيير عناوين بعض الفقرات التى لا تتوافق مع مضمون العنوان، فكم فى الطبعات السابقة من عنوان لا يطابق ما عنوان له، كذلك قمنا بالتعليق على ما لا بد له من تعليق كبيان مبهم، أو شرح غريب، أو إيضاح معنى غير واضح.

والحق يقال لقد استفدنا كثيراً من هذه التعليقات التى فى الطبعات السابقة وأضفنا إليها شيئاً ليس بالقليل، وفصدت بذكر هذا أن أنسب الفضل لأهله وذويه، وحتى لا أتشبع بما لم أعط، فأكون كلايس ثوبى رور، والله تعالى من وراء القصد.

فإذا أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى والشيطان:

﴿إن أريدُ إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

وأخيراً نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه، وأن يتقبله منا إنه سميع قريب مجيب. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصل اللهم على عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم.

وكتبه

أبو عمرو / محمد بن على بن ربحان

القاهرة / دار السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«سئل الشيخ الإمام العالم العلامة المتقن، الحافظ الناقد شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر، المعروف بابن قيم الجوزية رضى الله عنه».

ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين، رضى الله عنهم أجمعين، فى رجل ابتلى ببلىة. وعلم أنها إن استمرت فيه أفسدت عليه دنياه وآخرته، وقد اجتهد فى دفعها عن نفسه بكل طريق، فما يزداد إلا توقفاً وشدة، فما الحيلة فى دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟ فرحم الله من أعان مبتلى، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه، أفتونا مأجورين، رحمكم الله تعالى.

«فأجاب الشيخ، الإمام، العالم، شيخ الإسلام، مفتى المسلمين، شمس الدين، أبو عبد الله بن أبى بكر أيوب إمام المدرسة الجوزية رحمه الله تعالى:

[لكل داء دواء]

«الحمد لله. أما بعد : فقد ثبت فى «صحيح البخارى» من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً»^(١). وفى «صحيح مسلم» من حديث جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواءٌ: فإذا أصيب دواءُ الداء، برأ بإذن الله - عز وجل -»^(٢).

وفى «مسند الإمام أحمد» من حديث أسامة بن شريك عن النبى ﷺ قال: «إن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً، علمه من علمه، وجهله من جهله»^(٣). وفى لفظ: «إن

(١) حديث صحيح: رواه أحمد فى «المستد» (٣٧٧/١) من حديث ابن مسعود، ورواه البخارى فى «صحيحه» (٥٦٧٨)، وابن ماجه فى «سننه» (٣٤٣٩)، والترمذى (٢٠٣٨) من حديث أسامة بن شريك، وقال: حديث صحيح، فى الباب عن ابن مسعود وأبى هريرة وأبى خزيمة عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه» (٢٧٧٤).

(٢) حديث صحيح: رواه مسلم فى «صحيحه» (٢٢٠٤)، وأحمد (٣٣٥/٣).

(٣) حديث صحيح: رواه أحمد فى «المستد» (٢٧٨/٤)، وصححه الألبانى فى «الصحيحه» (٤٥١) بلفظ: «ما أنزل الله داءً» من حديث ابن مسعود.

اللَّهُ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ شِفَاءً ، أَوْ دَوَاءً ، إِلَّا دَاءً وَاحِدًا» قالوا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «الهِرَمُ»^(١). قال الترمذی: هذا حديث صحيح.

[دواء العمى السؤال]

* وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها، وقد جعل النبي ﷺ الجهل داء، وجعل دواءه سؤال العلماء. فروى أبو داود في «سننه» من حديث جابر بن عبد الله قال: «خرجنا في سفر، فأصاب رجلاً منا حجرٌ، فشجّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه، فقال: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ قالوا: ما نجد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء. فاغتسل فمات. فلما قدمنا على النبي ﷺ أخبر بذلك، فقال: «قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العمى السؤال، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصر، أو يعصب [شك موسى] - على جرحه خرقه ثم يمسح عليها، ويغسل سائر جسده»^(٢).

فأخبر أن الجهل داء، وأن شفاؤه السؤال.

[القرآن شفاء]

* وقد أخبر سبحانه عن القرآن أنه شفاء، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَلْعَجَمِيُّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. و«من» هنا لبيان الجنس لا للتبعض: فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه

(١) حديث صحيح: رواه الترمذی (٢٠٣٨)، وابن ماجه بنحوه (٣٤٣٦)، وفي «صحيح ابن ماجه» للالباني (٢٧٧٢)، وقال: صحيح. وأبو داود (٣٨٥٥)، وأحمد (٢٧٨/٤).

(٢) حديث حسن: رواه أبو داود في «سننه» (٣٣٦)، وما بين القوسين زيادة من الحديث في أبي داود، وموسى هو ابن عبد الرحمن الأنطاكي، قال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٤): حسن دون قوله: «إنما كان يكفيه... إلخ»، وروى ابن ماجه نحوه (٥٧٢)، وقال الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤٦٤): حسن دون بلاغ عطاء.

وتعالى من السماء شفاء قط اعم ولا انفع ولا اعظم ولا انجع فى إزالة الداء من القرآن.

وقد ثبت فى «الصحيحين» من حدث أبى سعيد قال: «انطلق نفر من أصحاب النبى ﷺ فى سفرة سافروها، حتى نزلوا على حى من أحياء العرب فاستضافوهم، فأبوا أن يضيفوهم. فلُدغ سيد ذلك الحى، فسعوا له بكل شىء لا ينفعه شىء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا، لعله أن يكون عند بعضهم شىء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط، إن سيدنا لُدغ، وسعينا له بكل شىء لا ينفعه شىء، فهل عند أحد منكم من شىء؟ فقال بعضهم: نعم والله إنى لأرقى، ولكن والله لقد استضفناكم فلم تُضيفونا، فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لى جُعلاً، فصالحوهم على قطع من الغنم، فانطلق يتفل عليه ويقرا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ فكانما نشط من عقال. فانطلق يمشى، وما به قَلْبَةٌ. قال: فأوفوهم جعلهم الذى صالحوهم عليه. فقال بعضهم: اقتسموا. فقال الذى رقى: لا نفعل حتى نأتى النبى ﷺ فنذكر له الذى كان، فنظر ما يأمرنا. فقدموا على رسول الله ﷺ، فذكروا له ذلك فقال: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ؟» ثم قال: قد أصبتم. اقتسموا واضربوا لى معكم سهمًا، فضحك النبى ﷺ»^(١).

فقد أثر (هذا) الدواء فى هذا الداء وأزاله حتى كأنه لم يكن، وهو أسهل دواء

(١) حديث صحيح: رواه البخارى فى «صحيحه» (٢٢٧٦، ٥٠٠٧، ٥٧٣٦، ٥٧٤٩)، ورواه مسلم فى «صحيحه» (٢٢-١)، وأبو داود (٣٤١٨)، والترمذى (٢٠٦٣)، وابن ماجه (٢١٥٦)، وأحمد فى «المسند» (٢/٣، ١٠، ٤٤).

غريب الحديث:

فلُدغ: هو اللسع. واللُدغ المذكور فى الحديث هو: ضرب ذات الحمة من حية أو عقرب وغيرهما. الرهط: ما دون العشرة من الرجال لا يكون فيهم امرأة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾. فجمع، وليس لهم واحد من لفظهم.

الجعل: بالضم، ما جعل للإنسان من شىء على فعل.

فانطلق يتفل: هو نقح معه قليل بزاق.

من عقال: هو الحبل الذى يشد به ذراع البهيمة.

الرقية: كلام يستنقى به من كل عارض، ومنه ما هو شرعى، ومنه ما هو غير شرعى.

وأيسره، ولو أحسن العبد التداوى بالفاتحة؛ لراى لها تأثيراً عجيباً فى الشفاء. ومكثت بمكة مدة يعترينى أدواء ولا أجد طبيباً ولا دواءً، فكنت أعالج نفسى بالفاتحة، فأرى لها تأثيراً عجيباً، فكنت أصف ذلك لمن يشتكى الماء، فكان كثير منهم يبرأ سريعاً.

* ولكن ههنا أمر ينبغى التفطن له، وهو أن الأذكار والآيات، أو الأدعية التى يستشفى بها ويرقى بها: هى فى نفسها نافعة شافية، ولكن تستدعى قبول المحل، وقوة وهمة الفاعل، وتأثيره، فحتى تخلف الشفاء، كان لضعف تأثير الفاعل، أو لعدم قبول المنفع، أو لمانع قوى فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء. كما يكون ذلك فى الأدوية والأدواء الحسية، فإن عدم تأثيرها قد يكون لعدم قبول الطبيعة لذلك الدواء، وقد يكون لمانع قوى يمنع من اقتضائه أثره، فإن الطبيعة إذا أخذت الدواء بقبول. كان انتفاع البدن به بحسب ذلك القبول. فكذلك القلب إذا أخذ الرقى والتعاويذ بقبول تام، وكان للراقى نفس فعالة وهمة مؤثرة فى إزالة الداء.

[موانع إجابة الدعاء]

* وكذلك الدعاء، فإنه من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف أثره عنه، إما لضعفه فى نفسه، بأن يكون دعاء لا يحبه الله، لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب، وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً، وإما لحصول المانع من الإجابة: من أكل الحرام، ورين الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليها.

كما فى «مستدرك الحاكم» من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «ادعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مَوْقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ دَعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ»^(١) فهذا

(١) حديث حسن: رواه الحاكم فى «المستدرك» (٤٩٣/١)، وقال: هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرد به صالح المرمى. واستدرك الذهبى على الحاكم فقال: صالح متروك. ورواه الترمذى فى «سننه» (٣٤٧٩)، وقال الألبانى فى «صحيح الترمذى»: حسن. وحسنه فى «صحيح الجامع» (٢٤٣).

دواء نافع مزيل للداء . ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته ، وكذلك أكل الحرام ، يبطل قوته ويضعفها . كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ 》 [المؤمنون : ٥١] . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ 》 [البقرة : ١٧٢] .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك؟^(١)

وذكر عبد الله بن الإمام أحمد في كتاب «الزهد» لآبيه : «أصاب بنى إسرائيل بلاء ، فخرجوا مخرجاً ، فأوحى الله - عز وجل - إلى نبيهم أن أخبرهم : أنكم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة ، وترفعون إلى أكفأ سفكتكم بها الدماء ، وملأتم بها بيوتكم من الحرام ، الآن حين اشتد غضبي عليكم ؟ ولن تزدادوا منى إلا بعداً» .

وقال أبو ذر : يكفى من الدعاء مع البر ، ما يكفى الطعام من الملح .

[الدعاء شفاء]

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء ، يدفعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويدفعه . أو يخففه إذا نزل ، وهو سلاح المؤمن . كما روى الحاكم في «صحيحه» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض»^(٢) .

(١) حديث صحيح : رواه مسلم (١٥-١٠) . وأحمد (٣٢٨/٢) ، والترمذي (٢٩٨٩) .

«إن الله طيب» : أى منزّه عن النقائص والآفات والعيوب .

«لا يقبل إلا طيباً» : لا ييب إلا على الأعمال الخالصة من المفسد .

«أشعث» : جعد الرأس ، متبلد الشعر لبعده عهده بالغسل .

«أغبر» : تغير لونه من الغبار لطول سفره .

«فأنى يستجاب لذلك» : كيف ومن أين يستجاب لمن هذه صفته؟ فهو استبعاد لإجابة دعائه .

(٢) حديث موضوع : أورده الألبانى في «الضعيفة» (١٧٩) ، وقال : موضوع ، أخرجه ابن عدى =

وله مع البلاء ثلاث مقامات:

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء ، فيصاب به العبد ، ولكن قد يخففه ، وإن كان ضعيفاً .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

وقد روى الحاكم في «صحيحه» من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ : « لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، وإن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة »^(١) . وفيه أيضاً من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء »^(٢) . وفيه أيضاً من حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال : « لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب بصيبه »^(٣) .

[الإلحاح من أسباب الإجابة]

* ومن أنفع الأدوية : الإلحاح في الدعاء . وقد روى ابن ماجه في «سننه» من حديث أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يَفْضَبْ عليه »^(٤)

= (٢٩٦/٢)، والحاكم (٤٩٢/١).

(١) حديث حسن: رواه الحاكم في «المستدرک» (٤٩٢/١)، وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي، وقال: زكريا مجمع على ضعفه، لكن حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦١٦).

(٢) حديث حسن: رواه الحاكم في «المستدرک» (٤٩٣/١)، وسكت عليه، وتعقبه الذهبي بقوله: عبدالرحمن واه. والترمذي (٣٥٤٨)، ولكن حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٣).

(٣) حديث حسن: رواه الحاكم في «المستدرک» (٤٩٣/١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال الذهبي: صحيح. وأخرجه الترمذي في «سننه» (٢١٣٩) دون زيادة: «وإن الرجل إلخ» وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» ورواه أحمد (٢٧٧/٥)، وابن ماجه (٤٠٢٢) بالزيادة المذكورة. قال الألباني في «الصحيحة» (١٥٤): والحديث حسن دون الزيادة الأخيرة. اهـ.

(٤) حديث حسن: أخرجه أحمد (٤٧٧/٢)، ورواه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي»، وابن ماجه.

وفى «صحيح الحاكم» من حديث أنس عن النبي ﷺ : «لا تعجزوا فى الدعاء: فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد»^(١). وذكر الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «إن الله يحبُّ الملحين فى الدعاء»^(٢).

وفى كتاب «الزهد» للإمام أحمد عن قتادة قال: قال مَورق : «ما وجدت للمؤمن مثلاً إلا رجلاً فى البحر على خشبة، فهو يدعو: يا رب يا رب، لعل الله عز وجل أن ينجيه».

[من موانع الإجابة]

* ومن الآفات التى تمنع ترتيب أثر الدعاء عليه: أن يستعجل العبد، ويستبطئ الإجابة، فيستحسر ويدع الدعاء، وهو بمنزلة من بذر بذراً أو غرس غرساً، فجعل يتعاهده ويسقيه، فلما استبطأ كماله وإدراكه تركه وأهمله. وفى «صحيح البخارى» من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لأحدكم ما لم يُعْجَلْ، يقول: دعوتُ فلم يُسْتَجَبْ لى»^(٣). وفى «صحيح مسلم» عنه: «لا يزال يُسْتَجَابُ للعبد، ما لم يدعُ بإثمٍ أو قطيعة رحيم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوتُ وقد دعوتُ، فلم أرَ يُسْتَجَابُ لى، فيستحسر عند ذلك ويدعُ الدعاء»^(٤). وفى «مسند أحمد» حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ : «لا يزال العبدُ بخير ما لم يستعجل». قالوا: يا رسول الله، كيف يستعجل؟ قال: يقول: قد دعوتُ ربى فلم يُسْتَجَبْ لى»^(٥).

(١) حديث ضعيف جداً: أخرجه الحاكم (٤٩٣/١ - ٤٩٤) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبى: لا أعرف عمراً تعبت عليه، وأورده الألبانى فى «الضعيفة» (٨٤٣).

(٢) حديث باطل: أورده الألبانى فى «الضعيفة» (٦٣٧)، و«ضعيف الجامع» (٧١٠).

(٣) حديث صحيح: رواه البخارى (٦٣٤٠)، ومسلم (٥٢/١٧)، وأبو داود (١٤٨٤)، والترمذى (٣٣٨٧)، وابن ماجه (٣٨٥٣).

(٤) حديث صحيح: رواه مسلم فى «صحيحه» (٥١/١٧، ٥٢).

(٥) حديث صحيح لغيره: رواه أحمد فى «المسند» (١٩٣/٣)، وله شواهد كثيرة منها الحديثان قبله، فهو صحيح لغيره.

[أوقات الإجابة، وصفة الداعي]

* وإذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب، وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهي: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر.

وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعاً ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه. ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألح عليه في المسألة، وتعلقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده. وقدم بين يدي دعائه صدقة: فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً. ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم.

[ما يدعو به الداعي]

* فمنها ما في «السنن» وفي «صحيح ابن حبان» من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد». فقال: لقد سأل الله بالاسم الذي إذا سُئِلَ به أُعْطِيَ، وإذا دُعِيَ به أجاب». وفي لفظ: «لقد سألت الله باسمه الأعظم»^(١). وفي «السنن» و«صحيح ابن حبان» أيضاً من حديث أنس بن مالك أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً، ورجل يصلي، ثم دعا فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض: يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣٤٩/٥)، ورواه ابن ماجه (٣٨٥٧)، وفي «صحيح ابن ماجه» للالباني (٣١١١)، وأبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، وصححه الألباني.

العظيم، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أُعْطِيَ»^(١). أخرج الحديثين الإمام أحمد في «مسنده».

وفي «جامع الترمذى» من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي ﷺ قال: «اسمُ الله الأعظمُ فى هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦٣) [البقرة: ١٦٣] وفاتحة آلِ عِمْرَانَ: ﴿الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾ (٢) قال الترمذى: هذا حديث صحيح^(٢). وفي «مسند الإمام أحمد» و«صحيح الحاكم» من حديث أبى هريرة، وأنس بن مالك، وربيعة بن عامر عن النبي ﷺ أنه قال: «الظُّلُوبِ إِذَا جَلَّالَ وَالْإِكْرَامِ»^(٣). يعنى تعلقوا بها والزموا وداوموا عليها. وفي «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - : «أن النبي ﷺ كان إذا أُمِمَّ الأمرُ رفع رأسه إلى السماء، وإذا اجتهد فى الدعاء قال: «يا حىُّ يا قيُّومُ»^(٤). وفيه أيضاً من حديث أنس بن مالك، قال: «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمرٌ قال: يا حىُّ يا قيُّومُ برحمتِكَ أَسْتَغِيثُ»^(٥). وفي «صحيح الحاكم» من حديث أبى أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «اسمُ الله الأعظمُ فى ثلاثِ سورٍ من القرآن: البقرة، وآلِ عمران، وطه»، قال القاسم: فالتمستها فإذا هى آية الحى القيُّوم»^(٦). وفي «جامع الترمذى» و«صحيح

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٢٠/٣)، ورواه ابن ماجه فى «سننه» (٣٨٥٨)، وأبو داود (١٤٩٥)، وأخرجه النسائى فى «سننه» (٥٢/٣)، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٣٤٢).

(٢) حديث حسن: أخرجه الترمذى (٣٤٣٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وحسنه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه» (٣١٠٩)، و«صحيح أبى داود» (١٣٤٣)، و«تخريج المشكاة» (٢٩٩١)، و«صحيح الجامع» (٩٩١).

(٣) حديث صحيح: أما حديث أبى هريرة أخرجه الحاكم، وسنده ضعيف (٤٩٩/١)، وحديث أنس أخرجه الترمذى (٣٥٢٥)، وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى»، وحديث ربيعة بن عامر أخرجه أحمد (١٧٧/٤)، والحاكم (٤٩٨/١، ٤٩٩)، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى. (٤) حديث ضعيف: أخرجه الترمذى (٣٤٣٦)، وقال: حديث حسن غريب، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى».

(٥) حديث حسن: أخرجه الترمذى (٣٥٢٤)، وحسنه الألبانى فى «صحيح الترمذى» و«المشكاة» (٢٤٥٤).

(٦) حديث صحيح: رواه ابن ماجه (٣٨٥٦)، والحاكم (٥٠٥/١)، وأخرجه من حديث أسماء بنت =

الحاكم» من حديث سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذى النون، إذ دعا وهو فى بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾» [الأنبياء: ٨٧] إنه لم يدع بها مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له». قال الترمذى: حديث صحيح^(١).

وفى «مستدرک الحاكم» أيضاً من حديث سعد عن النبي ﷺ: «ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم أمرٌ منهم فدعا به يُفَرِّجَ اللهُ عنه، دعاءُ ذى النون»^(٢). وفى «صحيحه» أيضاً عنه أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول: «هل أدلكم على اسم الله الأعظم؟، دعاءُ يونس» قال رجل: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصة؟ فقال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. فأياها مسلمٌ دعا بها فى مرضه أربعين مرة فمات فى مرضه ذلك أُعْطِيَ أجر شهيد، وإن برئ برئ مغفوراً له»^(٣). وفى «الصحيحين» من حديث ابن عباس، أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»^(٤). وفى «مسند الإمام أحمد» من حديث على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال: «علمنى رسول الله ﷺ إذا نزل بى كرب أن أقول: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ،

= يزيد أبو داود (١٤٩٦)، والترمذى (٣٤٧٨)، وابن ماجه (٣٨٥٥)، وصححه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه»، و«صحيح الجامع» (٩٩١).

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٧٠/١)، والحاكم (٥٠٥/١)، ورواه الترمذى (٣٥٠٥)، وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى»، و«صحيح الجامع» (٣٣٧٨).

(٢) حديث صحيح: أورده الألبانى فى «الصحيحه» (١٧٤٤) بلفظ: «ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلاء الدنيا دعى به يفرج عنه، فقيل: بلى، فقال: دعاء ذى النون لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». وقد أخرجه الحاكم (٥٠٥/١)، وأحمد (١٧٠/١) بنحوه.

(٣) أخرجه الحاكم (٥٠٦/١)، وسكت عنه، وقال الذهبى: رواه أحمد بن بكر السكسكى عن أبيه، عن محمد بن زيد عن ابن المسيب.

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٣٤٥، ٦٣٤٦، ٧٤٢١، ٧٤٣١)، ومسلم (٤٧/١٧)، والترمذى (٣٤٣٥)، وابن ماجه (٣٨٨٣).

سبحان الله وتبارك الله ربُّ العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين»^(١).

وفى «مسنده» أيضاً من حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ماضٍ بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، أسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلمي، ونور صدري، وجلاء حزني، يزهد همي، إلا أذهب الله عز وجل همي، وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً». فقيل يا رسول الله، ألا تتعلمها؟ قال: «بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»^(٢). قال ابن مسعود: «ما كرب نبي من الأنبياء، إلا استغاث بالتسبيح».

وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب «المجايب»، وفي الدعاء عن الحسن قال: «كان جل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار يكنى أبا معلق، وكان تاجراً يتجر بمال له لغيره، ويضرب به في الآفاق، وكان ناسكاً ورعاً، فخرج مرة فلقية لص مقنع في سلاح. فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك، قال: ما تريده من دمي؟ شأنك المال. قال: أما المال فلي، ولست أريد إلا دمك. قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي ربيع ركعات. قال: صل ما بدا لك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات. فكان من دعائه في آخر سجوده أن قال: يا ودود، يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعالاً لما تريد، سألك بعزك الذي لا يرام، وبملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان رشك؛ أن تكفيني شر هذا اللص. يا مغيث، أغثنى، ثلاث مرات. فإذا هو بفارس - أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذني فرسه، فلما بصر به اللص أقبل نحوه، فطعنه تله. ثم أقبل إليه، فقال: قم. فقال: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله بك يوم. فقال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت بدعائك الأول، فسمعت بواب السماء قعقة. ثم دعوت بدعائك الثاني، فسمعت لأهل السماء ضجة. ثم

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (٩١/١)، وصححه الشيخ شاکر في تعليقه على «المسند».

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٣٩١/١)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاکر رحمه الله في تعليقه على «المسند» (٣٧١٢)، والحاكم (٥٠٩/١)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٩٩).

دعوت بدعائك الثالث، فقل لى: دعاء مكروب، فسألت الله أن يولينى قتله. قال الحسن: فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء، استجيب له مكروباً كان أو غير مكروب^(١).

[أحوال الدعاء]

* وكثيراً ما نجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم. ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكراً لحسنه، أو صادف وقت إجابة ونحو ذلك، فأجيب دعوته، فيظن الظان أن السر فى لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى. وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعاً فى الوقت الذى ينبغى استعماله على الوجه الذى ينبغى، فانتفع به، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرد كافي فى حصول المطلوب، كان غلطاً. وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس.

ومن هذا، أنه قد يتفق من يدعو دعاءً باضطراب عند قبر، فيجيب له فيظن الجاهل، أن السر للقبر، ولم يعلم أن السر للاضطراب وصدق اللجأ إلى الله. فإذا حصل ذلك فى بيت من بيوت الله، كان أفضل وأحب إلى الله.

* والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط. فمتى كان السلاح سلاحاً تاماً لا آفة به، والساعد ساعد قوى، والمانع مفقود حصلت النكاية فى العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير. فإذا كان الدعاء فى نفسه غير صالح، أو الداعى لم يجمع بين قلبه ولسانه فى الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة؛ لم يحصل الأثر.

(١) هذه القصة موقوفة على الحسن، ولا نعلم فى الانتصار من يكنى بأبى معلق، ومثل هذا القصص لا تؤخذ منه الأحكام، إنما ذلك مصدره الرفوع إلى الشارع ﷺ أو الموقوف على الصحابة إذا لم يختلفوا.

اذم التوكل على القدر مع ترك الأسباب

* وههنا سؤال مشهور، وهو: أن المدعو به إن كان قد قُدِّرَ، لم يكن بد من وقوعه، دعا به العبد أو لم يدع، وإن لم يكن قد قُدِّرَ لم يقع، سواء سأل العبد أو لم يسأله.

فظنت طائفة صحة هذا السؤال، فتركت الدعاء. وقالت: لا فائدة فيه. وهؤلاء مع فرط جهلهم وضلالهم متناقضون، فإن طرد مذهبهم يوجب تعطيل جميع الأسباب فيقال لأحدهم: إن كان الشيع والرى قد قُدِّرَ لك فلا بد من وقوعهما، أكلت أو لم تأكل، وإن لم يقدر لم يقعاً أكلت أو لم تأكل؛ وإن كان الولد قد قُدِّرَ لك فلا بد منه، وطئت الزوجة أو الأمة أو لم تطأ، وإن لم يقدر ذلك لم يكن. فلا حاجة إلى التزوج والتسرى، وهلم جرا. فهل يقول هذا عاقل أو آدمى؟ بل الحيوان البهيم مفطور على مباشرة الأسباب التى بها قوامه وحياته، فالحيوانات أعقل وأفهم من هؤلاء الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

* وتكيس^(١) بعضهم، وقال: الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض بثب الله عليه الداعى، من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجه ما، ولا فرق عند هذا المتكيس بين الدعاء وبين الإمساك عنه بالقلب واللسان فى التأثير فى حصول المطلوب، وارتباط الدعاء عندهم به كارتباط السكوت، ولا فرق.

* وقالت طائفة أخرى أكيس من هؤلاء: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أمانة على قضاء الحاجة، فمتى وفق الله العبد للدعاء، كان ذلك علامة له وأمانة على أن حاجته قد انقضت، وهذا كما إذا رأيت غيمًا أسودًا باردًا فى زمن الشتاء، فإن ذلك دليل وعلامة على أنه يمطر.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصى مع العقاب، هى أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب، لا أنها أسباب له. وهكذا عندهم الكسر مع

(١) تكيس: ادعى الكيس والفتنة.

الانكسار، والحرق مع الإحراق، والإرهاق مع القتل، ليس شيء من ذلك سبباً البتة، ولا ارتباط بينه وبين ما يترتب عليه، إلا مجرد الاقتران العادى، لا التأثير السلبى، وخالفوا بذلك الحس والعقل، والشرع والفطرة، وسائر طوائف العقلاء، بل أضحكوا عليهم العقلاء.

والصواب: أن ههنا قسمًا ثالثًا، غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدور قُدِّرَ بأسباب، ومن أسبابه الدعاء، فلم يقدر مجرداً عن سببه، ولكن قُدِّرَ سببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما قُدِّرَ الشبع والرى بالأكل والشرب، وقُدِّرَ الولد بالوطء، وقُدِّرَ حصول الزرع بالبذر، وقُدِّرَ خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قُدِّرَ دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق، وهذا الذى حرمه السائل ولم يوفق له.

* **وحينئذ** فالدعاء من أقوى الأسباب، فإذا قُدِّرَ وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة فى الدعاء. كما لا يقال: لا فائدة فى الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ فى حصول المطلوب.

* ولما كان الصحابة - رضى الله عنهم - أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم فى دينه، كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم. وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يستنصر به على عدوه، وكان أعظم جنديه، وكان يقول لأصحابه: «لستم تُنصرون بكثرة، وإنما تنصرون من السماء». وكان يقول: «إنى لا أحملُهم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمتم الدعاء فإن الإجابة معه». وأخذ الشاعر هذا المعنى فنظمه فقال:

لو لم ترد نيل ما أرجو وأطلبه من جود كفيك ما عودتنى الطلبا

فمن ألهم الدعاء فقد أريد به الإجابة، فإن الله سبحانه يقول: ﴿ادْعُونى أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠]. ويقول - جل شأنه - أيضاً: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادى عَنِى فَإِنى قريبٌ أجيبُ دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾ (البقرة: ١٨٦).

وفى «سنن ابن ماجه» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(١). وهذا يدل على أن رضا، فى سؤاله وطاعته، وإذا رضى الرب تبارك وتعالى فكل خير فى رضا، كما أن كل بلاء ومصيبة فى غضبه.

وقد ذكر الإمام أحمد فى كتاب «الزهد» أثرًا: «أنا الله، لا إله إلا أنا. إذا رضيت بركت، وليس لبركتى منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تبلغ السابع من الوكد».

وقد دل العقل والنقل والفطرة وتجارب الأمم على اختلاف أجناسها ومللها ونحلها على أن التقرب إلى رب العالمين، وطلب مرضاته، والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير، وأضدادها من أكبر الأسباب الجالبة لكل شر، فما استجلبت نعم الله تعالى، واستدفعت نقمته بمثل طاعته والتقرب إليه، والإحسان إلى خلقه.

[ارتباط الأسباب بالمسببات]

* وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة وحصول الشرور فى الدنيا والآخرة فى كتابه على الأعمال، ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب، وهذا فى القرآن يزيد على ألف موضع.

فتارة يرتب الحكم الخبرى الكونى، والأمر الشرعى على الوصف المناسب له، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [١٦٦] ﴿ [الاعراف: ١٦٦]. وقوله: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [٥٥] ﴿ [الزخرف: ٥٥]. وقوله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [٣٨] ﴿ [المائدة: ٣٨]. وقوله: ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّانِعِينَ وَالصَّانِعَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ

لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ [الأحزاب: ٣٥] . وهذا كثير جداً .

وتارة يأتى عليه بصيغة الشرط والجزاء كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩] . وقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصَّلُ الْآيَاتُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ١١] . وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً عَذْقًا ﴾ [الجن: ١٦] . ونظائره .

وتارة يأتى بلام التعليل كقوله: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] . وقوله تعالى: ﴿ لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وتارة يأتى بأداة «كى» التى للتعليل، كقوله تعالى: ﴿ كَى لَا يَكُونَ دُولَةٌ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ [الحشر: ٧] .

وتارة يأتى بباء السببية، كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢] ، وقوله: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ، وقوله: ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٩] . وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٢] .

وتارة يأتى بالمفعول لأجله ظاهراً أو محذوفاً، كقوله تعالى: ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَصِلَ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴾ [البقرة: ٢٨٢] . وكقوله تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] . وقوله: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام: ١٥٦] . أى كراهة أن تقولوا .

وتارة يأتى بفاء السببية، كقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ [الشمس: ١٤]. وقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً﴾ ﴿١٠﴾ [الحاقة: ١٠]. وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ [المؤمنون: ٤٨] ونظائره.

وتارة يأتي بأداة «لَمَّا» الدالة على الجزاء كقوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [الزخرف: ٥٥] ونظائره.

وتارة يأتي بـ «إِنْ» وما عملت فيه، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ﴿٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وقوله في ضد هؤلاء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وتارة يأتي بأداة «لَوْ» الدالة على ارتباط ما قبلها بما بعدها، كقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾ لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ [الصفافات: ١٤٣، ١٤٤].

وتارة يأتي بـ «لَوْ» الدالة على الشرط، كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ ﴿٦٦﴾ [النساء: ٦٦].

وبالجملة: فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بل ترتيب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال.

* ومن تفقه في هذه المسألة وتأملها حق التأمل، انتفع بها غاية النفع، ولم يتكل على القدر جهلاً منه، وعجزاً وتفريطاً وإضاعة، فيكون توكله عجزاً وعجزه توكلأً. بل الفقيه كل الفقه الذي يرد القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان أن يعيش إلا بذلك، فإن الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر. والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر. وهكذا من وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة الآخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة، فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء، فرب الدارين

واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضاً، ولا يبطل بعضها بعضاً، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها، والله المستعان. لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه.

* أحدهما: يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير، وتكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم، وما جربه في نفسه وغيره، وما سمعه في أخبار الأمم قديماً وحديثاً.

* ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه، وفيه أسباب الخير والشر جميعاً مفصلة مبينة، ثم السنة، فإنها شقيقة القرآن، وهى الوحي الثانى، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما، وهما يريانك الخير والشر وأسبابهما، حتى كأنك تعين ذلك عياناً.

وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته، طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة، ورأيت بتفاصيل ما أخبر الله به ووعد به، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدل على أن القرآن حق، وأن الرسول حق، وأن الله ينجز وعده لا محالة، فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به من الأسباب الكلية للخير والشر.

[مغالطة النفس حول الأسباب]

* الأمر الثانى: أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب، وهذا من أهم الأمور؛ فإن العبد يعرف أن المعصية والعقلة من الأسباب المضرة له في دنياه وآخرته ولا بد، ولكن تغالطه نفسه بالاتكال على عفو ربه ومغفرته تارة، وبالتسويق بالتوبة، وبالاستغفار باللسان تارة، وبفعل المندوبيات تارة، وبالعلم تارة، وبالاحتجاج بالقدر تارة، وبالاحتجاج بالأشياء والنظراء تارة، وبالاقتداء بالأكابر تارة أخرى.

[خطأ في فهم الاستغفار]

* وكثير من الناس يظن أنه لو فعل ما فعل ثم قال: «استغفر الله» زال الذنب، وراح هذا بهذا. وقال لى رجل من المتسبين إلى الفقه: أنا أفعل ما أفعل ثم أقول:

سبحان الله وبحمده مائة مرة، وقد غفر ذلك أجمعه. كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في يوم: سبحان الله وبحمده، مائة مرة حُطَّتْ عنه خطاياه ولو كانت مثلَ زبدِ البحر»^(١). وقال لى آخر من أهل مكة: نحن إذا فعل أحدنا ما فعل، اغتسل وطاف بالبيت أسبوعاً وقد محى عنه ذلك. وقال لى آخر: قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أذنب عبدٌ ذنباً، فقال: أى رب، أصبتُ ذنباً فاغفر لى، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: أى رب، أذنبتُ ذنباً فاغفر لى. فقال الله عز وجل: علّم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرتُ لعبدى، فليصنع ما شاء»^(٢). قال: وأنا لا أشك أن لى رباً يغفر الذنب ويأخذ به. وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها وتعلق بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجهال من هذا الضرب من الناس فى هذا الباب غرائب وعجائب. كقول بعضهم:

وكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقول الآخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار.

وقال أبو محمد بن حزم: رأيت بعض هؤلاء يقول فى دعائه: اللهم إنى أعوذ بك من العصمة.

[ذم التعلق بالجبر]

* ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصى.

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦، ٤٠٥)، ورواه البخارى (٦٤٠٥)، ومسلم (١٤٦)، (٢٦٩١)، والترمذى (٣٤٦٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٢، ٥١٥)، ورواه البخارى (٧٥٠٧)، ومسلم (١، ٢)، (٢٧٥٨، ١٩).

[اذم التعلق بالإرجاء]

* ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء، وأن الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وأن إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

[الخطأ في فهم المحبة]

* ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمساكين والصالحين، وكثرة التردد إلى قبورهم والتضرع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم، وسؤاله بحقهم عليه، وحرمتهم عنده.

* ومنهم من يغتر بأبائه وأسلافه، وأن لهم عند الله مكانًا وصلاحًا، فلا يدعوهم أن يخلصوه كما يشاهد في حضرة الملوك، فإن الملوك تهب لخواصهم ذنوب آبائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفضح، خلصه أبوه وجده بجاهه ومنزلته.

[خطأ في فهم عفو الله تعالى ورحمته]

* ومنهم من يغتر بأن الله عز وجل غني عن عذابه، وعذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته لا تنقص من ملكه شيئًا. فيقول: أنا مضطر إلى رحمته وهو أغنى الأغنياء ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًا إلى شربة ماء عند من في داره شط يجري لما منعه منها، فالله أكرم وأوسع، والمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

[خطر الفهم الفاسد]

* ومنهم من يغتر بفهم فاسد، فهمه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا عليه كاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥].

وهو لا يرضى أن يكون في النار. وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه، فإنه يرضى بما يرضى به ربه عز وجل، والله تعالى يرضيه تعذيب الظلمة والفسقة والخونة والمصرين على الكبائر، فحاشا رسوله أن لا يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (٥٣) [الزمر: ٥٣]. وهذا أيضاً من أقبح الجهل، فإن الشرك داخل في هذه الآية، فإنه رأس الذنوب وأساسها. ولا خلاف أن هذه الآية في حق التائبين، فإنه يغفر ذنب كل تائب من أى ذنب كان، ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلها. وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة. وهذا إنما أتى صاحبه من قلة علمه وفهمه. فإنه سبحانه ههنا عمم وأطلق، فعلم أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء حصص وقيد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (٤٨) [النساء: ٤٨]. فأخبر الله سبحانه أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه، ولو كان هذا في حق التائب لم يفرق بين الشرك وغيره. وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) [الانفطار: ٦].

فيقول: كرمه، وقد يقول بعضهم: إنه لقن المغتر حجته، وهذا جهل قبيح، وإنما غره به الغرور، وهو الشيطان، ونفسه الأمارة بالسوء وجهله وهواه، وأتى سبحانه بلفظ «الكريم» وهو السيد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاعتزاز به، ولا إهمال حقه. فوضع هذا المغتر الغرور في غير موضعه، واغتر بمن لا ينبغي الاعتزاز به. وكاغترار بعضهم بقوله تعالى في النار: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٥) [الذي كذب وتولى] (١٦) [الليل: ١٥، ١٦] وقوله: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٤) [البقرة: ٢٤].

ولم يدر المغتر أن قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ (١٤) [الليل: ١٤] هي نار مخصوصة من جملة دركات جهنم، ولو كانت جميع جهنم فهو سبحانه لم يقل لا يدخلها، بل قال: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ (١٥) [الليل: ١٥]، ولا يلزم من عدم صليها عدم دخولها، فإن الصلى أخص من الدخول، ونفى الأخص لا يستلزم نفى الأعم. ثم إن هذا المغتر لو تأمل الآية التي بعدها، لعلم أنه غير داخل فيها، فلا يكون مضموناً له أن يجنبها.

وأما قوله في النار: ﴿الَّتِي أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٣١) [آل عمران: ١٣١]. فقد قال في الجنة: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. ولا ينافي إعداد النار

للكافرين أن يدخلها الفساق والظلمة. ولا ينافي إعداد الجنة للمتقين أن يدخلها من في قلبه أدنى مثقال ذرة من الإيمان، ولم يعمل خيراً قط.

وكاغترار بعضهم بالاعتماد على صوم يوم عاشوراء، أو يوم عرفة، حتى يقول بعضهم: صوم يوم عاشوراء يكفر ذنوب العام كلها، ويبقى صوم عرفة زيادة في الأجر، ولم يدر هذا المغتر أن صوم رمضان والصلوات الخمس أعظم وأجل من صيام يوم عرفة ويوم عاشوراء، وهى إنما تكفر ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر. فرمضان إلى رمضان، والجمعة إلى الجمعة لا يقويان في تكفير الصغائر إلا مع انضمام ترك الكبائر إليها، فيقوى مجموع الأمرين على تكفير الصغائر. فكيف يكفر صوم يوم تطوع كل كبيرة عملها العبد وهو مُصر عليها، غير تائب منها؟ هذا محال على أنه لا يمتنع أن يكون صوم يوم عرفة ويوم عاشوراء مكفراً لجميع ذنوب العام على عمومته، وتكون من نصوص الوعد التى لها شروط وموانع، ويكون إصراره على الكبائر مانعاً من التكفير، فإذا لم يصر على الكبائر لتساعد الصوم وعدم الإصرار، وتعاوننا على عموم التكفير. كما كان رمضان والصلوات الخمس مع اجتناب الكبائر متساعدين متعاونين على تكفير الصغائر مع أنه سبحانه قد قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

فاعلم أن جعل الشئ سبباً للتكفير لا يمتنع أن يتساعد هو وسبب آخر على التكفير، ويكون التكفير مع اجتماع السببين أقوى وأتم منه مع انفراد أحدهما، وكلما قويت أسباب التكفير، كان أقوى وأتم وأشمل.

[الاتكال على حسن الظن]

* وكاتكال بعضهم على قوله ﷺ حاكياً عن ربه: «أنا عند حسن ظنّ عبدى بى فليظنّ بى ما شاء»^(١). يعنى ما كان فى ظنه، فإتى فاعله به، ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته.

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٤٩١، ٤/ ١٠٦). وصححه الألبانى فى «الصحيحه» (١٦٦٣).

وأما المسيء المصير على الكبائر والظلم والمخالفات، فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه، وهذا موجود في الشاهد، فإن العبد الأبق الخارج عن طاعة سيده لا يحسن الظن به، ولا يجمع وحشة الإساءة لإحسان الظن أبداً، فإن المسيء مستوحش بقدر إساءته، وأحسن الناس ظناً بربه أطوعهم له^(١)

كما قال الحسن البصري: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل.

وكيف يكون محسن الظن بربه من هو شارد عنه، حال مرتحل في مسأخطة وما يغضبه، متعرض للعنت، قد هان حقه وأمره عليه فأضاعه، وهان نهيه عليه فارتكبه وأصر عليه؟ وكيف يحسن الظن بربه من بارزه بالمحاربة، وعادى أوليائه، ووالى أعداءه وجحد صفات له، وأساء الظن بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وظن بجهله أن ظاهر ذلك ضلال وكفر؟ وكيف يحسن الظن بمن يظن أنه لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا يرضى ولا يغضب.

وقد قال الله تعالى في حق من شك في تعلق سمعه ببعض الجزئيات، وهو السر من القول: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) [فصلت: ٢٣]. فهؤلاء لما ظنوا أن الله سبحانه لا يعلم كثيراً مما يعملون كان هذا إساءة لظنهم بربهم، فأرداهم ذلك الظن، وهذا شأن كل من جحد صفات كماله ونعوت جلاله، ووصفه بما لا يليق به، فإذا ظن هذا أنه يدخله الجنة كان هذا غروراً

(١) من أدى ما افترضه الله تعالى عليه، كان من أعبد الناس، وهذا ما أكدته ابن القيم بقوله في «إعلام الموقعين» (٢/ ١٧٦): ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها:

فعلى العالم من عبودية نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ﷺ ما ليس على الجاهل، وعلى عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره.

وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به، والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتى.

وعلى الغنى من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز فيهما.

وخداعاً من نفسه، وتسويلاً من الشيطان لا إحسان ظن بربه.

فتأمل هذا الموضع، وتأمل شدة الحاجة إليه، وكيف يجتمع في قلب العبد تيقنه بأنه ملاق الله، وأن الله يسمع كلامه ويرى مكانه، ويعلم سره وعلايته، ولا يخفى عليه خافية من أمره، وأنه موقوف بين يديه، ومستول عن كل ما عمل، وهو مقيم على مساخطه مضيق لأوامره، معطل لحقوقه، وهو مع هذا يحسن الظن به، وهل هذا إلا من خداع النفوس، وغرور الأمانى؟!

وقد قال أبو أمامة سهل بن حنيف: دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة - رضى الله عنها - فقالت: لو رأيتما رسول الله ﷺ في مرض له، وكانت عنده ستة دنائير، أو سبعة دنائير، فأمرنى رسول الله ﷺ أن أفرقها، فشغلنى وجع رسول الله ﷺ حتى عافاه الله، ثم سألنى عنها فقال: «ما فعلت؟ أكنت فرقت الستة الدنائير؟» فقلت: لا والله، لقد كان شغلنى وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: «ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده؟» وفي لفظ: «ما ظن محمد بربه لو لقي الله وهذه عنده»^(١).

فيالله! ما ظن أصحاب الكبائر والظلمة بالله إذا لقوه ومظالم العباد عندهم؟ فإن كان ينفعهم قولهم: حسنا ظنونا بك إنك لن تعذب ظالمًا ولا فاسقًا، فليصنع العبد ما يشاء، وليرتكب كل ما نهاه الله عنه، وليحسن ظنه بالله، فإن النار لا تمسه، فسبحان الله! ما يبلغ الغرور بالعبد، وقد قال إبراهيم لقومه: ﴿أَنْفَكَ آلِهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧) [الصفات: ٨٦، ٨٧] أى: ما ظنكم به أن يفعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره.

[حسن الظن الصحيح]

ومن تأمل هذا الموضع حق التأمل، علم أن حسن الظن بالله هو حسن العمل نفسه، فإن العبد إنما يحمله على حسن العمل حسن ظنه بربه أنه يجازيه على أعماله

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٠٤، ١٨٢) صحيحه الألبانى فى «الصحيحة» (١٠١٤).

ويشبه عليها ويتقبلها منه، فالذى حمّله على حسن العمل حسن الظن، فكلما حسن ظنه بربه حسن عمله، وإلا فحسن الظن مع اتباع الهوى عجز، كما في حديث الترمذى و«المسند» من حديث شدداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: «الكيس^(١) مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»^(٢). وبالجملة فحسن الظن إنما يكون مع اعتقاد أسباب النجاة، وأما مع اعتقاد أسباب الهلاك، فلا يأتى إحسان الظن.

[الفرق بين حسن الظن والغرور]

* فإن قيل: بل يتأتى ذلك، ويكون مستند حسن الظن سعة مغفرة الله ورحمته وعفوه، وجوده، وأن رحمته سبقت غضبه، وأنه لا تنفعه العقوبة، ولا يضره العفو. قيل: الأمر هكذا، والله فوق ذلك وأجل وأكرم وأجود وأرحم، ولكن إنما يضع ذلك فى محله اللائق به، فإنه سبحانه موصوف بالحكمة، والعزة والانتقام، وشدة البطش، وعقوبة من يستحق العقوبة، فلو كان معول حسن الظن على مجرد صفاته وأسمائه، لا شترك فى ذلك البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر، ووليه وعدوه، فما ينفع المجرم أسماؤه وصفاته، وقد باء بسخطه وغضبه، وتعرض للعنت، ووقع فى محارمه، وانتهك حرّماته، بل حسن الظن ينفع من تاب وندم وأقلع، وبَدَّل السيئة بالحسنة، واستقبل بقية عمره بالخير والطاعة، ثم أحسن الظن بعدها، فهذا هو حسن ظن، والأول غرور. والله المستعان.

ولا تستطل هذا الفصل؛ فإن الحاجة إليه شديدة لكل أحد يفرق بين حسن الظن بالله وبين الغرور به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فجعل هؤلاء أهل الرجاء، لا البطالين والفاسقين. قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ

(١) الكيس: ضد الحمق.

(٢) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (١٢٤/٤)، ورواه الترمذى (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠). وضعفه الألبانى فى القسم الضعيف لستينهما. وضعفه الجامع (٤٣١٠).

هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبِرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ [النحل: ١١٠]. فأخبر سبحانه أنه بعد هذه الأشياء غفور رحيم لمن فعلها. فالعالم يضع الرجاء مواضعه، والجاهل المغتر يضعه في غير مواضعه.

[وضع كل من الخوف والرجاء موضعه]

* وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه، فضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب، فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق.

وقال بعض العلماء: من قطع عضواً منك في الدنيا يسرقه ثلاثة دراهم، لا تأمن أن تكون عقوبته في الآخرة نحو هذا.

وقيل للحسن: أراك طويل البكاء؟ فقال: أخاف أن يطرحني ولا يبالي وكان يقول: إن قوماً ألتهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة يقول أحدهم: لأننى أحسن الظن بربى، وكذب، لو أحسن الظن لأحسن العمل.

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، كيف تصنع بمجالسة أقوام يخوفوننا حتى نكاد قلوبنا تطير؟ فقال: والله لأن تصحب أقواماً يخوفونك حتى تدرك أمناً، خير من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

وقد ثبت فى «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاءُ بالرجل يوم القيامة، فيُلْقَى فى النار، فتندلقُ أفتابٌ» بطنه فيدور فى النار كما يدور الحمارُ برحاه، فيطوفُ به أهلُ النار، فيقولون: يا فلانُ، ما أصابك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(١)

(١) الأفتاب: الأمعاء، جمع قنب - بكسر القاف - وقال الأصمعى: واحدها قنبه بالهاء.

(٢) حديث صحيح: رواه البخارى (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩).

وذكر الإمام أحمد من حديث أبي رافع قال: مرَّ رسول الله ﷺ بالبقيع فقال: أف لك فظننت يريدني، فقال: لا، ولكن هذا قبر فلان، بعثته ساعياً إلى آل فلان، غلّ غمرة^(١) فدرّع الآن مثلها من نار^(٢).

وفى «مسنده» أيضاً من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت بيلة أسرى بي على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أمتك من أهل الدنيا، كانوا يأمرّون الناس بالبر وينسون أنفسهم»^(٣).

وفيه أيضاً من حديثه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بي مررت بقوم لهم ظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم، وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»^(٤).

وفيه أيضاً عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب والأبصار بُت قلبي على دينك». فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها كيف شاء»^(٥).

وفيه أيضاً عنه، أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «ما لي لم أر ميكائيل ضاحكاً طُ؟ قال: ما ضحك منذ خُلقت النار»^(٦).

وفى «صحيح مسلم» عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بأهل الدنيا من بل النار، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ

(١) غمرة: برودة من صوف تلبسها العرب.

(٢) حديث ضعيف الإسناد: أخرجه أحمد (٦/ ٣٩٢).

(٣) حديث صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٠، ١٨٠، ٢٣١، ٢٣٩). وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٢١).

(٤) حديث صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨). وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»، وفي «الصحيحة» (٥٣٣).

(٥) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١١٢)، ورواه الترمذي (٢١٤٠، ٣٥٢٢). وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٦) الحديث سنده ضعيف: رواه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢٤). وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٩٣).

بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتى بأشدَّ الناس بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيُصبغُ في الجنة صبغةً فيقال له: يا بن آدم، هل رأيت بُؤساً قطُّ؟ هل مرَّ بك شدُّ قطُّ؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرَّ بي بُؤسٌ قطُّ، ولا رأيتُ شدةً قطُّ^(١).

وفى «المسند» من حديث البراء بن عازب، قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جناز رجل من الأنصار، فانتبهنا إلى القبر، ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلس حوله، كأن على رؤوسنا الطير، وفى يده عود ينكتُ به الأرض، فرفع رأسه، فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» - مرتين أو ثلاثاً - ثم قال: «إن العبدَ المؤمنَ إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيضُ الوجوه كأجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان أهل الجنة، وحنوط^(٢) من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء^(٣)» فياخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها فى ذلك الكفن، وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: روح فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها فى الدنيا - فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوه إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتب كتاب عبدى فى عليين، (وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى). فقال: فتعاد روحه فى جسده، فيأتية ملكان، فيجلسا فيقولون له: من ربك؟ فيقول: ربى الله عز وجل. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دين الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو محمد رسول الله فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله عز وجل، فأمنت به وصدقت.

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣/٣٠٢)، ورواه مسلم (١٨/١٤٩).

(٢) الحنوط: طيب يخلط للميت خاصة.

(٣) من فى السقاء: السقاء اللبن والماء، والقرية للماء فقط.

فينادى مناد من السماء: أن صدق عبادى، فافرشوا له من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجرىء بالخير، فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلى ومالى. قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، سود الوجوه، معهم المسوح^(١)، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجرىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق فى جسده فينزعها، كما ينزع السفود^(٢) من الصوف المبتل، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: روح فلان بن فلان - بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا - فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْجَأَ الْجِمْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله - عز وجل - : اكتبوا كتابه فى سجين، فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَطِّفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] فتعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه، لا أدري. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه، لا أدري. فينادى مناد من السماء: أن كذب عبادى، فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجرىء

(١) المسوح: جمع مسح، وهو ثوب غليظ من الشعر.

(٢) السفود: بوزن الثور: حديدة مديية يشوى بها اللحم.

بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تُقيم الساعة».

وفى لفظ لأحمد أيضاً: «ثم يُقيض له أعمى أصم أبكم، فى يده مرزبة، لو ضرب بها جبلاً كان تراباً، ثم يعيده الله عز وجل كما كان، فيضربه ضربة أخرى فيصبح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلين» قال البراء: «ثم يفتح له باب إلى النار، ويمهد له فرش من النار»^(١).

وفى «المسند» أيضاً عنه قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة فقال: «علام اجتمع هؤلاء؟» قيل: على قبر يحفرونه، ففرع رسول الله ﷺ - فبدر بين يدي أصحابه مسرعاً، حتى انتهى إلى القبر، فجثا على ركبتيه، فاستقبلته بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه. ثم أقبل علينا فقال: «أى إخوانى، لمثل هذا اليوم فاعدوا»»^(٢).

وفى «المسند» من حديث بريدة قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً، فنادى - ثلاث مرات - : «يا أيها الناس، أذكرون ما مثلى ومثلكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتبهم فبعثوا رجلاً يترأى لهم، فأبصر العدو، فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فاهوى بثوبه: أيها الناس، أتيتم، أيها الناس، أتيتم - ثلاث مرات - »»^(٣).

وفى «صحيح مسلم» من حديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ مُسكرٍ حرامٌ، وإن على الله - عز وجل - عهداً لمن يشرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال؟ قال: عرق أهل النار، أو عصارة أهل النار»^(٤).

(١) حديث صحيح: رواه أحمد (٢٨٧ / ٤)، (٣٦٢ / ٦)، ورواه أبو داود (٤٧٥٣). وصححه الألبانى فى صحيح السنن، وصحيح الجامع (١٦٧٢).

(٢) حديث حسن: رواه ابن ماجه (٤١٩٥)، وأحمد فى «المسند» (٢٩٤ / ٤) حسنه الألبانى فى «صحيح ابن ماجه»، وأورده فى «الصحيحه» (١٧٥١).

(٣) إسناده ضعيف: رواه أحمد (٣٤٨ / ٥) رجاله ثقات، إلا بشير بن المهاجر، فإنه صدوق لين الحديث كما فى «التقريب».

(٤) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٧١ / ١٣)، وأحمد (٣٦١ / ٣).

وفى «المسند» أيضاً من حديث أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحُق لها أن تَنطَّ»^(١)، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملكٌ ساجدٌ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تُلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجارون إلى الله عز وجل» قال أبو ذر: والله لوددت أنى شجرة تعضد^(٢)

وفى «المسند» أيضاً من حديث حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة فلما انتهينا إلى القبر، قعد على ساقبه، فجعل يردد بصره فيه، ثم قال: «يُضغَطُ المؤمنُ فيه ضغطةٌ تزولُ منها حمائله، ويملأ على الكافر ناراً»^(٣) والحمائل: عروق الأنثيين.

وفى «المسند» أيضاً من حديث جابر قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ حين توفى، فلما صلى عليه رسول الله ﷺ ووضع فى قبره وسوى عليه، سبَّح رسولُ الله ﷺ، فسبحنا طويلاً، ثم كَبَّرَ فكَبَّرْنَا، فقليل: يا رسول الله، لِمَ سَبَّحْتَ، ثم كَبَّرْتَ؟ فقال: «لقد تضايق على هذا العبدِ الصالح قبره، حتى فرَّج الله عنه»^(٤)

وفى «صحيح البخارى» من حديث أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وُضعت الجنازةُ واحتملها الرجالُ على أعناقهم، فإن كانت صالحةً قالت: قدَّمونى قدَّمونى. وإن كانت غير صالحةً قالت: يا ويلها، أين تذهبون بها؟ يسمعُ صوتها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ. ولو سمعها الإنسان لصعق»^(٥)

(١) أطت السماء: الاطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الجمال صوتها وحنينها، والمعنى أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت.

(٢) حديث حسن: أخرجه الترمذى (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، وأحمد (١٧٣/٥). وحسنه الألبانى فى «صحيح الترمذى»، وابن ماجه، و«الصحيحه» (١٧٢٢).

(٣) حديث ضعيف: أخرجه أحمد فى «المسند» (٤٠٧/٥)، وابن الجوزى فى «الموضوعات» (٢٣١/٣) وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٣٦٠/٣)، وفيه محمد بن إسحاق: صدوق يدلّس، وقد صرح بالتحديث، ومحمود بن عبد الرحمن، صوابه محمد، وثقه أبو زرعة، كما فى «الجرح والتعديل» (٣١٦/٧)، وذكره ابن حبان فى «الثقات» (٣٧٣/٥).

(٥) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤١/٣)، ورواه البخارى (١٣١٤)، والنسائى فى «سننه» (٤١/٤).

وفى «مسند الإمام أحمد» من حديث أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويُزادُ في حرّها كذا وكذا، تغلى منها الرؤوس كما تغلى القدور، يعرقون فيها على قدر خطاياهم، منهم من يبلغ إلى كعبه، ومنهم من يبلغ إلى ساقه، ومنهم يبلغ إلى وسطه، ومنهم من يلجمه العرق»^(١).

وفيه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن؟ وحنى جبهته يستمع منى يؤمر فينفخ» فقال أصحابه: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا»^(٢).

وفى «المسند» أيضاً عن ابن عمر يرفعه: «مَنْ تعظّم في نفسه، أو اختال في مشيته، لَقِيَ الله تعالى وهو عليه غضبان»^(٣).

وفى «الصحيحين» عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المصورين يُعَذَّبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»^(٤).

وفيهما - أيضاً - عنه عن النبي ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل يوم القيامة»^(٥).

وفيهما - أيضاً - عنه عن النبي ﷺ: «إذا صار أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار جيء بالموت حتى يُوقَفَ بين الجنة والنار ثم يُدْبَح، ثم ينادى مناد: يا أهل الجنة، خلّوْا فلا موت، ويا أهل النار، خلّوْا فلا موت. فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم،

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٤)، وأخرجه مسلم (٢٨٦٤)، والترمذي (٢٤٢١)، وأحمد (٣/ ٦) من حديث المقداد بنحوه.

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد (١/ ٣٢٦)، والترمذي من حديث أبى سعيد (٢٤٣١). وصححه الألباني في «صحيح الترمذي»، وفي «الصحيحة» (٧٩ - ١).

(٣) حديث صحيح: رواه أحمد (٢/ ١١٨)، والحاكم (١/ ٦٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وقال الذهبي في «التهذيب»: «على شرط مسلم». وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٣).

(٤) حديث صحيح: رواه البخاري (٥٩٥١، ٧٥٥٨)، ومسلم (٢٠١٨)، وأحمد (٤/ ٢).

(٥) حديث صحيح: رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦)، وأحمد (١١٣/ ٢).

ويزداد أهل النار حزنًا إلى حزنهم»^(١).

وفى «المسند» عنه قال: «من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم يقبل الله له صلاة ما دام عليه» ثم أدخل إصبعه في أذنيه ثم قال: «صمتا إن لم أكن سمعت النبي ﷺ يقوله»^(٢).

وفيه عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات كان حقًا على الله أن يسقيه طينة الخبال» قيل: وما طينة الخبال، يا رسول الله، قال: «عصارة أهل جهنم»^(٣).

وفيه أيضًا عنه مرفوعًا: «من شرب الخمر مرة لم تقبل له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه» فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: «فإن عاد كان حقًا على الله أن يسقيه من رذغة الخبال يوم القيامة»^(٤).

وفى «المسند» أيضًا من حديث أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات مُدْمِنًا للخمر سبّاه الله من نهر الغوطة» قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: «نهرٌ يجري من فروج المومسات، يؤذى أهل النار ريحُ فروجهن»^(٥).

وفيه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعرضُ الناسُ يومَ القيامة ثلاثَ عرضات، فأما عرضتان فجداولٌ ومعاذيرٌ، وأما الثالثة فعند ذلك تطيرُ الصحفُ في الأيدي، فأخذُ

(١) حديث صحيح: رواه البخاري (٦٥٤٨)، ومسلم (٢٨٥٠)، وأحمد (١١٨/٢).

(٢) حديث ضعيف: رواه أحمد (٩٨/٢). وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٤٢٨).

(٣) حديث صحيح: رواه أحمد (١٧٨/٢). وصححه الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - في تعليقه على «المسند» (٦٦٥٩).

(٤) حديث صحيح: رواه أحمد (١٧٦/٢). وصححه أحمد شاكر - رحمه الله - في تعليقه على «المسند» (٦٦٤٤)، وأخرجه النسائي (٣١٧/٨). وصححه الألباني في «صحيح النسائي».

(٥) حديث ضعيف: رواه أحمد (٣٩٩/٤)، والحاكم (١٤٦/٤). وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٤٦٣).

بيمينه، أو آخذٌ بشماله»^(١).

وقال في «المسند» أيضاً من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقراتُ الذُّنُوبِ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه. وضربَ لهن رسول الله ﷺ مثلاً، كمثُل قوم نزلوا أرضَ فلاةٍ فحضرَ صنيعُ القوم، فجعل الرجلُ ينطلقُ فيجىءُ بالعود، والرجلُ يجىءُ بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججُوا ناراً، فأنضجوا ما قذفوا فيها»^(٢).

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُضْرَبُ الجَسْرُ على جهنم، فأكون أول من يجوز، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلِّمْ سلِّمْ، وعلى حافتيه كلاليب مثل شوك السعدان، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود وحرِّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا فيُصب عليهم من ماء يقال له: ماء الحياة، فيثبتون نبات الحبة في حميل السيل»^(٣).

وفي «صحيح مسلم» عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجلٌ استشهد، فأُتِيَ به فعرفه نعمهُ فعرَّفها. فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى قُتلت، قال: كذبت، ولكن قاتلت ليقال: هو جرىءٌ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحبَ على وجهه حتى ألقي في النار، ورجلٌ تعلَّم العلمَ وعَلَّمه وقرأ القرآن فأُتِيَ به فعرفه نعمهُ فعرَّفها فقال: ما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ فيك العلمَ وعَلَّمته، وقرأتُ فيك القرآن، فقال: كذبت، ولكنك تعلَّمت ليقال هو عالمٌ، فقد قيل، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحبَ على

(١) حديث ضعيف: رواه أحمد (٤١٤/١)، والترمذي (٢٤٢٥)، وابن ماجه (٤٢٧٧). وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي، وابن ماجه»، والمشكاة (٥٥٥٧).

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد (٤٠٢/١)، (٣٣١/٥). صححه الألباني في «الصحيحة» (٣٨٩).

(٣) حديث صحيح: رواه البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (٢٩٩، ٤-٣).

وجهه حتى ألقى في النار . وفي لفظ : «فهؤلاء أول خلق الله تُسعرُ بهم النارُ يوم القيامة»^(١) .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: كما أن خير الناس الأنبياء، فشر الناس من تشبه بهم يومهم أنه منهم ، وليس منهم، فخير الناس بعدهم: العلماء، والشهداء، والصديقون ، والمخلصون، وشر الناس من تشبه بهم يومهم أنه منهم وليس منهم .

وفي «صحيح البخارى» من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : «من كانت عنده لأخيه مظلمة في مال أو عرض فليأتها، فليستحلها منه قبل أن يؤخذَ وليس عنده دينارٌ ولا درهم، فإن كانت له حسناتٌ أخذَ من حسناته فأعطىها هذا، وإلا أخذَ من سيئاتِ هذا فطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار»^(٢) .

وفي «الصحيح» من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : «من أخذ شبراً من الأرض بغير حقه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبعِ أرضين»^(٣) .

وفي «الصحيحين» عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ناركم هذه التى يؤقَدُ بنو آدمَ جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية، قال : «فإنها لفضلتُ عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثلُ حرِّها»^(٤) .

وفي «المسند» عن معاذ قال : أوصانى رسول الله ﷺ فقال : «لا تشرك بالله شيئاً ، وإن قُتلت أو حرُقت، ولا تعقنَّ والديك، وإن أمراك أن تخرج من أهلِكَ ومالك، ولا تترك صلاةً مكتوبةً متعمداً، فإن من ترك صلاةً مكتوبةً متعمداً فقد برئت منه ذمةُ الله، ولا تشربن خمرًا ؛ فإنه رأسُ كلِّ فاحشة، وإياك والمعصية ؛ فإن المعصية تُحلُّ سخطَ الله»^(٥) .

(١) حديث صحيح: رواه مسلم (١٣/٥٠)، وأحمد (٢/٣٢٢)، والنسائي (٦/٢٣، ٢٤).

(٢) حديث صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٩)، وأحمد (٢/٦-٥).

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى من حديث ابن عمر (٢٤٥٤)، ومسلم (١٦١١) بنحوه من حديث أبى هريرة وسعيد بن زيد.

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

(٥) حديث حسن: أخرجه أحمد (٥/٢٣٨)، وابن ماجه (٤/٣٤) بنحوه عن أبى الدرداء. وحسنه الألبانى فى «صحيح الترغيب» (٥٦٩).

والأحاديث في هذا الباب أضعاف أضعاف ما ذكرنا، فلا ينبغي لمن نصح نفسه أن يتعمى عنها، ويرسل نفسه في المعاصي، ويتعلق بحسن الرجاء وحسن الظن.

قال أبو الوفاء بن عقيل: احذره ولا تغتر به؛ فإنه قطع اليد في ثلاثة دراهم، وجلد الحد في مثل رأس الإبرة من الخمر، وقد دخلت امرأة النار في هرة، واشتعلت الشملة نارا على من غلها، وقد قتل شهيدا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب، ودخل رجل النار في ذباب» قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزونه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء، قالوا له: قرب ولو ذبابا، فخلوا سبيله فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا من دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة»^(١). وهذه الكلمة الواحدة يتكلم بها العبد يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب.

وربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا، وأنه لا يغير ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، وهذا من الغرور.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين بن سعد عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج»^(٢).

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٥، ١٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٣/١) موقوفا على سلمان بسند صحيح، ولا يصح مرفوعا، وانظر «النهج السديد» في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد» رقم (٢٤) لجاسم الفهيد، وهو في مسألة العذر بالإكراه، وقد دلت أدلة الشرع على أن العذر بالإكراه خاص بهذه الأمة، والأمم السابقة لم تكن فيها هذه الرخصة؛ لقوله تعالى: «إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعبدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا» وهذا في الأمم السابقة، أما في هذه الأمة فيقول ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». رواه ابن ماجه (٢٠٤٣). وصححه الألباني في «الإرواء» (٨٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٤٥/٤). وقال الألباني في «المشكاة» (٣/١٤٣٦): إسناده جيد =

تلا قوله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا رَجَوْا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمته، وأنت مقيم على معاصيه حذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك به. وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ نَاسُ أُمَّةٍ وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتَهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ [٣٣] وَلَبُيُوتَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكُونُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا نَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ أَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ [١٥] وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي هَانٌ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧].

أى: ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه آكون قد أكرمته، ولا كل من ابتليته ضيقت عليه رزقه آكون قد أهنته، بل ابتلى هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء. وفى جامع الترمذى عنه عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يَعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يَحِبُّ وَمَنْ لَا يَحِبُّ، وَلَا يُعْطَى لِإِيمَانٍ إِلَّا مَنْ يَحِبُّ»^(١). وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو يعلم.

[الاغترار بالدنيا]

* وأعظم الخلق غروراً من اغتر بالدنيا وعاجلها، فأثرها على الآخرة، وورضى بها من الآخرة، حتى يقول بعض هؤلاء: الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد أحسن من نسيئة. ويقول بعضهم: ذرة منقودة، ولا ذرة موعودة.

= وصححه فى «صحيح الجامع» (٥٧٥)، و«الصحيح» (٤١٣).

(١) حديث ضعيف: رواه أحمد (١/ ٣٨٧)، والحاكم (٤/ ١٦٥). وضعفه الألبانى فى ضمن حديث لابن مسعود فى «ضعيف الجامع» (١٦٢٥).

ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين بالشك. وهذا من أعظم تلبيس الشيطان وتسويله، والبهايم العجم أعقل من هؤلاء؛ فإن البهيمة إذا خافت مضرة شيء، لم تقدم عليه ولو ضربت، وهؤلاء يقدم أحدهم على عطيه، وهو بين مُصدقٍ ومكذبٍ.

فهذا الضرب إن آمن أحدهم بالله ورسوله ولقائه والجزاء، فهو من أعظم الناس حسرة؛ لأنه أقدم على علم، وإن لم يؤمن بالله ورسوله فأبعد له. وقول هذا القائل: النقد خير من النسيئة.

جوابه: إذا تساوى النقد والنسيئة فالنقد خير. وإن تفاوتتا وكانت النسيئة أكثر وأفضل فهي خير. فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة؟ كما في «مسند الإمام أحمد» و«الترمذي» من حديث المستورد بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم إصبعه في اليم، فليُنظر بِمَ يرجع؟»^(١)

فإيثار هذا النقد على النسيئة من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة؟ فأیما أولى بالعقل: إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء صغير منقطع عن قرب، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده.

فأما قول الآخر: لا أترك متيقناً لمشكوك فيه.

فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله ووعيده وصدق رسله، أو تكون على يقين من ذلك، فإن كنت على يقين من ذلك فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب، لأمر متيقن لاشك فيه ولا انقطاع له.

وإن كنت على شك فراجع آيات الرب تعالى الدالة على وجوده وقدرته ومشيتته،

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٠)، ورواه مسلم (١٨/ ١٩٢)، والترمذي (٢٣٢٣)، وابن ماجه (٨- ٤١).

ووجدانيته، وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله، وتجرد وقم لله ناظرًا أو مناظرًا، حتى يتبين لك أن ما جاءت به الرسل عن الله فهو الحق الذي لا شك فيه، وأن خالق هذا العالم ورب السموات والأرض يتعالى ويتقدس ويتنزه على خلاف ما أخبرت به رسله عنه. ومن نسه إلى غير ذلك فقد شتمه وكذبه، وأنكر ربوبيته وملكه إذ من المحال الممتنع عند كل ذى فطرة سليمة، أن يكون الملك الحق عاجزًا أو جاهلاً، لا يعلم شيئًا، ولا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا يأمر، ولا ينهى، ولا يثيب، ولا يعاقب، ولا يعز من يشاء، ولا يذل من يشاء، ولا يرسل رسله إلى أطراف مملكته ونواحيها، ولا يعتنى بأحوال رعيته، بل يتركهم سدًى ويخليهم هملاً. وهذا يقدح في ملك آحاد ملوك البشر ولا يليق به، فكيف يجوز نسبة الملك الحق المبين إليه؟

وإذا تأمل الإنسان حاله من مبدأ كونه نقطة إلى كماله واستوائه، تبين له أن من عنى به هذه العناية، ونقله في هذه الأحوال، وصرفه في هذه الأطوار، لا يليق به أن يهمله ويتركه سدًى، ولا يأمره ولا ينهيه ولا يعرفه حقوقه عليه، ولا يشبهه ولا يعاقبه. ولو تأمل العبد حق التأمل لكان كل ما يبصره وما لا يبصره دليلاً له على التوحيد والنبوة والمعاد، وأن القرآن كلامه وقد ذكرنا وجه الاستدلال بذلك في كتاب: أيمان القرآن عند قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) وما لا تبصرون (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤٠]. وذكرنا طرقاً من ذلك عند قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢١) [الذاريات: ٢١]، وأن الإنسان دليل على وجود خالقه وتوحيده، وصدق رسله، وإثبات صفات كماله. فقد بان أن المضيع مغرور على التقديرين: تقدير تصديقه ويقينه، وتقدير تكذيبه وشكه.

[اليقين بالمعاد وترك العمل]

* فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غداً إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبعث ساهياً غافلاً، ولا يتذكر

موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أهبة.

قيل: هذا لعمرُ الله سؤال صحيح وارد على أكثر الخلق، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت، فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها. وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عياناً بعد علمه بقدرة الرب على ذلك، ليزداد طمأنينة، ويصير المعلوم غيباً شهادة^(١).

وقد روى أحمد في «مسنده» عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس المخبرُ كالمعاين»^(٢).

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره أو غيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضى الطبع، وغلبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورخص التأويل، وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهى إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

(١) إن سؤال إبراهيم الخليل - عليه السلام - ربه بقوله: ﴿كيف تُحيى الموتى﴾ ليس على شك في قدرة الله، ولكن سؤال كيفية الإحياء ويدل عليه وروده بصيغة «كيف».

وموضوعها السؤال عن الحال، ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ومعناه: نحن لم نشك فلتن لا يشك إبراهيم أخرى وأولى.

وقال أبو سليمان الخطابي: مذهب هذا الحديث التواضع والهضم في النفس، وليس في قوله ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم - صلى الله عليهما - يمكن فيه نفى الشك عن كل واحد منهما يقول: إذا لم أشك أنا ولم أرتب في قدرة الله عز وجل على إحياء الموتى، فإبراهيم - عليه السلام - أولى بأن لا يشك فيه ولا يرتاب، وفيه الإعلام أن المسألة من قبل إبراهيم لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبل طلب زيادة العلم، واستفادة معرفة كيفية الإحياء، وتجد النفس من الطمأنينة بعلم الكيفية ما لا تجده بعلم النية. والعلم في التوجهين حاصل، والشك مرفوع.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٧١/١) بلفظ: «ليس الخبر كالمعاينة... إلخ». وصححه الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله تعالى - في تعليقه على «المسند» (٢٤٤٧). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٠).

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهذا مدح الله سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة الدين، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

[الفرق بين حسن الظن والغرور]

* فقد تبين الفرق بين حسن الظن والغرور، وإن حسن الظن إن حمل على العمل، وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاءه هادياً له إلى الطاعة، وزجراً له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء، ورجاءه بطالة وتفريطاً، فهو المغرور. ولو أن رجلاً كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه فأهملها ولم يذرهما ولم يحراثها، وحسن ظنه بأنه يأتي من مغلها ما يأتي من حرث وبذر وسقى وتعاهد الأرض، لعدّه الناس من أسفه السفهاء.

وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاءه بأن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه، وأمثال ذلك. فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاءه في الفوز بالدرجات العلا والنعيم المقيم، من غير تقرب إلى الله تعالى بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، وبالله التوفيق.

وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]. فتأمل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطاعات.

وقال المغرورون: إن المفرطين المضيّعين لحقوق الله المعطلين لأوامره، الباغين على عباده المتجرئين على محارمه، أولئك يرجون رحمة الله.

وسر المسألة: أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها، ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه أن لا يكله إليها وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويضرب عما يعارضها ويبطل أثرها.

[الفرق بين الرجاء والأمانى]

* ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئاً استلزم رجاؤه ثلاثة أمور:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه فى تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأمانى . والرجاء شيء والأمانى شيء آخر، فكل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير مخافة الفوات . وفى «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج^(١) ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(٢).

وهو سبحانه كما جعل الرجاء لأهل الأعمال الصالحة، فكذلك جعل الخوف لأهل الأعمال الصالحة؛ فعلم أن الرجاء والخوف النافع ما اقترن به العمل. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٦١].

وقد روى الترمذى فى «جامعه» عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلُّون ويتصدقون، ويخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك يسارعون فى الخيرات»^(٣). وقد روى من حديث أبى هريرة

(١) الإدلاج: السير بالليل.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (٢٤٥٠)، وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» و«صحيح الجامع» (٦٠٩٨).

(٣) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (٣١٧٥)، وأحمد (١٥٩/٦)، وابن ماجه (٤١٩٨) وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى».

يضاً. والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف، ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن.

[ما كان عليه السلف من الخوف والعمل]

* ومن تأمل أحوال الصحابة - رضى الله عنهم - ، وجدهم فى غاية العمل مع-
ناية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير، بل التفريط والأمن.

فهذا الصديق - رضى الله عنه - يقول: «وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن» .
كره أحمد عنه. وذكر عنه أنه كان يمسك بلسانه ويقول: «هذا الذى أوردنى
لوارده». وكان يبكى كثيراً ويقول: «ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا». وكان إذا قام
لصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل. وأتى بطائر فقلبه ثم قال: ما صيد من
سيد، ولا قطعت من شجرة إلا بما ضيعت من التسييح. فلما احتضر، قال لعائشة:
يا بنية، إني أصبت من مال المسلمين هذه العباءة وهذا الحلاب^(١) وهذا العبد،
أسرعى به إلى ابن الخطاب». وقال «والله لوددت أنى كنت هذه الشجرة تؤكل
تعضد». وقال قتادة: بلغنى أن أبا بكر قال: «ليتنى خضرة تأكلنى الدواب».

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [٧] الطور: ٧] بكى واشتد بكاءؤه حتى مرض وعادوه. وقال لابنه وهو فى الموت:
يحك ضلع خدى على الأرض، عساه أن يرحمنى. ثم قال: بل ويل أمى، إن لم
ففر لى ثلاثاً، ثم قضى. وكان يمر بالآية فى ورده بالليل فتخيفه، فيبقى فى البيت
بأماً يعاد، يحسبونه مريضاً وكان فى وجهه - رضى الله عنه - خطان أسودان من
بكاء. وقال له ابن عباس: مصر الله بك الأمصار، وفتح بك الفتوح، وفعل.
قال: وددت أنى أنجو لا أجر ولا وزر.

وهذا عثمان بن عفان - رضى الله عنه - كان إذا وقف على القبر يبكى حتى يبل
عيته. وقال: لو أنتى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى، لا اخترت أن
تكون رماداً قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير.

(١) الحلاب: إناء يحلب فيه.

وهذا على بن أبي طالب - رضى الله عنه - وبكاؤه وخوفه . وكان يشتد خوفه من اثنين : طول الأمل ، واتباع الهوى ، قال : فأما طول الأمل فينسى الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، ألا وإن الدنيا قد ولت مدبرة ، والآخرة مقبلة ، ولكل واحد من بنيون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

وهذا أبو الدرداء - رضى الله عنه - ، كان يقول : إن أشد ما أخاف على نفسي يوم القيامة أن يقال لى : يا أبا الدرداء ، قد علمت ، فكيف عملت فيما علمت ؟ وكان يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاماً على شهوة ولا شربتم شرباً على شهوة ، ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه ، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم ، وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل .

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشراك البالى من الدموع .

وكان أبو ذر يقول : يا ليتنى كنت شجرة تعضد ، ووددت أنى لم أخلق وعرضت عليه النفقة ، فقال : ما عندنا إلا عتر نحلبها وحمير ننقل عليها ، ومحرر يخدمنا وفضل عبادة ، وإنى أخاف الحساب فيها .

وقرأ تميم الدارى ليلة سورة الجاثية ، فلما أتى على هذه الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [سورة الجاثية : ٢١] . جعل يرددنها ويكى حتى أصبح .

وقال أبو عبيدة عامر بن الجراح : وددت أنى كبش فذبحنى أهلى وأكلوا لحمى وحسوا مرقى . وهذا باب يطول تتبعه .

قال البخارى فى «صحيحه» : «باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر» وقال إبراهيم التيمى : ما عرضت قولى على عملى إلا خشيت أن أكون مكذباً . وقال ابن أبى مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبى ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

ويذكر عن الحسن : ما أخافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق . وكان عمر بن الخطاب

يقول لحذيفة: «أنشدك الله، هل سماني لك رسول الله ﷺ - يعنى فى المنافقين - ؟ فيقول: لا، ولا أركى بعدك أحداً». فسمعت شيخنا - رضى الله عنه - يقول: ليس مراده لا أبرئ غيرك من النفاق، بل المراد لا أفتح على نفسى هذا الباب، فكل من سألنى هل سماني لك رسول الله ﷺ فأركيه.

قلت: وقريب من هذا قول النبى ﷺ للذى سأله أن يدعو له أن يكون من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «سبقك بها عكاشة»^(١). ولم يرد أن عكاشة وحده أحق بذلك ممن عداه من الصحابة، ولكن لو دعا له لقام آخر وآخر وانفتح الباب. وربما قام من لم يستحق أن يكون منهم، فكان الإمساك أولى. والله أعلم.

[ضرر الذنوب فى القلب كضرر السموم فى الأبدان]

* فلنرجع إلى ما كنا فيه من ذكر دواء الداء الذى إن استمر أفسد دنيا العبد وآخرته. فمما ينبغى أن يعلم، أن الذنوب والمعاصى تضر، ولا بد أن ضررها فى القلب كضرر السموم فى الأبدان، على اختلاف درجاتها فى الضرر، وهل فى الدنيا والآخرة شر وداء إلا سببه الذنوب والمعاصى؟

فما الذى أخرج الأبوين من الجنة، دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلام والأحزان والمصائب؟ وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه، ومسح ظاهره وباطنه فجعل صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدلته بالقرب بعداً وبالرحمة لعنة، وبالجمل قبحاً، وبالجنة ناراً تلتظى، وبالإيمان كفرًا، وبموالاته الولى الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل التسبيح والتقديس والتهليل زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه، ومقته أكبر المقت فأرداه، فصار قواداً لكل فاسق ومجرم، رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العيادة والسيادة، فعياداً بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٥٨١١، ٦٥٤٢)، ومسلم (٨٨/٢).

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رؤوس الجبال؟ وما الذى سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما دمرت عليهم من ديارهم وحروثهم ودروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرة للأمم إلى يوم القيامة؟ وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم؟ وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكهم جميعاً، ثم أتبعهم حجارة من السماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هى من الظالمين ببعيد، وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم ناراً تَلْظَى؟ وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق؟ وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله؟ وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميراً؟ وما الذى أهلك قوم صاحب يس بالصيحة حتى خمدوا عن آخرهم؟ وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوماً أولى بأسٍ شديد، فجاسوا خلال الديار، وقتلوا الرجال، وسبوا الذرية والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدرُوا عليه وتَبَرَّوا ما علُوا تَبيراً؟ وما الذى سلط عليهم أنواع العقوبات، مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ (١٦٧) [الأعراف: ١٦٧].

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا صفوان بن عمرو، حدثني عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: «لما فُتِحَتْ قبرص فرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيتُ أبا الدرداء جالساً وحده يبكى، فقلت: يا أبا الدرداء ما يُبْكِيكَ فى يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟ فقال: ويحك يا جُبَيْر، ما أهون الخلق على الله عز وجل إذا أضاعوا أمره، بينما هى أمةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ لهم الملك، تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى».

قال علي بن الجعد: أنبأنا شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا البختری يقول: أخبرني من سمع النبي ﷺ يقول: «لن يهلك الناس حتى يُعذِّروا من أنفسهم»^(١).

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظهرت المعاصي في أمتي عمهم الله بعذاب من عنده» فقلت: يا رسول الله، أما فيهم يومئذ أناسٌ صالحون؟ قال: «بلى» قلت: فكيف يُصنعُ بأولئك؟ قال: «يُصيبهم ما أصاب الناس، ثم يُصَيِّرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(٢).

وفي «مراسيل الحسن» عن النبي ﷺ: «لا تزال هذه الأمة تحت يد الله، وفي كنفه ما لم يُمَالَى»^(٣) قراؤها أمراءها، وما لم يُزَكَّ صَلَحاؤها فُجَّارها، وما لم يُهَن خيارها أشرارها، فإذا هم فعلوا ذلك رفع الله يده عنهم، ثم سلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، ثم ضربهم الله بالفاقة والفقر»^(٤).

وفي «المسند» من حديث ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل لِيُحْرَمَ الرزق بالذنب يصيبه»^(٥).

وفيه أيضاً عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق، كما تداعى الأكلة على قصعتها». قلنا: يا رسول الله، أمن قلة يومئذ؟ قال: «أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، تُنزعُ المهابة من قلوب عدوكم، ويجعلُ في قلوبكم الوهن». قالوا: وما الوهن؟ قال: «حبُّ الحياة وكراهةُ

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٤٣٤٧). وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» و«صحيح الجامع» (٥١٠٧).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٣٠٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٩٣). و«الصحيحة» (١٣٧٢).

(٣) يُمَالَى: يساعد.

(٤) حديث مرسل: قال العراقي في «المغنى عن حمل الاسفار» (٢/ ١٥٠): أخرجه أبو عمرو الداني في كتاب «الفق» من رواية الحسن مرسلًا.

(٥) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧)، وابن ماجه (٤٠٢٢)، وهذه زيادة ضعيفة ضعفها الألباني. وقد سبق الكلام عليه.

الموت»^(١). وفى «المستند» من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِجَ بى مررتُ بقوم لهم أظفارٌ من نحاسٍ يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم»^(٢).

وفى «جامع الترمذى» من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخْرَجُ آخر الزمان قومٌ يختلون»^(٣) الدنيا بالدين، ويلبسون للناس مُسُوكَ الضَّأْنِ^(٤) من اللين، أَلَسْتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السَّكْرِ وقلوبهم قلوبُ الذناب يقولُ الله عز وجل: أبى يفترن؟ وعلى يجترئون؟ فى حلفتُ، لأبعثن على أولئك فتنةً منهم تدع الحليم فيها حيران»^(٥).

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث جعفر بن محمد عن أبيه عن جده قال: قال على: «يأتى على الناس زمانٌ لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، مساجدهم يومئذٍ عامرة وهى خراب من الهدى، علماؤهم شرٌّ من تحت أديم السماء، منهم خرجت الفتنة وفيهم تعود».

وذكر من حديث سماك بن حرب عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «إذا ظهر الزُّنا والرِّبَا فى قريةِ أَذِنَ اللهُ - عز وجل - بهلاكها». ومن مراسيل الحسن: «إذا أظهر الناس العلمَ وضيعوا العملَ، وتحابوا بالألسن وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا الأرحام، لعنهم الله - عز وجل - عند ذلك، فأصمهم وأعمى أبصارهم».

وفى «سنن ابن ماجه» من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: كنتُ عاشرَ عشرة رهطٍ من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فاقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٧٨/٥)، وأبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألبانى فى «الصحيح» (٩٥٨)، و«صحيح الجامع» (٨٠٣٥).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٣١/٣، ٢٢٤)، وأبو داود (٤٨٧٨)، وصححه الألبانى فى «الصحيح» (٥٣٣)، و«صحيح الجامع» (٥٠٨٩).

(٣) يختلون: الختل: الخداع، والمعنى يجعلون الدين سبيلاً للدنيا وطريقاً إليها.

(٤) مسوك الضأن: جلود الضأن.

(٥) حديث ضعيف: أخرجه الترمذى (٤-٢٤)، وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى»، و«ضعيف الجامع» (٦٤٣٦).

فقال: «يا معشر المهاجرين، خمسُ خصال أعوذُ بالله أن تُدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولا نقص قومٌ في المكبال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المونة وجور السلطان، وما منع قومٌ زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء فلولاً البهائم لم يُمطروا، ولا خفرَ قومٌ العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله عز وجل في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١).

وفى «المسند» و«السنن» من حديث عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من كان قبلكم كان إذا عمل العامل فيهم بالخطيئة جاءه الناهي تعذيراً، فإذا كان الغد جالساً وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئة بالأمس، فلما رأى الله عز وجل ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفس محمد بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد السفه، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»^(٢).

وذكر ابن أبي الدنيا عن إبراهيم بن عمرو الصنعاني قال: «أوحى الله إلى يوشع ابن نون: إني مهلك من قومك أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم. قال: يا رب، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: لم يغضبوا لغضبي، وكانوا يواكلونهم ويشاربونهم».

وذكر أبو عمر بن عبد البر عن أبي عمران قال: «بعث الله عز وجل ملكين إلى قرية، أن دمرها بمن فيها، فوجدوا رجلاً قائماً يصلي في مسجد، فقالا: يا رب، إن

(١) حديث حسن: أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩). وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه»، و«صحيح الجامع» (٧٨٥٥).

(٢) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٣٩١)، وأبو داود (٤٣٣٦)، والترمذي (٤٧-٣)، وابن ماجه (٤٠٦). وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي وأبو داود وابن ماجه».

فيها عبدك فلا تأ بصلى، فقال الله - عز وجل - : دمرها ودمرها معهم، فإنه ما تمعر^(١) وجهه فى قط.

وذكر الحميدى عن سفيان بن عيينة قال: حدثنى سفيان بن سعيد عن مسعر «أن ملكاً أمر أن يخسف بقريّة، فقال: يا رب، إن فيها فلائاً العابد، فأوحى الله - عز وجل - إليه: أن به فابدأ، فإنه لم يتمعر وجهه فى ساعة قط».

وذكر ابن أبى الدنيا عن وهب بن منبه قال: «لما أصاب داود الخطيئة قال: يا رب اغفر لى، قال: قد غفرت لك، وألزمت عارها بنى إسرائيل. قال: يا رب، كيف وأنت الحكم العدل لا يظلم أحداً، أنا أعمل الخطيئة وتلزم عارها غيرى؟ فأوحى الله إليه: إنك لما عملت الخطيئة لم يعجلوا عليك بالإنكار».

وذكر ابن أبى الدنيا عن أنس بن مالك: أنه دخل على عائشة، هو ورجل آخر، فقال لها الرجل: يا أم المؤمنين، حدثينا عن الزلزلة. فقالت: «إذا استباحوا الزنا، وشربوا الخمر، وضربوا بالمعازف غار الله - عز وجل - فى سمائه، فقال للأرض: تزلزلى بهم، فإن تابوا وترعوا، وإلا هدمها عليهم. قال: يا أم المؤمنين، أعذاباً لهم؟ قالت: بلى، موعظة ورحمة للمؤمنين، ونكالاً وعذاباً وسخطاً على الكافرين، فقال أنس: ما سمعت حديثاً بعد رسول الله ﷺ أنا أشد فرحاً به منى بهذا الحديث».

وذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسلًا: «أن الأرض تزلزلت على عهد رسول الله ﷺ، فوضع يده عليها، ثم قال: «اسكنى؛ فإنه لم يأن لك بعد». ثم التفت إلى أصحابه، فقال: «إن ربكم ليستعنيكم فأعتبوه»^(٢). ثم تزلزلت بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال: «أيها الناس، ما كانت هذه الزلزلة إلا على شىء أحدثتموه، والذي نفسى بيده لئن عادت لا أساكنكم فيها أبداً».

وفى «مناقب عمر» لابن أبى الدنيا: «أن الأرض تزلزلت على عهد عمر، فضرب

(١) تمعر وجهه: أى: تغير، والمعنى ما تغير وجهه غضباً لله.

(٢) فاعتبوه: من باب اعتبه، أى: سره بعد ما ساءه، والمعنى: أن الله يطلب منكم الرجوع عن الإساءة.

يده عليها، وقال: ما لك؟ ما لك؟ أما إنها لو كانت القيامة حدثت أخبارها، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة فليس فيها ذراع ولا شبر إلا وهو ينطق».

وذكر الإمام أحمد عن صفية قالت: «زلزلت المدينة على عهد عمر، فقال: يا أيها الناس، ما هذا؟ ما أسرع ما أحدثتم. لئن عادت لا أساكنكم فيها».

وقال كعب: «إنما تزلزل الأرض إذا عمل فيها بالمعاصي فترعد فرقا من الرب جل جلاله أن يطلع عليها».

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: «أما بعد، فإن هذا الرَّجْفُ شيء يعاتب الله - عز وجل - به العباد، وقد كتبت إلى الأمصار، أن يخرجوا في يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا، فمن كان عنده شيء فليصدق به، فإن الله عز وجل يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ (١٤) وذكّر اسم ربه فصلّى ﴿١٥﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، وقولوا كما قال آدم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٣) [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قال نوح: ﴿وَالَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٤٧) [هود: ٤٧]، وقولوا كما قال يونس: ﴿وَإِذَا النُّونُ إِذْ ذَهَبَ مُغَاصًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) [الأنبياء: ٨٧]».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر عن الأعمش عن عطاء ابن أبي رباح عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ضنَّ الناسُ بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة^(١)، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاء لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم»^(٢). رواه أبو داود بإسناد حسن.

(١) العينة: هو أن يبيع رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها بأقل من الثمن الأول حيلة لأخذ الربا.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٨/٢)، وأبو داود (٣٤٦٢). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٨)، و«الصحيحة» (١١).

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر قال: «لقد رأينا وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا ضمنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتركوا الجهاد في سبيل الله، وأخذوا أذناب البقر، أنزل الله عليهم من السماء بلاءً، فلا يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم»^(١).

وقال الحسن: «إن الفتنة والله ما هي إلا عقوبة من الله عز وجل على الناس». ونظر بعض أنبياء بني إسرائيل إلى ما يصنع بهم بختنصر فقال: «يما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا». وقال بختنصر لدانيال: «ما الذي سلطني على قومك؟ قال: «عظم خطيئتك وظلم قومي أنفسهم».

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عمار بن ياسر وحذيفة عن النبي ﷺ: «إن الله - عز وجل - إذا أراد بالعباد نقمة أمت الأطفال، وأعقم أرحام النساء، فنزل النعمة وليس فيهم مرحوم»^(٢). وذكر عن مالك بن دينار قال: قرأت في الحكمة: يقول الله عز وجل: «أنا الله، مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك، ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم».

وفي مراسيل الحسن: «إذا أراد الله بقوم خيراً جعل أمرهم إلى حلمائهم وفيهم عند سمحائهم، وإذا أراد الله بقوم شراً جعل أمرهم إلى سفهائهم، وفيهم عند بخلائهم».

وذكر الإمام أحمد وغيره عن قتادة قال: قال موسى: «يا رب، أنت في السماء، ونحن في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: «إذا استعملت عليكم خياركم فهو علامة رضائي عنكم، وإذا استعملت عليكم شراركم فهو علامة سخطي عليكم». وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضيل بن عياض قال: أوحى الله إلى بعض

(١) حديث صحيح: راجع ما قبله.

(٢) حديث ضعيف: أورده الديلمي في «الفردوس» (٩٥١) عن حذيفة والشيرازي في «الالقاء» عن حذيفة وعمار، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٥٤٤).

الأنبياء: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني».

وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه: «والذي نفسي بيده، لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأعواناً خونة، وعُرفاء^(١) ظلمة، وقراء فسقة، سيماهم سيماءُ الرهبان، وقلوبهم أنتنُ من الجيف، أهواؤهم مختلفة، فيفتح الله لهم فتنةً غبراء مظلمة فيتهاوكون^(٢) فيها، والذي نفس محمد بيده لينقضن الإسلام عروة عروة، حتى لا يقال: الله الله، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيسومونكم سوء العذاب، ثم يدعوا خياركم فلا يستجاب لهم. لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليبعثن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم»^(٣).

وفى «معجم الطبراني» وغيره من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما طُفِّق قومٌ كِبَلاً، ولا بخسوا ميزاناً، إلا منعمهم الله - عز وجل - القطر، وما ظهر في قوم الزنا إلا ظهر فيهم الموت، وما ظهر في قوم الربا إلا سلط الله عليهم الجنون، ولا ظهر في قوم القتل - يقتل بعضهم بعضاً - إلا سلط الله عليهم عدوهم، ولا ظهر في قوم عمل قوم لوط إلا ظهر فيهم الخسف، وما ترك قوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا لم تُرفع أعمالهم ولم يُسمع دعاؤهم»^(٤). ورواه ابن أبي الدنيا من حديث إبراهيم بن الأشعث عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن سعيد به.

وفى «المسند» وغيره من حديث عروة عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله ﷺ وقد حفزه النفس، فعرفت في وجهه أن قد حفزه شيء، فما تكلم حتى توضأ، وخرج، فلصقت بالحجرة. فصعد المنبر: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا أيها

(١) عرفاء: جمع عريف، وهو القيم بأمور القبيلة.

(٢) يتهاوكون: يقعون فيها من غير مبالاة.

(٣) أورده ابن الشجري في «الأمالي» (٢/ ٢٥٧، ٢٦٤)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٢٣) للبراز من حديث معاذ.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٤٥)، وإسناده ضعيف على ما قرره الهيثمي (٣/ ٦٥).

الناس، إن الله عز وجل يقول لكم: مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتستنصروني فلا أنصركم، وتسألوني فلا أعطيكم»^(١)

وقال العمري الزاهد: إن من غفلتك عن نفسك، وإعراضك عن الله أن ترى ما يسخط الله فتجاوزته، ولا تأمر فيه، ولا تنهى عنه، خوفاً ممن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً. وقال: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة من المخلوقين، نزعت منه الطاعة، ولو أمر ولده أو بعض مواليه لاستخف بحقه.

وذكر الإمام أحمد في «مسنده» من حديث قيس بن أبي حازم قال: قال أبو بكر الصديق: «يا أيها الناس، إنكم تتلون هذه الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾» [المائدة: ١٠٥]، وإنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه - ونى لفظ: إذا رأوا المنكر فلم يغيروه - أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده»^(٢).

وذكر الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا خُفِيتِ الْخَطِيئَةُ لَمْ تَضُرْ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا ظَهَرَتْ فَلَمْ تَغَيِّرْ، ضَرَّتِ الْعَامَّةَ»^(٣).

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب: «توشك القرى أن تُخرب وهي عامرة. قيل: وكيف تخرب وهي عامرة؟ قال: إذا علا فجارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها».

وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية عن النبي ﷺ قال: «سيظهر شرار أمتي على

(١) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (٦/ ١٥٩) وأخرج المرفوع منه ابن ماجه (٤٠٠٤) ولم يذكر القصة. وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٢٦٤).

(٢) حديث صحيح: رواه أحمد (١/ ٥، ٧، ٩)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥). وصححه الألباني في «صحيح السنن».

(٣) حديث موضوع: عزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦٨) للطبراني في «الأوسط» عن أبي هريرة، أورده الألباني في «الضعيفة» (١٦١٢) و«ضعيف الجامع» (٥٧٩).

خيارها، حتى يستخفى المؤمن فيهم، كما يستخفى المنافق فينا اليوم»^(١).

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس يرفعه قال: «يأتى زمانٌ يذوب فيه قلب المؤمن كما يذوب الملح في الماء» قيل: بما ذاك يا رسول الله؟ قال: «بما يرى من المنكر لا يستطيع تغييره»^(٢).

وذكر الإمام أحمد من حديث جرير أن النبي ﷺ قال: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، وهم أعز أو أكثر ممن يعمله، لم يغيروه إلا عمهم الله بعقاب»^(٣).

وفى «صحيح البخارى» عن أسامة بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أفتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: أى فلان، ما شأنك؟ ألسنتك كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى، إني كنت آمرُكم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(٤).

وذكر الإمام أحمد عن مالك بن دينار قال: «كان خبر من أحبار بنى إسرائيل يغشى منزله الرجال والنساء، فيعظهم ويذكرهم بأيام الله، فرأى بعض بنيهِ يوماً يغمر النساء، فقال: مهلاً يا بنى (مهلاً يا بنى) فسقط من سريره، فانقطع نخاعه، وأسقطت امرأته، وقتل بنوه، فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبر فلاناً الخبر أنى لا أخرج من صلبك صديقاً أبداً، ما كان غضبك لى إلا أن قلت: مهلاً يا بنى».

وذكر الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكته، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا إلى أرض فلاة، فحضر صنع القوم، فجعل الرجل

(١) حديث مرسل: حسان بن عطية لم يدرك النبي ﷺ.

(٢) عزاه المصنف لابن أبي الدنيا، وأورده الديلمى فى «الفردوس» (٨٦٧٧)، وعزو الحديث إليه مؤذن بضعفه كما ذكر السيوطى فى مقدمة «الجامع الكبير».

(٣) حديث حسن: أخرجه أحمد (٣٦٣/٤، ٣٦٤، ٣٦٦)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٩ - ٤٠).

وحسنه الألبانى فى «صحيحى أبى داود وابن ماجه». وصححه فى «صحيح الجامع» (٥٦٢٥).

(٤) تقدم تخريجه.

ينطلق فيجىء بالعود، والرجل يجىء بالعود، حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً، وانضجوا ما قذفوا فيها»^(١).

وفى «صحيح البخارى» عن أنس بن مالك قال: «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق فى أعينكم من الشعر، وإن كنا لننعدّها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»^(٢).

وفى «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «عُذِّبَتْ امرأة فى هرة؛ سجنّتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها، ولا هي سقّتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»^(٣).

وفى «الحلية» لأبى نعيم عن حذيفة أنه قيل له: فى يوم واحد تركت بنو إسرائيل دينهم؟ قال: لا، ولكنهم كانوا إذا أمروا بشيء تركوه، وإذا نهوا عن شيء ركبوه، حتى انسلخوا من دينهم كما ينسلخ الرجل من قميصه.

ومن ههنا قال بعض السلف: المعاصى بريد الكفر، كما أن القبلة بريد الجماع، والغناء بريد الزنا، والنظر بريد العشق، والمرض بريد الموت.

وفى «الحلية» أيضاً عن ابن عباس أنه قال: «يا صاحب الذنب، لا تأمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته: قلة حبايك ممن على اليمين وعلى الشمال - وأنت على الذنب - أعظم من الذنب، وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك وأنت على الذنب ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك أعظم من الذنب، ويحك! هل تدري ما كان ذنب أيوب فابتلاه الله بالبلاء فى جسده وذهاب ماله؟ استغاث به مسكين على ظالم يدرؤه عنه، فلم يعنه، ولم ينه الظالم على ظلمه، فابتلاه الله».

(١) تقدم تخريجه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٤٩٢).

(٣) حديث صحيح: رواه البخارى (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢) بنحوه.

قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد قال: سمعت الأوزاعي يقول: سمعت بلال بن سعد يقول: «لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى من عصيت».

وقال الفضيل بن عياض: بقدر ما يصغر الذنب عندك، يعظم عند الله، ويقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله.

وقيل: أوحى الله إلى موسى: «يا موسى، إن أول من مات من خلقي إبليس وذلك أنه عصاني، وإنما أعد من عصاني من الأموات».

وفى «المسند» و«جامع الترمذي» من حديث أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب (ذنباً) نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا تاب ونزع واستغفر صُقل قلبه، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الرآن الذي ذكره الله عز وجل». ﴿كَلَّا بَلْ رَأْنُ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(١).

وقال حذيفة: «إذا أذنب العبد (ذنباً) نكت في قلبه نكتة سوداء يصير قلبه كالشاة الربداء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أما بعد، يا معشر قريش، فإنكم أهل لهذا الأمر ما لم تعصوا الله، فإذا عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحى هذا القضيب بقضيب في يده، ثم لحى^(٢) قضيه به فإذا هو أبيض بضلد»^(٣).

وذكر الإمام أحمد عن وهب قال: إن الرب عز وجل قال في بعض ما يقول لبني

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٧). وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي وابن ماجه» و«صحيح الجامع» (١٦٦٦).

(٢) لحى العود: أى: أزال خاءه عنه واللحاء القشر.

(٣) حديث صحيح: إسناده المصنف صحيح. أخرجه أحمد (١/ ٤٥٨). وصححه الشيخ شاكراً في تعليقه على «المسند» (٤٣٨-). وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٧٢).

إسرائيل: «إني إذا أطعت رضىيت، وإذا رضىيت باركت، وليس لبركتى نهاية، وإذا عصىيت غضبت، وإذا غضبت لعنت، ولعنتى تبلغ السابع من الولد».

وذكر أيضاً عن وكيع: حدثنا زكريا عن عامر قال: كتبت عائشة إلى معاوية: «أما بعد، فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً».

وذكر أبو نعيم عن سالم بن أبي الجعد عن أبي الدرداء قال: «ليحذر امرؤ أن تلعبه قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، ثم قال: تدري مم هذا؟ قلت: لا، قال: إن العبد يخلو بمعاصي الله، فيلقى الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر».

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن محمد بن سيرين: أنه لما ركب الدين اغتم لذلك، فقال: إني لأعرف هذا الغم يذنب أصيبه منذ أربعين سنة.

[قد لا يؤثر الذنب في الحال]

* وما هنا نكتة دقيقة، يغلط فيها الناس في أمر الذنب، وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال، وقد يتأخر تأثيره فينسى، ويظن العبد أنه لا يغير بعد ذلك، وأن الأمر كما قال القائل:

إذا لم يغير حائط في وقوعه فليس له بعد الوقوع غبار

وسبحان الله! ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق، وكم أزال غبار نعمة! وكم جلبت من نقمة! وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء، فضلاً عن الجهال! ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين، كما ينقض السم وكما ينقض الجرح المندمل على الغش والدغل.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء: «اعبدوا الله كأنكم ترونه، وعدوا أنفسكم من الموتى، واعلموا أن قليلاً يغنيكم خير من كثير يلهيكم. واعلموا أن البر لا يبلى وأن الإثم لا ينسى».

ونظر بعض العباد إلى صبي، فتأمل محاسنه، فأتى في منامه وقيل له: لتجدن غيباً بعد أربعين سنة.

هذا مع أن للذنوب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه، قال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته. وقال يحيى بن معاذ الرازي: عجبت من ذي عقل يقول في دعائه: اللهم لا تسمت بي الأعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يعصى الله ويشمت به في القيامة كل عدو. وقال ذو النون: من خان الله في السر، هتك الله ستره في العلانية.

[من آثار المعاصي]

* وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله.

* فمنها: حرمان العلم؛ فإن العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفى ذلك النور.

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية. وقال الشافعي - رحمه الله - :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقال: اعلم بأن العلم فضل وفضل الله لا يؤتاه عاصي

* ومنها: حرمان الرزق، وفي «المسند»: «إن العبد ليُحرَم الرزق بالذنوب يُصيبه». وقد تقدم. وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق، فترك التقوى مجلبة للفقر، فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

* ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً. ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها، لم تف بثلثك والوحشة. وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة، وما لجرح بميت إيلا، فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة. لكان العاقل حرياً بتركها.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوبُ فدعها إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمرٌ من وحشة الذنب على الذنب، قاله المستعان.

* ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم، وحُرِّمَ بركة الانتفاع بهم، وقُرِبَ من حزب الشيطان، بقدر ما بعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً من نفسه. وقال بعض السلف: إني لأعصى الله، فأرى ذلك في خلق دابتي وامراتي.

* ومنها: تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً؛ فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً، وبالله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتى؟!.

* ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمر المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشى وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تملأ الوجه وتصير سواداً فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: «إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، وهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق».

* ومنها: أن المعاصي توهم القلب والبدن، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهمه حتى تزيل حياته بالكلية.

وأما وهنها للبدن، فإن المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوى قلبه قوى بدنه. وأما الفاجر، فإنه - وإن كان قوى البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته

أحوج ما يكون إلى نفسه. ونأمل قوة أبدان فارس والروم، كيف خانتهم، أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟.

* ومنها: حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله، وتقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنوب طريق ثالثة، ثم رابعة، وهلم جرا، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعه من عدة أكالات أطيب منها، والله المستعان.

[تأثير المعصية على العمر]

* ومنها: أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته. ولابد، فإن البر كما يزيد في العمر، فالفجور يقصر العمر. وقد اختلف الناس في هذا الموضع. فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره، ومحققها عليه. وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصي. وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده. قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل، فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها لمسيباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب. ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حي، كما قال تعالى: ﴿أَمْواتٌ غيرُ أحياء﴾ (٢١). فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي، ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غيباً إضاعتها يوم يقول: ﴿يَقولُ يا لَيْتَنِي قَدُمْتُ لِحياتِي﴾ (٢٤). [الفجر: ٢٤]. فلا يخلو، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية

والأخروية أو لا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقى من عمره.

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه، والتنعم بحبه وذكره، وإيثار مرضاته.

[المعصية تجلب معصية]

* ومنها: أن المعاصى تزرع أمثالها، ويولد بعضها بعضاً، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعملنى أيضاً، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك، وهلم جرا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات.

وكذلك جانب السيئات أيضاً، حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة، فلو عطل المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، وأحس من نفسه بأنه كالحوت، إذا فارق الماء حتى يعاودها، فتسكن نفسه وتقر عينه.

ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاعت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتى يعاودها، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها. كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانىء حيث يقول:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

وقال آخر:

فكانت دوائى وهى دائى بعينها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه

وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزاً، وتعرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يآلف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين ، فتؤزّه إليها أزاً. فالأول قوى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه، وهذا قوى جند المعصية بالمدد، فكانوا أعواناً عليه.

[المعصية تضعف التوبة]

«ومنها: وهو من أخوفها على العبد، أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار ، وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية ، مصرّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

[المعصية تهتك ستر الله تعالى على العبد]

«ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه. وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان، عملت كذا وكذا. وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، ويسد عليهم طريق التوبة، وتعلق عنهم أبوابها في الغالب. كما قال النبي ﷺ: «كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من الإجهار: أن يستر الله العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول: يا فلان، عملتُ يوم كذا وكذا، فكذا، فهتك نفسه، وقد بات يستره ربه»^(١).

[المعصية ميراث عن الأمم السابقة]

«ومنها: أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلكها الله - عز وجل - . فاللوطية ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ، ميراث عن قوم شعيب، والعلو في الأرض بالفساد، ميراث عن قوم فرعون، والتكبر

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠).

والتجبر ميراث قوم هود. فالعاصي لابس ثياب بعض هذه الأمم، وهم أعداء الله. وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لآبيه عن مالك بن دينار قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: لا يدخلوا مداخل أعدائي، ولا يلبسوا ملابس أعدائي، ولا يركبوا مراكب أعدائي، ولا يطعموا مطاعم أعدائي، فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي.

وفي «مسند أحمد» من حديث عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ بالسيف بين يَدَي الساعة، حتى يُعْبَدَ اللهُ وحده لا شريك له، وجُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رُمحي، وجُعِلَ الذُّكَّةُ والصَّغَارُ على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم»^(١)

[المعصية سبب هوان العاصي على الله تعالى]

* ومنها: أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه. قال الحسن البصري: هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم. وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [١٨] [الحج: ١٨].

وإن عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم إليهم، أو خوفاً من شرهم، فهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه.

[عظم المعصية على المؤمن وهوانها على الفاجر]

* ومنها: أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر في قلبه. وذلك علامة الهلاك، فإن الذنب كلما صَغُرَ في عين العبد عظم عند الله. وقد ذكر البخاري في «صحيحه» عن ابن مسعود قال: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا فطار»^(٢)

(١) حديث صحيح: علقه البخاري في «الصحيح» ممرضاً في كتاب الجهاد، باب ما قيل في الرماح ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «جعل رزقي تحت ظل رمحي...». وأخرجه أحمد (٥٠/٢).

وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٢٨).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

[تأثير المعاصي على الدواب]

* ومنها: أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم. قال أبو هريرة: إن الحباري^(١) لتموت في وكرها من ظلم الظالم. وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة، وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم. وقال عكرمة: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب، يقولون: منعنا القطر بذنوب بني آدم. فلا يكفيه عقاب ذنبه، حتى يلعنه من لا ذنب له.

[المعصية تورث الذل]

* ومنها: أن المعصية تورث الذل ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]. أى: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزنى بطاعتك، ولا تذلى بمعصيتك. وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت^(٢) بهم البراذين، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

[تأثير المعصية على العقل]

* ومنها: أن المعاصي تفسد العقل، فإن للعقل نوراً، والمعصية تطفى نور العقل ولا بد وإذا طفى نوره ضعف ونقص.

(١) الحباري: اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، وهو طائر معروف طويل العنق، رمادى اللون، في منقاره بعض طول اهـ «حياة الحيوان» للدميري (١/ ٣٨٦).

(٢) الطقطقة: هو وقع حوافر البغال والمعنى أنهم اختالوا وعلوا في عيون الناس بركوبها، والهملجة: السير السريع في حسن وتبحر.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله، وهذا ظاهر، فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى، أو تحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره وعلى بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه! وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه. والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها. فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله، والاستخفاف به ذو عقل سليم؟

[تأثير المعصية على القلب]

«ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طُبِعَ على قلب صاحبها. فكان من الغافلين. كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

قال: هو الذنب بعد الذنب. وقال الحسن: هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب. وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية. فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رائئاً، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختمًا. فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحيث يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد.

[لعن رسول الله ﷺ للعصاة]

«ومنها: أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ﷺ فإنه لعن على معاصي والتي غيرها أكبر منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة.

فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والمستوصلة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة^(١).

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٣١، ٥٩٣٣) دون لفظ: «الواشرة»، فقد أخرج النهي عنه النسائي (٨/ ١٤٩). وصححه الألباني، وأخرجه أبو داود (٤١٦٨)، والترمذي (٢٧٨٣)، وابن =

ولعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده^(١) . ولعن المحلل والمحلل له^(٢) . ولعن السارق^(٣) . ولعن شارب الخمر وساقياها وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وأكل ثمنها وحاملها والمحمولة إليه^(٤) .

ولعن من غير منار الأرض ، وهي : أعلامها وحدودها^(٥) . ولعن من لعن والديه^(٦) . ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضاً يرميه بسهم^(٧) . ولعن المخشئين من الرجال والمرجلات من النساء^(٨)

ولعن من ذبح لغير الله^(٩) . ولعن من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً^(١٠) . ولعن المصورين^(١١) . ولعن من عمل عمل قوم لوط^(١٢) . ولعن من سب أباه وأمه^(١٣) ،

= ماجه (١٩٨٧)، ومسلم (٢١٢٢).

الواصلة: التي تصل شعرها بشعر مستعار. الموصولة: المعمول بها ذلك. النامصة: هي التي تحسن وجه المرأة بتصف الشعر. الواشرة: التي تحدد أسنانها وتدقق أطرافها. المستوشرة: المعمول بها ذلك.

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٥٩٨)، وأحمد (٨٣/١)، والترمذي (١٢٠٦)، والنسائي (١٤٩/٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥). وصححه الألباني في "صحيح السنن". و"صحيح الجامع" (٤٩٧٧).

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧).

(٤) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (١٢٩٥)، وابن ماجه (٣٣٨١)، وأبو داود (٣٦٧٤). وصححه الألباني في "صحيح السنن" و"صحيح الجامع" (٤٩٦٧).

(٥) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٠٨/١)، ومسلم (١٩٧٨)، والنسائي (٢٣٢/٧).

(٦) حديث صحيح: أخرجه مسلم كتاب الاضاحى باب تحريم الذبح لغير الله، "صحيح الجامع" (٤٩٨٨). انظر الحديث السابق.

(٧) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٩٥٨).

(٨) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٥٨٨٥، ٥٨٨٦)، وأبو داود (٤٠٩٧)، وأحمد (٢٢٥/١).

(٩) حديث صحيح: سبق تخريجه .

(١٠) حديث صحيح: رواه البخاري (كتاب الاعتصام - باب إثم من آوى محدثاً) ، ومسلم (كتاب الحج - باب فضل المدينة ودعاء النبي فيها بالبركة) .

(١١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٥٩٦٢) .

(١٢، ١٣) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣٠٩/١)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (٥٧٦٧) وصححه الشيخ شاكر في تعليقه على "المسند" .

ولعن من كتمه أعمى عن الطريق^(١).

ولعن من أتى بهيمة^(٢)، ولعن من وسّم دابةً في وجهها^(٣)، ولعن من ضارَّ مسلماً أو مكرَّ به^(٤)، ولعن زوّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرج^(٥)، ولعن من أفسد امرأةً على زوجها، أو مملوكاً على سيّده^(٦)، ولعن من أتى امرأةً في دُبُرِها^(٧)، وأخبر أن من باتت مهاجرةً لفراس زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح^(٨). ولعن من انتسب إلى غير أبيه^(٩).

وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه^(١٠). ولعن من سبَّ الصحابة^(١١).

[لعن الله تعالى للعصاة]

* وقد لعن الله في كتابه من أفسد في الأرض وقطع رحمه، وآذاه وآذى رسول الله ﷺ. ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى. ولعن الذين يرمون

(١) حديث صحيح: انظر ما قبله. كتمه أعمى: أضله.

(٢) حديث صحيح: انظر الحديث السابق.

(٣) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٣٨)، و«الصحيحة» (١٥٤٩).

(٤) حديث ضعيف: أخرجه الترمذی (١٩٤١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٢٨٠)، و«الضعيفة» (١٩٠٣).

(٥) حديث صحيح إلا الفقرة الأخيرة: أخرجه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذی (٣٢٠)، وابن ماجه (١٥٧٥)، قال الألباني في «صحيح الترمذی»: ضعيف لكن للفقرة الأولى شواهد يرتقى بها.

(٦) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٢١٧٥)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٧) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٢١٦٢) وأحمد (٤٤٤/٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٦٥).

(٨) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٥١٩٣، ٥١٩٤)، وأخرجه مسلم (١٠٥٩/٢)، وأحمد (٢٥٥/٢، ٣٤٨، ٣٨٦، ٤٦٨، ٥١٩).

(٩) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٨٦/٤ - ١٨٧)، وفي معناه أحاديث عند البخاري ومسلم.

(١٠) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٥٦/٢)، ومسلم (١٦٩/١٦).

(١١) حديث حسن: حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٨٧)، و«الصحيحة» (٢٣٤٠)، وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١/١٠) لأبي يعلى.

لحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة، ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدي من سبيل المسلمين. ولعن رسول الله ﷺ الرجل الذي يلبس لبسة المرأة، والمرأة التي تلبس لبسة الرجل^(١)، ولعن الراشي والمرتشي والرائش^(٢) (وهو الواسطة في الرشوة). ولعن على أشياء آخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلى رضا فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته، لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

[المعصية تحرم العاصي من دعوة رسول الله ﷺ]

* ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ، ودعوة الملائكة، فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر : ٧ - ٩].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرهما، فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة، إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها. والله المستعان.

(١) حديث صحيح: رواه أبو داود (٤٠٩٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» و«صحيح الجامع» (٤٩٧١).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣٨٧/٢)، والترمذي (١٣٣٧)، وابن ماجه (٢٣١٣)، وأبو داود (٣٥٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح السنن». أما لفظ «الرائش» فهو ضعيف منكر، أخرجه أحمد (٢٧٩/٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٦٨٧)، و«الضعيفة» (١٢٣٥).

[عقوبات بعض المعاصي]

* ومن عقوبات المعاصي: ما رواه البخارى فى «صحيحه» من حديث سُمرة بن جندب قال: «كان النبى ﷺ مما بكثُر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحدٌ منكم البارحة رؤيا؟ فيقصُّ عليه ما شاء الله أن يقصَّ، وإنه قال لنا ذاتَ غداةٍ: إنه أتاني الليلة آتيان، وإنهما انبعثا لى وإنهما قالَا لى: انطلق، وإنى انطلقتُ معهما، وإنا أتينا على رجلٍ مضطجع وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصخرة، وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه، فيثْلُغُ^(١) رأسه فيتدَهده^(٢) الحجرُ هاهنا فيتبعُ الحجرُ، فيأخذُه، فلا يرجعُ إليه حتى يصحَّ رأسُه كما كان، ثم يعودُ عليه. فيفعلُ به مثل ما فعلَ به المرة الأولى. قال: قلتُ لهما: سبحان الله ما هذا؟ قالَا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجلٍ مستلقٍ لقفاه، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكتوبٍ من حديد، وإذا هو يأتى أحدَ شِقَى وجهه فيشرشِرُ شدقَه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه فيشق. قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعلُ به مثل ما فعلَ بالجانب الأول، فما يقرغُ من ذلك الجانب حتى يصحَّ ذلك الجانبُ كما كان. ثم يعودُ عليه فيفعلُ مثل ما فعلَ فى المرة الأولى. قال: قلتُ: سبحان الله! ما هذان؟ قال: فقالَا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، فإذا فيه لُغْطٌ وأصواتٌ. قال: فاطْلَعنا فيه، فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عراةٌ. وإذا هم يأتِيهم لهبٌ من أسفل منها، فإذا أتاهم ذلك اللهبُ ضَوْضَوْوا^(٣) قال: قلتُ لهم: ما هؤلاء؟ قالَا لى: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على نهرٍ أحمرٍ مثل الدَّم، فإذا فى النهرِ رجلٌ سابِحٌ يسبحُ وإذا على شطِّ النهرِ رجلٌ قد جَمَعَ عنده حجارةٌ كثيرة، وإذا ذلك السابِحُ يسبحُ ما يسبح، ثم يأتى ذلك الذى قد جمعَ عنده الحجارة فيفغرُ له فاهُ فيلقمه حجراً، فينطلقُ فيسبح، ثم يرجعُ إليه كلما رجعَ إليه ففغرَ له فاهُ فيلقمه حجراً، قال: قلتُ لهما: ما هذان؟ قالَا لى: انطلق انطلق. قال: فانطلقنا، فأتينا على رجلٍ كَرِهَ المرأةَ^(٤)،

(١) فيثْلُغُ: يشرخ.

(٢) فيتدَهده الحجر: فيتدحرج.

(٣) ضَوْضَوْوا: صاحوا.

(٤) كَرِهَ المرأةَ: كره المُنْظَرَ.

أو كأكبره ما أنت راء رجلاً مرأى، وإذا هو عنده نار يحثها^(١) ويسمى حولها، قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قال لى: انطلق انطلق. فانطلقنا حتى أتينا على روضة معتمة^(٢) فيها من كل لون الربيع^(٣)، وإذا بين ظهرائى الروضة رجلٌ طويلٌ، لا أكاد أرى رأسه طولاً فى السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط، قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قال لى: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا إلى دوحه عظيمة^(٤) لم أر دوحه قط أعظم منها، ولا أحسن. قال: قال لى: ارق فيها. قال: فارتقيت فيها، قال: فارتقينا فيها فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب، ولبن فضة: فأتينا باب المدينة، فاستفتحنا، ففتح لنا، فدخلناها فتلقانا فيها رجال، شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطرٌ كأقبح ما أنت راء، قال: قال لهم: اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر، قال: وإذا نهرٌ معترضٌ يجرى كأن ماءه المحض^(٥) من البياض. فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا، قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا فى أحسن صورة: قال لى: هذه جنة عدن، وها ذاك منزلك. قال: فسما بصرى صعداً، فإذا قصر مثل الربابة لبيضاء، قال: قال لى: ها ذاك منزلك. قال: قلت لهما: بارك الله فيكما، ذراني نأدخلك. قال: أما الآن فلا، وأنت داخله، قال: قلت لهما: فإنى قد رأيت منذ الليلة مجباً، فما هذا الذى رأيت؟ قال: قال لى: أما إنا سنخبرك.

أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن يرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شذقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة الذين فى مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني.

(١) يحثها: يوقدها ويلهبها.

(٢) روضة معتمة: واحة النبات.

(٣) لون الربيع: زهره.

(٤) الدوحه: الشجرة العظيمة.

(٥) المحض: الخالص من كل شئ والمراد به هنا اللبن.

وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة، فإنه آكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرأة الذى عند النار يحثها ويسعى حولها، فإنه مالك خازن جهنم.

وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة : فإنه إبراهيم.

وأما الولدان اللذين حوله ، فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى : ولد على الفطرة - قال : فقال بعض المسلمين : يا رسول الله وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ : وأولاد المشركين .

وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشر قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم^(١).

[المعاصى سبب الفساد فى الأرض]

* ومن آثار الذنوب والمعاصى : أنها تحدث فى الأرض أنواعاً من الفساد فى المياه والهواء، والزرع، والثمار، والمساكن : قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٤١] . [الروم : ٤١] . قال مجاهد : إذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد. ثم قرأ : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٤١] . [الروم : ٤١] . ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر.

وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر، أما إنى لا أقول لكم : بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء .

وقال قتادة : أما البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرى والريف. قلت : وقد سمي الله تعالى الماء العذب بحرًا، فقال : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فراتٌ

(١) حديث صحيح : رواه البخارى (٤٧-٧)، ومسلم (١٧٨١)

سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴿ [فاطر: ١٢] ، وليس في العالم بحر حلو واقف، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن، فسمي القرى التي عليها المياه الجارية باسم تلك المياه .

وقال ابن زيد : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر ﴾ قال : الذنوب .

قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ لام العقابة . التعليل . وعلى الأول: فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم عقوبة . كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنباً أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ فهذا حالنا . وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

[المعاصي سبب الخسف والزلازل]

* ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديار ثمود، فمنعهم من دخول ديارهم إلا وهم باكون، ومن شرب مياههم، ومن الاستسقاء من آبارهم، حتى أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم للنواضح^(١) ، لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الإمام أحمد في «مسنده» في ضمن حديث قال : «وَجَدَ فِي خَزَائِنِ بَنِي أُمِيَّةٍ حَبَّةَ حَنْطَةٍ بِقَدْرِ نَوَافِ الثَّمَرَةِ وَهِيَ فِي صُرَّةٍ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا: هَذَا كَانَ يَنْبِتُ فِي زَمَنِ الْعَدْلِ وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْآفَاتِ أَحَدَتْهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِمَا أَحَدَثَ الْعِبَادُ مِنَ الذُّنُوبِ .

(١) النواضح : الإبل التي يبقى عليها الماء .

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب.

[تأثير المعصية في هيئة الإنسان وخلقه]

« وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في «جامعه» عنه عليه السلام أنه قال: « خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ »^(١).

فإذا أراد الله أن يظهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة، يخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه عليه السلام فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً، ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت، حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير، وأن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام^(٢) من الناس، وهذه لأن الأرض لما طهرت من المعاصي، ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى التي محقتها الذنوب والكفر، ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض، تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار تلك العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار تلك الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخراً، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحلّه وداره، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعته البركة من عمره، وعمله، وقوله، ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت، نزعته البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته. وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

(١) حديث صحيح؛ أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).

(٢) الفئام: الجماعة الكثيرة العدد.

المعصية تجعل العاصي لا غيرة له

* ومن عقوبات الذنوب : أنها تطفئ من القلب نار الغيرة التي هي حياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يخرج الكبر خبث الذهب والفضة والحديد، وأشرف الناس وأعلامهم هممة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس . ولهذا كان النبي ﷺ أغبر الخلق على الأمة، والله سبحانه أشد غيرة منه، كما ثبت في «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال : « أتعجبون من غيرة سعد؟ لانا أغبر منه، والله أغبر مني »^(١).

وفي «الصحيح» أيضاً أنه قال في خطبة الكسوف : « يا أمة محمد ما أحد أغبر من الله أن يزني عبده أو تزني أمته »^(٢) . وفي «الصحيح» أيضاً أنه قال : « لا أحد أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه »^(٣).

فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح وبغضها، وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والإحسان، والله سبحانه - مع شدة غيرته - يحب أن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه إعداراً وإنذاراً، وهذا غاية المجد والإحسان ونهاية الكمال .

فإن كثيراً ممن تشتد غيرته من المخلوقين تحمله شدة الغيرة على سرعة الإيقاع والعقوبة من غير إعدار منه، ومن غير قبول لعذر من اعتذر إليه، بل يكون له في نفس الأمر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره، وكثير ممن يقبل المعاذير يحمله

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٨٤٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٢٠١/٦).

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (٢٧٦٠).

على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير، ويرى عذراً ما ليس بعذر، حتى يعتذر كثير منهم بالقدر، وكل منهما غير ممدوح على الإطلاق.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من الغيرة ما يحبها الله، ومنها ما يبغضها الله، فالتى يبغضها الله الغيرة في غير ريبة»^(١) وذكر الحديث.

وإنما الممدوح اقتران الغيرة بالعذر، فيغار في محل الغيرة، ويعذر في موضع العذر، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقاً.

* ولما جمع الله سبحانه صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد، ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له، بل هو كما مدح نفسه وأثنى على نفسه، فالغيور قد وافق ربه سبحانه في صفة من صفاته، ومن وافق الله في صفة من صفاته قاده تلك الصفة إليه بزمائها، وأدخلته على ربه، وأدنته منه وقربته من رحمته له، وصيرته محبوباً، فإنه سبحانه رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، عليم يحب العلماء، قوى يحب المؤمن القوى، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حتى يحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر.

* ولو لم يكن في الذنوب والمعاصي إلا أنها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة، فإن الخطرة تنقلب وسوسة، والوسوسة تصير إرادة، والإرادة تقوى فتصير عزيمة، ثم تصير فعلاً، ثم تصير صفة لازمة وهيئة ثابتة راسخة، وحينئذ يعتذر الخروج منها كما يعتذر الخروج من صفاته القائمة به.

* والمقصود أنه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس. وقد تضعف في القلب جداً حتى لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك.

وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح، بل يحسن الفواحش والظلم لغيره، ويزينه له، ويدعوه إليه، ويحثه عليه، ويسعى له في تحصيله، ولهذا كان

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد (٤٤٥/٥)، وأبو داود (٢٦٥٩) والنسائي (٧٨/١٥)، وحسنه الألباني في «صحيح أبي داود والنسائي وصحيح الجامع» (٢٢١٧).

الديوث أحب خلق الله ، والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه له ، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة .

وهذا يدل على أن أصل الدين الغيرة ، ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح ، فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تبت القلب فتموت له الجوارح ، فلا يبقى عندها دفع البتة .

ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة وجد الداء المحل قابلاً ، ولم يجد دافعاً ، فتمكن فكان الهلاك ، ومثلها مثل صياصى^(١) الجاموس التى يدفع بها عن نفسه وولده ، فإذا كسرت طمع فيه عدوه .

[المعاصى تذهب الحياء]

* ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذى هو مادة حياة القلب ، وهو أصل كل خير ، وذهابه ذهاب الخير أجمعه . وفى «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال : «الحياء خير كله»^(٢) . وقال : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى . إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٣) وفيه تفسيران :

أحدهما : أنه على التهديد والوعيد ، والمعنى من لم يستح فإنه يصنع ما شاء من القبائح ، إذ الحامل على تركها الحياء ، فإذا لم يكن هناك حياء يردعه عن القبائح فإنه يواقعها . وهذا تفسير أبى عبيدة .

والثانى : أن الفعل إذا لم تستح منه من الله فافعله ، وإنما الذى يتبغى تركه هو ما يستحى منه من الله . وهذا تفسير الإمام أحمد فى رواية ابن هانى .

فعلى الأول يكون تهديداً ، كقوله : ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت : ٤٠] . وعلى الثانى يكون إذناً وإباحة .

(١) الصياصى : القرون .

(٢) حديث صحيح : أخرجه البخارى (٦١١٧) ، ومسلم (٣٧) .

(٣) حديث صحيح : أخرجه أحمد (١٢١/٤) ، والبخارى (٦١٢) ، وابن ماجه (٤٠١٨٣) ، وأبو داود .

فإن قيل: فهل من سبيل إلى حمله على المعنيين؟

قلت: لا، ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه، لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، ولكن اعتبار أحد المعنيين يوجب اعتبار الآخر.

والمقصود أن الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلم، حتى إنه ربما لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعل، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحال لم يبق في صلاحه مطمع.

وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حيا وقال: فديت من لا يفلح

والحياء مشتق من الحياة، والغيث يسمى حياً - بالقصر - ؛ لأن به حياة الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه فهو ميت في الدنيا شقى في الآخرة، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثاً، ومن استحى من الله عند معصيته، استحى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستح من معصيته، لم يستح من عقوبته.

[المعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب]

* ومن عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبى. ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه، وربما اغتر المغتر، وقال: إنما يحملني على المعاصي حسن الرجاء، وطمعى في عقره، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس؛ فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد تقتضى تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته تحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروا الله حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه ويكبره، ويرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالمعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته، ويهون عليه حقه.

* ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله - عز وجل - مهابته من قلوب الخلق، ويهون عليهم، ويستخفون به، كما هان عليه أمره واستخف به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الخلق، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظمه الناس، وكيف ينتهك عبد حرمت الله، ويطمع ألا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس؟ أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب، وأنه أركس^(١) أربابها بما كسبوا، وغطى على قلوبهم، فطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه، وضيعهم كما ضيعوا أمره، ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَنْ يَهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم الله، فلم يكن لهم من مكرم بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟

[المعاصي تستجلب نسيان الله تعالى للعبد]

* ومن عقوباتها: أنها تستدعى نسيان الله لعبده، وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه، وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٨]. فأمروا بتقواه ونهى أن يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه، أى: أنساه مصالحها، وما ينجيها من عذابه، وما يوجب له الحياة الأبدية، وكمال لذتها وسرورها ونعيمها، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه، والقيام بأمره، فترى المعاصي مهملاً لمصالح نفسه مضيعاً لها، وقد أغفل قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطاً، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته، وقد فرط في سعادته الأبدية، واستبدل بها أدنى ما يكون من

(١) الركن: رد الشيء مقلوباً، والله أركسهم: أى: ردهم إلى كفرهم.

لذة، إنما هي سحابة صيف أو خيال طيف، كما قيل:

أحلام نوم، أو كظل زائلٍ إن اللبيب بمثلها لا يُخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه، وإهماله لها، وإضاعته حفظها ونصيبتها من الله، ويبيع ذلك بالغبين والهوان وأبخس الثمن، فضيع من لا غنى له عنه، ولا عوض له منه، واستبدل به عنه كل الغنى أو منه كل العوض.

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

فالله سبحانه وتعالى يعوض عن كل ما سواه ولا يعوض منه شيء، ويعنى عن كل شيء ولا يغنى عنه شيء، ويجير من كل شيء - ولا يجير منه شيء، ويمنع من كل شيء، ولا يمنع منه شيء، فكيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين؟ وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره حتى ينسيه نفسه، فيحسرها ويظلمها أعظم الظلم؟ فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه.

[المعاصى تخرج صاحبها من دائرة الإحسان]

* ومن عقوباتها: أنها تخرج العبد من دائرة الإحسان وتمنعه ثواب المحسنين، فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصى، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذكره - أى ذكر الله - ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلاً عن موانعها، فإذا خرج من دائرة الإحسان فإنه قد صحبه رفقة الخاصة، وعيشهم الهنىء، ونعيمهم التام، فإن أراد الله به خيراً أقره فى دائرة عموم المؤمنين، فإن عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الإيمان كما قال النبى ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع إليه فيها الناس أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن»^(١) فإياكم إياكم، والتوبة معروضة بعد.

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٧٨٢)، ومسلم (٥٧).

[المعاصي تحرم رفقة المؤمنين]

* ومن فاته رفقة المؤمنين وحسن دفاع الله عنهم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، وفاته كل خير رتبته الله في كتابه عن الإيمان، وهو نحو مائة خصلة، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها.

فمنها: الأجر العظيم: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦].

ومنها: الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

ومنها: استغفار الملائكة حملة العرش لهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

ومنها: موالاة الله لهم، ولا يذل من موالاه الله، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: أمره ملائكته بشيئهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْتُمْ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢].

ومنها: أن لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم.

ومنها: العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

ومنها: معية الله لأهل الإيمان: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

ومنها: الرفعة في الدنيا والآخرة: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ومنها: إعطاؤهم كفلين من رحمته، وإعطاؤهم نوراً يمشون به، ومغفرة ذنوبهم.

ومنها: الود الذي يجعله الله سبحانه لهم، وهو أنه يحبهم ويحبهم إلى ملائكته

وَأَنْبِيَاءَهُ وَعِبَادَهُ الصَّالِحِينَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [٩٦: ٩٦].

ومنها: أمانهم من الخوف يوم يشتد الخوف: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [٤٨: ٤٨]. [الأنعام: ٤٨].

ومنها: أن المنعم عليهم الذين أمرنا أن نسأله أن يهدينا إلى صراطهم في كل يوم وليلة سبع عشرة مرة.

ومنها: أن القرآن إنما هو هدى لهم وشفاء: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [٤٤: ٤٤]. [فصلت: ٤٤].

* والمقصود أن الإيمان سبب جالب لكل خير في الدنيا والآخرة فسيببه الإيمان، وكل شر في الدنيا والآخرة فسيببه عدم الإيمان، فكيف يهون على العبد أن يرتكب شيئاً يخرج من دائرة الإيمان، ويحول بينه وبينه، ولكن لا يخرج من دائرة عموم المسلمين؟ فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن ههنا اشتد خوف السلف، كما قال بعضهم: أنتم تخافون الذنوب، وأنا أخاف الكفر.

[المعاصي تعوق سير القلب إلى الله تعالى]

* ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير، فلا ندعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه، والله المستعان.

فالذنب إما أن يميئ القلب، أو يمرضه مرضاً مخوفاً، أو يضعف قوته ولا بد حتى ينتهي ضعفه إلى الأشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ وهي: "الهم،

والحزن، والعجز، والكسل، والجبن، والبخل، وضلع الدين^(١)، وقهر الرجال^(٢). وكل اثنين منها قرينان.

فألهم والحزن قرينان: فإن المكروه الوارد على القلب إن كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهَم، وإن كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن.

والعجز والكسل قرينان: فإن تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح، إن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

والجبن والبخل قرينان: فإن عدم النفع منه إن كان ببذنه فهو الجبن، وإن كان بماله فهو البخل.

وضلع الدين وقهر الرجال قرينان: فإن استعلاء الغير عليه إن كان بحق فهو من ضلع الدين، وإن كان بباطل فهو قهر الرجال.

❖ والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لـ «جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء». ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال نعم الله، وتحول عاقبته إلى نقمته، وتجلب جميع سخطه.

[المعاصي تزيل النعم وتحل النقم]

❖ ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم وتحل النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نقمة إلا بذنب. كما قال علي بن أبي طالب - رضى الله عنه -: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة». وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ﴾ [الأنفال: ٥٣]. فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها

(١) ضلع الدين: ثقله وقهره.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٥٩/٣)، وأخرجه البخاري (٢٨٩٣)، ومسلم (٢٧٠٦).

على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غير غير عليه، جزاءً وفاؤاً، وما ربك بظلام للعبيد.

فإن غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وفى بعض الآثار الإلهية، عن الرب تبارك وتعالى أنه قال: «وعزنى وجلالى، لا يكون عبد من عبيدى على ما أحب، ثم ينتقل عنه إلى ما أكره، إلا انتقلت له مما يحب إلى ما يكره، ولا يكون عبد من عبيدى على ما أكره ثم ينتقل عنه إلى ما أحب، إلا انتقلت له مما يكره إلى ما يحب».

ولقد أحسن القائل:

إذا كنت فى نعمة فارعها	فإن الذنوب تزيل النعم
وحطها بطاعة رب العباد	فرب العباد سريع النقم
وإياك والظلم مهما استطع	ت فظلم العباد شديد الوخم
سافر بقلبك بين الورى	لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعمدهم	شهود عليهم، ولا تتهم
وما كان شىء عليهم أضر	من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن	قصور، وأخرى عليهم أطم
صلوا بالرحيم وفات النعب	سم وكان الذى نالهم كالحمم

[المعاصى تلقى الرعب والخوف فى القلوب]

* ومن عقوباتها: ما يلقيه الله سبحانه وتعالى من الرعب والخوف فى قلب المعاصى، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً؛ فإن الطاعة حصن الله الأعظم من دخله كان من

ين من عقوبة الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف، فلا العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء بـ، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب، يحسب أن كل صيحة بـ، وكل مكروه قاصداً إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله به من كل شيء.

بذا قضى الله بين الناس مذ خلقوا أن المخاوف والإجرام في قرن

[المعاصي توقع في الوحشة]

ومن عقوباتها: أنها توقع في الوحشة العظيمة في القلب فيجد المذنب نفسه وحشاً، وقد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبين الخلق وبين نفسه، وكلما كثرت رب اشتدت الوحشة، وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيب العيش المستأنسين، فلو نظر العاقل ووازن لذة المعصية وما توقعه من الخوف والوحشة، سوء حاله، وعظيم غبه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية توجبه من الخوف والضرر الداعي له. كما قيل:

فإن كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

سر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، فكلما اشتد القرب قوى، والمعصية توجب البعد عن الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة. ولهذا العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابساً له قريباً منه، د أنساً وقرباً بينه وبين من يحب، وإن كان بعيداً عنه.

الوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب شدة وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر. ولا تجد أحداً شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابس منه، فتعلو الوحشة به وقلبه، فيستوحش ويستوحش منه.

[المعاصي تمرض القلوب]

* ومن عقوباتها: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه فلا يزال مريضاً معلولاً لا يتتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب ودواؤها، دواء لها إلا تركها. وقد أجمع السائرون إلى الله أن القلوب لا تعطى منها حتى تصل إلى مولاه، ولا تصل إلى مولاه حتى تكون صحيحة سليمة. ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب دأؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخاها، فهوها مرضها، وشفائها مخالفتها، فإن استحکم المرض قتل أو كاد.

وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه فكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيمًا البتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه به وهذا.

ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) - وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ [الانفطار: ١٣ : ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعنى دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار - فهؤلاء نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الدار الآخرة، وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟ وكل تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذب قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من وفاته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

* وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات

فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وآلم الحجاب عن الله، وآلم الحسرة التى تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان فى أبدانهم، بل عملها فى النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر فأين هذا من نعيم من يرفض قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه، واشتياقاً إليه، وارتياحاً بحبه، وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم فى حال نزعه: واطرباه.

ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة فى مثل هذا الحال، إنهم لفى عيش طيب.

ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذىذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن فى هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين.

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى، والسفير الذى جرى على يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ، وقد يعتها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه فمن ذا له من بعد ذلك يكرم

﴿ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَسَاءَ لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨].

[المعاصى تعمى البصيرة]

ومن عقوباتها أنها تعمى بصيرة القلب. وتطمس نوره، وتسد طرق العلم، وتحجب مواد الهداية. وقد قال مالك للشافعى لما اجتمع به ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية. ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم،

فكم من مهلك يسقط فيه ولا يبصره، كاعمى خرج بالليل فى طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة، ويا سرعة العطب. ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى الوجه منها سواد. بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان عند الموت ظهرت فى البرزخ، فامتلا القبر ظلمة، كما قال النبى ﷺ: «إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله منورها بصلاتى عليهم»^(١).

فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد، حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة^(٢)، فيا لها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص المنكد المتعب فى زمن؟ إنما هو ساعة من حلم؟ فالله المستعان.

[المعاصى تصغر النفوس]

«ومن عقوباتها: أنها تصغر النفس وتقمعها، وتدسيها، وتحقرها، حتى تكون أصغر من كل شيء وأحققره، كما أن الطاعة تسميها وتزكيها وتكبرها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١) وقد خاب من دساها^(٢) [الشمس: ٩، ١٠]. والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله. وأصل التدسية: الإخفاء. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: ٥٩].

فالمعاصى يدس نفسه فى المعصية، ويخفى مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاها وأعلاها، ومع ذلك فهى أذل شيء وأحققره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز

(١) حديث مرسل: أخرجه مسلم (٧/ ٢٦) بهذه الزيادة مرصولاً، وأخرجه أحمد (٣٨٨/٢) بهذه الزيادة مرسلأ يرفعها ثابت، وأخرجه البخارى (١٣٣٧)، وأبو داود (٢٢٠٣)، وابن ماجه (١٥٢٧) دون هذه الزيادة.

(٢) الحممة: بفتحات الفهم.

والشرف والنمو، فما أصغر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله.

[العاصي في سجن الشيطان]

«ومن عقوباتها: أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته، وقيود هواه، فهو أسير مسجون مقيد، ولا أسير أسوأ حالاً من أسير أسره أعدى عدو له، ولا سجن أضيق من سجن الهوى، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة، فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وكيف يخطو خطوة واحدة؟»

وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده. ومثل القلب الطائر، كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل احتوشته الآفات. وفي الحديث: «الشيطان ذئب الإنسان»^(١). وكما أن الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئاب سريعة العطب، فكذا العبد إذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد. وإنما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى، فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه، كما هي وقاية بينه وبين عقوبة الدنيا والآخرة، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب إلى الهلاك، فأسلم ما تكن الشاة إذا قربت من الراعى، وإنما يأخذ الذئب القاصية من الغنم، وهي أبعد من الراعى.

وأصل هذا كله: أن القلب كلما كان أبعد من الله كانت الآفات إليه أسرع، وكلما قرب من الله بعدت عنه الآفات. والبعد من الله مراتب، بعضها أشد من بعض، فالغفلة تبعد القلب عن الله، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله.

(١) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (٢٣٣ / ٥)، إسناده منقطع بين العلاء بن زياد ومعاذ بن جبل، فإنه لم يسمع منه، ورواه بإسناد آخر عن العلاء بن زياد عن رجل عن معاذ وفيه هذا المجهول. وقد ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٤٧٧).

[المعاصي تسقط الكرامة عند الله تعالى وعند الخلق]

« ومن عقوباتها: سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه، فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له، وعلى قدر طاعة العبد له تكون منزلته عنده، فإذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه، فأسقطه من قلوب عباده، وإذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك، فعاش بينهم أسوأ عيش: خامل الذكر، ساقط القدر، زري الحال، لا حرمة له، ولا فرح له ولا سرور، فإن خمول الذكر وسقوط القدر والجاه جالب كل غم وهم وحزن، ولا سرور معه ولا فرح، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة؟ »

ومن أعظم نعم الله على العبد: أن يرفع له بين العالمين ذكره، ويعلى قدره، ولهذا خص أنبياء ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَرَّمْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَنْصَارِ﴾ [١٥٤] إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴿١٥٥﴾ [ص: ٤٥ : ٤٦] أى: خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار، وهو لسان الصدق الذى سأل إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]. وقال سبحانه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم، وكل من خالفهم فإنه بعيد عن ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

[المعصية مجلبة للذم]

« ومن عقوباتها: أنها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف، وتكسوه أسماء الذم والصغار، فتسلبه اسم المؤمن، والبر، والمحسن، والمنقى، والمطيع، والمنيب، والولى، والورع، والصالح، والعايد، والخائف، والأواب، والطيب، والمرضى ونحوها.

وتكسوه اسم الفاجر، والعاصي، والمخالف، والمسيء، والمفسد، والخبيث، لسخوط، والزاني، والسارق، والقاتل، والكاذب، والخائن، واللوطي، وقاطع حم، والغادر. وأمثالها. فهذه أسماء الفسوق و ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ يَمَانٍ﴾ [الحجرات: ١١] الذي يوجب غضب الديان، ودخول النيران، وعيش نزي والهوان.

وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن ودخول الجنان، وتوجب شرف المسمى بها في سائر نوع الإنسان، فلو لم يكن في عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وجباتها لكان في العقل ناه عنها، ولو لم يكن في ثواب الطاعة إلا الفوز بتلك أسماء وموجباتها لكان في العقل أمر بها، ولكن لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما ع، ولا مقرب لما باعد، ولا مبعد لمن قرب. ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَلْ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨) [الحج: ١٨].

[المعصية تحرم العقل الفهم والتدبير]

* ومن عقوباتها: أنها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل، فلا تجد عاقلين أحدهما ليع لله والآخر عاص، إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل، وفكره أصح، ورأيه د، والصواب قرينه.

ولهذا تجد خطاب القرآن إنما هو مع أولى العقول والألباب كقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٧) [البقرة: ١٩٧]. وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ يَحُونُ﴾ (١٠٠) [المائدة: ١٠٠]. وقوله: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٦٩) [البقرة: ٢٦٩]. ونظائر ذلك كثيرة.

وكيف يكون عاقلاً وافر العقل من يعصى من هو في قبضته وفي داره، وهو يعلم يراه ويشاهده، فيعصيه وهو بعينه غير متوار عنه، ويستعين بنعمه على مساخطه، استدعى كل وقت غضبه عليه، ولعنته له، وإبعاده من قرب، وطرده عن بابه، عراضه عنه، وخذلانه له، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه، وسقوطه من عينه،

وحرمانه روح رضاه وحبه، وقرة العين بقربه، والفوز بجواره، والنظر إلى وجهه زمرة أوليائه، إلى أضعاف أضعاف ذلك من كرامة أهل الطاعة، وأضعاف أضـ ذلك من عقوبة أهل المعصية.

فأى عقل لمن أثر لذة ساعة أو يوم أو دهر، ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن، هذا النعيم المقيم والفوز العظيم؟ بل هو سعادة الدنيا والآخرة، ولولا العقل تقوم به عليه الحجة لكان بمنزلة المجانين، بل قد تكون المجانين أحسن حالاً وأسلم عاقبة، فهذا من هذا الوجه.

وأما تأثيرها في نقصان العقل المعيش، فلولا الاشتراك في هذا النقصان، لمطيعنا نقصان عاصينا، ولكن الجائحة عامة، والجنون فنون.

ويا عجباً لو صحت العقول لعلمت أن طريق تحصيل اللذة والفرحة والسـ وطيب العيش إنما هو في رضاه من النعيم كله في رضاه، والألم والعذاب كله سخطه وغضبه، ففي رضاه قرة العيون وسرور النفوس، وحياة القلوب، والأرواح، وطيب الحياة ولذة العيش، وأطيب النعيم، ومما لو وزن منه مثقال ذرة في الدنيا لم يف به، بل إذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما عرضاً منه، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من تنعم المترفين فيها، يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأـ المعارضات، بل قد حصل على النعيمين، وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما، يحصل له في خلال ذلك من الآلام، فالأمر كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ غَافِيًا عَنِ السَّاعَةِ﴾ [النساء: ١٠٤].

فلا إله إلا الله، ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر، والمسك بالرجيع، ومر الذين أنعم الله عليهم من النبين والصدقيين والشهداء والصالحين، بمرافقة الله غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً.

[المعاصى توجب القطيعة بين العبد والرب]

* ومن أعظم عقوباتها: أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه - تبارك وتعالى - ، وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر، فأى فلاح، وأى رجاء، وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى عنه طرفه عين، ولا بدل له منه، ولا عوض له عنه، واتصلت به أسباب الشر، ووصل ما بينه وبين أعدى عدو له، فتولاه عدوه وتخلى عنه وليه؟ فلا تعلم نفس ما فى هذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وأنواع العذاب.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله سبحانه وبين الشيطان، فإن أعرض الله عنه تولاه الشيطان، وإن تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٠﴾ [الكهف: ٥٠].

يقول سبحانه لعباده: أنا أكرمت أباكم، ورفعت قدره، وفضلته على غيره، فأمرت ملائكتى كلهم أن يسجدوا له، تكريماً له وتشريقاً، فأطاعونى وأبى عدوى وعدوه، فعصى أمرى، وخرج عن طاعتى، فكيف يحسن بكم بعد هذا أن تتخذوه وذريته أولياء من دونى، فتطيعونه فى معصيتى، وتوالونه فى خلاف مرضاتى وهم أعدى عدو لكم؟ فواليتهم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته، ومن والى أعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء، فإن المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادة أعداء المطاع وموالاة أوليائه، وأما أن توالى أعداء الملك ثم تدعى أنك موال له، فهذا محال. وهذا لو لم يكن عدو الملك عدواً لكم، فكيف إذا كان عدوكم على الحقيقة، والعداوة التى بينكم وبينه أعظم من العداوة التى بين الشاة والذئب؟ فكيف يليق بالعاقل أن يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه.

وبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠]، كما نبه على قبحها بقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]. فتبين أن عداوته لربه

وعداوته لنا، كل منهما سبب يدعو إلى معاداته، فما هذه الموالاة؟ وما هذا الاستبدال؟ بش للظالمين بدلاً.

ويشبه أن يكون تحت هذا الخطاب نوع من العتاب لطيف عجيب، وهو أنى عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتي، فكانت معاداته لأجلكم، ثم كان عاقبة هذه المعادة أن عقدتم بينه وبينكم عقد المصالحة.

[المعاصي تحقق البركة]

* ومن عقوباتها: أنها تحقق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة.

وبالجملية تحقق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِهِمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦، ١٧]. وإن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه. وفي الحديث: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّهُ لَا يَنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرْحَ فِي الرِّضَى وَالْيَقِينِ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشُّكِّ وَالسُّخْطِ»^(١).

وقد تقدم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب «الزهد»: «أنا الله، إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى، وإذا غضبت لعنت، ولعنتي تدرك السابغ من الولد». وليست سعة الرزق والعمل بكثرتة، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق بالبركة والعمر فيه.

وقد تقدم أن عمر العبد هو مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله، واشتغل

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو نعيم في «الخليعة». وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٨١) من حديث أبي أمامة، وأخرجه ابن ماجه (٢١٤٤) بنحوه من حديث جابر. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٧٣٩).

بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته، فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فطره ومحبه وعبادته وحده والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فَقَدَ الخير كله، ولو تعوَّض عنها بما تعوَّض مما فى الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة، فمن كل شيء يفوت العبد عوض، وإذا فاتته الله لم يعوض عنه شيء ألبته.

وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات، والعاجز بالذات عن القادر بالذات، والميت عن الحى الذى لا يموت، والمخلوق عن الخالق، ومن لا وجود له ولا شيء له من ذاته ألبته عمن غناه وحياته وكماله وجوده ورحمته من لوزام ذاته؟ وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض.

وإنما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها، فسلطانه عليهم، وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه، فبركته محوقة، ولهذا شرع ذكر اسم الله تعالى عند الأكل والشرب واللبس والركوب والجماع، لما فى مقارنة اسم الله من البركة، وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة، ولا معارض له، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذى يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبداه المؤمن النافع لخلقهم مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنائته من أرضه، وهى الشام أرض البركة، وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه، فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، أعنى إلى ألوهيته ومحبه ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته وخلقهم، وكل ما باعده من نفسه من الأعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكل ما كان قريباً من ذلك ففيه من البركة على حسب قربه منه.

وضد البركة اللعنة، فأرض لعنها الله أو شخص لعنه الله، أو عمل لعنه الله أبعد شيء من الخير والبركة، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه بسبيل فلا بركة فيه ألبته.

وقد لعن عدوه إبليس وجعله أبعد خلقه منه، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه واتصاله به، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر والرزق والعلم والعمل. وكل وقت عصيت الله فيه، أو مال عصي الله به، أو بدن أو جاء أو علم أو عمل فهو على صاحبه، ليس له، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله إلا ما أطاع الله به.

ولهذا فمن الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها، ويكون عمره لا يبلغ عشر سنين أو نحوها، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ ألف درهم أو نحوها، وهكذا الجاه والعلم. وفي «الترمذي» عنه عليه السلام: «الدُّنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرُ الله وما والاه، وعالمٌ أو متعلمٌ»^(١). وفي أثر آخر: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله» فهذا هو الذي فيه البركة خاصة، والله المستعان.

[المعصية تجعل صاحبها من السفلة]

* ومن عقوباتها: أنها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيباً لأن يكون من العلية، فإن الله خلق خلقه قسمين: علية، وسفلة، وجعل عليين مستقر العلية، وأسفل سافلين مستقر السفلة، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه، وأهل معصيته أهون خلقه عليه، وجعل العزة لهؤلاء، والذلة والصغار لهؤلاء، كما في «مسند الإمام أحمد» من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي عليه السلام أنه قال: «بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة، وجُعِلَ رزقي تحت ظل رمحي، وجُعِلَ الذلُّ والصغارُ على من خالف أمري»^(٢).

فكلما عمل العبد معصية نزل إلى أسفل درجة، ولا يزال في نزول حتى يكون من

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٨).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٥٠ / ٢) من حديث ابن عمر. وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٢٨).

الأسفلين، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة، ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلى.

وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه، والنزول من وجه، وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله، فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة، كمن كان بالعكس.

ولكن يعرض ههنا للنفس غلط عظيم، وهو أن العبد قد ينزل نزولاً بعيداً أبعد مما بين المشرق والمغرب، ومما بين السماء والأرض، فلا يقى صعوده ألف درجة بهذا النزول الواحد، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة لا يلقي لها بالاً يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»^(١).

فأي صعود يوازي هذه النزلة؟ والنزول أمر لازم للإنسان، ولكن من الناس من يكون نزوله إلى غفلة، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد إلى درجته، أو إلى أرفع منها بحسب يقظته.

ومنهم من يكون نزوله إلى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة، فهذا متى رجع إلى الطاعة فقد يعود إلى درجته، وقد لا يصل إليها، وقد يرتفع عنها، فإنه قد يعود أعلى همة مما كان، وقد يكون أضعف همة. وقد تعود همته كما كانت.

ومنهم من يكون نزوله إلى معصية، إما صغيرة أو كبيرة، فهذا قد يحتاج في عوده إلى توبة نصوح، وإنابة صادقة.

❖ واختلف الناس: هل يعود بعد التوبة إلى درجته التي كان فيها، بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب، وتجعل وجوده كعدمه، فكأنه لم يكن، أو لا يعود، بناء على أن التوبة تأثيرها في إسقاط العقوبة. وأما الدرجة التي فاتته فإنه لا يصل إليها؟.

قالوا: وتقرير ذلك: أنه كان مستعداً باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصى فيه لصعود آخر، وارتقاء تحمله أعماله السالفة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١١/ ٣٠٨ / فتح)، ومسلم كتاب الزهد/ باب: حفظ اللسان.

الذى يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاع وربح عمله أعماله ، فإذا استأنف العمل استأنف صعوداً من نزول ، وكان قبل ذلك صاعداً من أسفل إلى أعلى ، وبينهما بون عظيم .

قالوا: ومثل ذلك مثل رجلين يرتقيان فى سلمين لا نهاية لهما ، وهما سواء ، فنزل أحدهما إلى أسفل ، ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود ، فإن الذى لم ينزل يعلو عليه ولا بد .

وحكم شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بين الطائفتين حكماً مقبولاً فقال : التحقيق أن من التائبين من يعود إلى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود إلى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل إلى درجته .

قلت: وهذا بحسب قوة التوبة وكمالها ، وما أحدثته المعصية للعبد من الذل والخضوع والإنابة ، والحذر والخوف من الله ، والبكاء من خشية الله ، فقد تقوى هذه الأمور ، حتى يعود التائب إلى أرفع من درجته ، ويصير بعد التوبة خيراً من قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة ، فإنها نقت عنه داء العُجب ، وخلصته من ثقته بنفسه وإدلاله بأعماله ، ووضعت خدّ ضراعتة وذلّه وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته إلى حفظ سيده ومولاه له ، وإلى عفوّه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه أن يشمخ أو يتكبر بها ، أو يرى نفسه بها خيراً من غيره ، وأوقفته بين يدي ربه مرقف الخطائين المذنبين ، ناكس الرأس بين يدي ربه ، مستحيياً منه خائفاً وجللاً ، محتقراً لطاعته ، مستعظماً لمعصيته ، قد عرف نفسه بالنقص والذم ، وربه متفرد بالكمال والحمد والوفاء .

كما قيل :

استأنثر الله بالوفاء وبال - حمد وولّى الملامة الرجال

فأى نعمة وصلت من الله إليه استكثرها على نفسه ، ورأى نفسه دونها ، ولم يرها أهلاً . وأى نقمة أو بلية وصلت إليه رأى نفسه أهلاً لما هو أكبر منها ، ورأى مولاه قد

أحسن إليه، إذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره، ولا أدنى جزء منه.

فإن ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات، فضلاً عن هذا العبد الضعيف العاجز، فإن الذنب وإن صغر، فإن مقابلة العظيم الذى لا شيء أعظم منه، الكبير الذى لا شيء أكبر منه، الجليل الذى لا أجل منه ولا أجمل، المنعم بجميع أصناف النعم دقيقها وجلها - من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها، فإن مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالردائل، فكيف بعظيم السموات والأرض، وملك السموات والأرض، وإله السموات والأرض؟ ولولا أن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته سبقت عقوبته، وإلا لتكدكت الأرض بمن قابله بما لا يليق بمقابلته به، ولولا حلمه ومغفرته لزلزلت السموات والأرض من معاصي العباد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [٤١: فاطر]. فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما «الحليم، الغفور» كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض؟.

وقد أخبر سبحانه عن بعض كفر عباده أنه: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ [٩٠: مريم]. وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه، ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات والأرض بذنب واحد ارتكبه، وخالف فيه أمره. ونحن معاشر الحمقى كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى
درج الجنان لدى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من
ملكوته الأعلى بذنب واحد

* والمقصود: أن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة، وقد تضعف الخطيئة همته، وتوهن عزمه، وتعرض قلبه، فلا يقوى دواء التوبة على إعادته إلى الصحة الأولى، فلا يعود إلى درجته، وقد يزول المرض بحيث تعود

الصحة كما كانت ويعود إلى مثل عمله، فيعود إلى درجته.

هذا كله إذا كان نزوله إلى معصية، فإن كان نزوله إلى أمر يقدر في أصل إيمانه، مثل الشكوك والريب والنفاق، فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود إلا بتجديد إسلامه.

[المعاصي تجرئ على الإنسان أعداءه]

* ومن عقوباتها: أنها تجرئ على العبد من لم يكن يجترئ عليه من أصناف المخلوقات، فتجترئ عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحزين، وإنسانه ما به مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه، فتجترئ عليه الشياطين حتى تؤزه إلى معصية الله أزا^(١).

وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره، ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم. قال بعض السلف: إنى لأعصى الله، فأعرف ذلك في خلق امرأتى ودابتي.

وكذلك يجترئ عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي إن عدلوا فيها أقاموا عليه حدود الله، وتجترئ عليه نفسه فتأسد عليه وتستصعب عليه، فلو أرادها لخير لم تطاوعه، ولم تنقد له، وتسوقه إلى ما فيه هلاكه، شاء أم أبى. وذلك أن الطاعة حصن الرب - تبارك وتعالى - الذي من دخله كان من الآمنين. فإذا فارق الحصن اجتراً عليه قطاع الطريق وغيرهم، وعلى حسب اجترائه على معاصي الله، يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه، وليس له شيء يرد عنه، فإن ذكر الله وطاعته، والصدقة، وإرشاد الجاهل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر - وقاية ترد عن العبد، بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقومه، فإذا سقطت القوة غلب وارد المرض فكان الهلاك، فلا بد للعبد من شيء يرد عنه، فإن موجب السيئات والحسنات تندفع، ويكون الحكم للغالب كما تقدم، وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى كما تقدم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، والإيمان قول وعمل، فبحسب قوة الإيمان يكون الدفع، والله المستعان.

(١) تؤزه أزا: تدفعه دفعاً شديداً.

[المعصية تضعف القدرة على جلب النفع ودفع الضرر]

* ومن عقوباتها: أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه، فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل. وأقواهم وأكيسهم مَنْ قَوَّى على نفسه وإرادته، فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره. وفي ذلك تتفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم، فأعرفهم من كان عارفاً بأسباب السعادة والشقاوة، وأرشدهم من أثر هذه على هذه، كما أن أسفهم من عكس الأمر.

والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان إلى نفسه في تحصيل هذا العلم. وإيثار الحظ الأشرف العالی الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع، فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم، وعن الاشتغال بما هو أولى، وأنفع له في الدارين. فإذا وقع في مكروه واحتاج إلى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الصدأ ولزم قِرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه إذا جذب، فعرض له عدو يريد قتله، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه، فلم يخرج معه، فدهمه العدو وظفر به. كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مشخناً بالمرض، فإذا احتاج إلى محاربة العدو لم يجد معه منه شيئاً، والعبد إنما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه، والجوارح تبع للقلب، فإذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع بها عما الظن بها؟.

وكذلك النفس فإنها تخبث بالشهوات والمعاصي وتضعف، أغنى النفس المطمئنة، وإن كانت الأمانة تفوى وتتأسد، وكلما قويت هذه ضعفت تلك، فيبقى الحكم والتصرف للأمانة، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتاً لا يرتجى معه حياة ينتفع بها، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط.

* والمقصود: أن العبد إذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له، فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله تعالى والإنابة إليه والجمعية عليه، والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه، ولا يطاوعه لسانه لذكره، وإن ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه، فيتحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر الذكر، ولا

ينحبس القلب واللسان على المذكور، بل إن ذكر أو دعا ذكر بقلب لاه ساه غافل، ولو أراد من جوارحه أن تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي، كمن له جند يدفعون عنه الأعداء فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم، وقطع أخبارهم، ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه أن يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة.

هذا، وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى منه وأمر، وهو أن يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال إلى الله تعالى، فربما تعذر عليه النطق بالشهادة، كما شاهدت كثيراً من المحتضرين أصابهم ذلك، حتى قيل لبعضهم: قل: لا إله إلا الله، فقال: آه، لا أستطيع أن أقولها. وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال: شاه، رخ، غلبتك^(١) ثم قضى. وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله، فقال:

يا ربَّ فائلة يوماً وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجباب؟

ثم قضى. وقيل لآخر: قل: لا إله إلا الله. فجعل يهذى بالغناء. ويقول: تاتنا تننا^(٢) حتى قضى. وقيل لآخر ذلك، فقال: ما ينفعني ما تقول، ولم أدع معصية إلا ركبته، ثم قضى. ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك، فقال: وما يغني عني، وما أعرف أني صليت لله صلاة؟ ولم يقلها. وقيل لآخر ذلك، فقال: هو كافر بما تقول، وقضى. وقيل لآخر ذلك، فقال: كلما أردت أن أقولها ولساني يمسك عنها. وأخبرني من حضر بعض الشحاذين عند موته، فجعل يقول: لله: فلس لله، فلس لله، حتى قضى. وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه «لا إله إلا الله» وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشترى جيد، هذه كذا، حتى قضى. وسبحان الله! كم شاهد الناس من هذا عبراً؟ والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم.

فإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان،

(١) شاه ورخ: اسمان لحجرين من أحجار الشطرنج، لأنه كان في حياته مفتوناً بلعبه.

(٢) المراد أنه يرجع أصوات وحركات آلات الطرب التي طالما شغلته في الحياة الدنيا.

واستعمله فيما يريد من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم التزع؟ ونجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال، فمن ترى يسلم على ذلك؟ فهناك: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧) [إبراهيم: ٢٧]. فكيف يوفق بحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره قرطاً؟ فبعيد من قلبه بعيد من الله تعالى غافل عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشغلة بمعصيته - أن يوفق للخاتمة بالحسن.

ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكان المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعاً بالأمان: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْغَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ (٣٩) [سورة آل عمران: ٣٩-٤٠].

كما قيل:

يا آمناً مع قبيح الفعل منه أهل	أناك توقيع أمن أنت تملكه؟
جمعت شيئين: أماناً، واتباع هوى	هذا، وإحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد	ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سقه	فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا، وأعجب شيء فيك زهدك في	دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفه إذا بالله؟ أنت، أم	المغبون في البيع غبناً سوف تدركه

[المعاصي تعمى القلب]

«ومن عقوباتها: أنها تعمى القلب، فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد، وقد تقدم بيان أنها تضعفه ولا بد، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته

على تنفيذه في نفسه، وفي غيره بحسب ضعف بصيرته وقوته. فإن الكمال الإنساني مداره على أصليين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه. وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالى في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنى الله سبحانه على أنبيائه بهما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا عِبَادًا لِّإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]. فالأيدى: القوى في تنفيذ الحق، والأبصار: البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى.

القسم الثاني: عكس هؤلاء، من لا بصيرة له في الدين، ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق، وهم الذين رؤيتهم قذى العيون وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغفلون الأسعار، ولا يستفاد بصحتهم إلا العار والشنار^(١).

القسم الثالث: من له بصيرة بالحق ومعرفة به، لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه.

القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة، لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء قمرة، وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحمًا، والدواء النافع سمًا.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين، ولا هو موضع لها سوى القسم الأول.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في

الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر - الذى هو زمن سعى الخاسرين والرابحين - على أن من عداهم فهو من الخاسرين. فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرُ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفَىٰ خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصى بعضهم بعضاً به، ويرشده إليه، ويحضه عليه، وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً، فمعلوم أن المعاصى والذنوب تعمى بصيرة القلب فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، فيتنكس فى سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة، إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة، التى رضىت بالحياة الدنيا، واطمأنت لها، وغفلت عن الله وآياته، وتركت الاستعداد للقاءه، ولو لم يكن فى عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها، لكانت داعية إلى تركها والبعد منها، والله المستعان.

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتحلوه وتنصقله، وتقويه وتثبتها، حتى يصير كالمرآة المجلوة فى جلائها وصفائها فيمتلئ نوراً، فإذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب، فالشيطان يَفَرِّقُ^(١) من هذا القلب أشد من فَرَّقَ الذئب من الأسد، حتى إن صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعاً، فيجتمع عليه الشياطين، فيقول بعضهم لبعض: ما شأنه؟ فيقال: أصابه إنسى، وبه نظرة من الإنس.

فيا نظرة من قلب حرٍّ مُنَوَّرٍ يكاد لها الشيطان بالتور يُحَرِّقُ

أفستوى هذا القلب وقلب مظلمة أرجاؤه، مختلفة أهواؤه، قد اتخذها الشيطان وطنه، وأعدّه مسكنه. إذا تصبّح بطلعته حيّاه، وقال: فديت من قرين لا يفلح فى دنياه ولا فى آخراه؟

(١) يفرق: يخاف.

قرينك فى الدنيا وفى الحشر بعدها فانت قرين لى بكل مكان
فإن كنت فى دار الشقاء ، فإننى وانت جميعاً فى شقاء وهوان

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣٧) حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ (٣٨) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ (٣٩) [الزخرف : ٣٦ - ٣٩] . فأخبر سبحانه أن من عشا عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله ، فأعرض عنه ، وعمى عنه ، وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه ، قَيِّضَ الله له شيطانًا ، عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيرته الذى هو بئس المولى وبئس العشيرة .

رضيعاً لبان ثدى أم ، تقاسما بأسحم داج عوض ، لا تتفرق

ثم أخبر سبحانه أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى ، حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ كُنْتَ لِي فِي الدُّنْيَا ، أَضَلَلْتَنِي عَنِ الْهَدْيِ بَعْدَ إِذْ جِئْتَنِي ، وَصَدَدْتَنِي عَنِ الْحَقِّ وَأَغْوَيْتَنِي ، حَتَّىٰ هَلَكْتَ ، وَبِئْسَ الْقَرِينُ أَنْتَ لِي الْيَوْمَ .

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبتة ، حصل له بالتأسى نوع تخفيف وتسلية ، أخبر الله سبحانه أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وأن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه ، وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مَسَلَةً كما قالت الحنساء فى أخيها صخر :

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسى

وما ييكون مثل أخى ، ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

فمنع الله سبحانه هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ

إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ [الزحرف: ٣٩].

[حزب الله وحزب الشيطان]

* ومن عقوباتها: أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه، وجيش يقويه به على حربه، وذلك أن الله سبحانه ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين، ولا ينأى عنه ولا يغفل عنه، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه، يبذل جهده في معاداته في كل حال، ولا يدع أمراً يكيده به يقدر على إيصاله إليه إلا أوصله إليه، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الجن، وغيرهم من شياطين الإنس: فقد نصب له الحبائل وبغى له الغوائل، ومد حوله الأشراك، ونصب له الفخاخ والشباك، وقال لأعدائه: دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفرتكم، ولا يكون حظهم الجنة وحظكم النار، ونصبيهم الرحمة ونصبيكم اللعنة، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزي والإبعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله، فابذلوا جهدكم أن تكونوا شركاءنا في هذه البلية، إذ فاتتنا شركة صالحهم في الجنة، وقد أعلمنا الله سبحانه بذلك كله من عدونا، أمرنا أن نأخذ له أهبة، ونعد له عدته.

ولما علم سبحانه أن آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وأنه قد سُلط عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقونه بها، وأمد عدوهم أيضاً بجند وعساكر يلقاهم بها، وأقام سوق الجهاد في هذه الدار في مدة العمر، التي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفَس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله، فيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه في أشرف كتبه، وهي التوراة والإنجيل والقرآن، وأخبر أنه لا أوفى بعهد منه سبحانه، ثم أمرهم أن يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد أن يعرف قدرها فلي نظر إلى المشتري من هو؟ وإلى الثمن المبذول في هذه السلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد. فأى فوز أعظم من هذا؟ وأى تجارة أربح منه؟

ثم أكد سبحانه معهم هذا الأمر بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ

وَأَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشَرٌ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

ولم يسلط هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب أنواع المخلوقات إليه، إلا لأن الجهاد أحب شيء إليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم إليه وسيلة، فعقد سبحانه لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته، وهو القلب الذي هو محل معرفته ومحبه، وعبوديته والإخلاص له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، فولاء أمر هذه الحرب، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه : ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]. يعقب بعضهم بعضاً، كلما ذهب بدل جاء بدل آخر، يشبثونه ويأمرونه بالخير، ويحضونه عليه، ويعدونهم بكرامة الله ويصبرونه، ويقولون: إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد.

ثم أمدّه سبحانه بجند آخر من وحيه وكلامه، فأرسل إليه رسوله ﷺ، وأنزل إليه كتابه، فازداد قوة إلى قوته، ومدداً إلى مدده، وعدة إلى عدته، وأيده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له، وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصرراً، وباليقين كاشفاً له عن حقيقة الأمر، حتى كأنه يعاين ما وعد الله تعالى به أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه، فالعقل يدبر أمر جيشه، والمعرفة تصنع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها، والإيمان يشبّثه ويقويه ويصبره، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة.

ثم أمدّ سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة، فجعل العين طليعته، والأذن صاحب خبره، واللسان ترجمانه، واليدين والرجلين أعوان، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له، ويسألون له أن يقيه السيئات ويدخله الجنات، وتولى سبحانه الدفع والدفاع عنه بنفسه، وقال: هَؤُلَاءِ حِزْبِي وَحِزْبُ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، قال الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وهؤلاء جندي: ﴿وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣].

وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة، فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو، وهي مقاومته ومنازلته، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المراقبة، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل، فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويقسد ما قدر عليه، فالمراقبة لزوم هذه الثغور، ولا يخلو مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدو، فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المراقبة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر.

[مداخل الشيطان على الإنسان]

* فانظر الآن !! إلى التقاء الجيشين، واصطدام العسكرين، وكيف تدال مرة، ويدال عليك مرة أخرى؟ . أقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره، فوجد القلب في حصنه جالسًا على كرسي مملكته، أمره ناقد في أعوانه، وجنده قد حفوا به، يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته، فلم يمكنه الهجوم إلا بمخامرة^(١) بعض أمرائه وجنده عليه، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة، فقيل له: هي النفس، فقال لأعوانه: ادخلوا عليها من مرادها، وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها، فعدوها به، ومنوها إياه، وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقطتها ومنامها، فإذا اطمأنت إليه

(١) المخامرة: الغش والمخادعة عن نظنه معك.

وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطايفها، ثم جروها بها إليكم، فإذا خامرت على القلب، وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين والأذن واللسان والفم، واليد والرجل، فربطوا على هذه الثغور كل المراقبة، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتل أو أسير، أو جريح مشخ بالجرافات، ولا تُخلوا هذه الثغور، ولا تمكثوا سرية تدخل فيها إلى القلب فتخرجكم منها، وإن غلبتم فاجتهدوا في إضعاف السرية ووهنها، حتى لا تصل إلى القلب، وإن وصلت إليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئاً.

[مدخل العين]

فإذا استوليت على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتباراً، بل اجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً، فإن استرق نظره عبرة فأفسدوها عليه بنظرة الغفلة والاستحسان والشهوة، فإنه أقرب إليه، وأعلق بنفسه، وأخف عليه، ودونكم ثغر العين، فإن منه تنالون بغيتكم، فإن ما أفسدت بنى آدم بشيء مثل النظر، فإنى أبذر به فى القلب بذر الشهوة، ثم أسقيهم بماء الأمية، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة فلا تهملوا أمر هذا الثغر، وأفسدوه بحسب استطاعتكم وهونوا عليه أمره، وقولوا له: مقدار نظرة تدعوك إلى تسبيح الخالق، والتأمل لبديع صنيعه، وحسن هذه الصورة التى إنما خلقت ليستدل بها الناظر عليه، وما خلق لك العينين سدى، وما خلق هذه الصورة ليحجبها عن النظر.

وإن ظفرتكم به قليل العلم فاسد العقل، فقولوا له: هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاله، فادعوه إلى القول بالاتحاد، فإن لم يقبل فالقول بالحلول العام أو الخاص، ولا تقنعوا منه بدون ذلك، فإنه يصير به من إخوان النصارى، فمروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد فى الدنيا، واصطادوا عليه وبه الجهال، فهذا من أكبر خلفائى وأكبر جندى، بل أنا من جنده وأعوانه.

[مدخل الأذن]

* ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر، فاجتهدوا أن لا تدخلوا منه إلا الباطل، فإنه خفيف على النفس تستحليه وتستحسنه، تخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب، وامرؤوه بما تهوى النفس مزجاً. وألقوا الكلمة، فإن رأيتم منه إصغاءً إليها فزجوه بأخواتها، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره، وإياكم أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ أو كلام النصحاء، فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه وتديره والتفكر فيه والعظة به، إما بإدخال ضده عليه، وإما بتحويل ذلك وتعظيمه، وأن هذا أمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه، وهو حمل بثقل عليها لا تستقل به ونحو ذلك، وإما بإرخاصه على النفوس وأن الاشتغال ينبغي أن يكون : هو أغنى عند الناس، وأعز عليهم، وأغرب عندهم، وزبونه القابلون له أكثر، وأما الحق فهو مهجور، وقائله معرض نفسه للعداوة، والرابح بين الناس أولى بالإيثار ونحو ذلك، فتدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه وتخرجون له الحق في كل قالب يكرهه وبثقل عليه.

وإذا شئت أن تعرف ذلك فانظر إلى إخوانهم من شياطين الإنس، كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول، وتتبع عشرات الناس، والتعرض من البلاء لما لا يطيق، وإلقاء الفتن بين الناس، ونحو ذلك، ويخرجون اتباع السنة ووصف الرب تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ في قالب التجسيم والتشبيه والتكليف، ويسمون علو الله على خلقه واستواءه على عرشه ومبايئته لمخلوقاته تحيزاً، ويسمون نزوله إلى السماء الدنيا، وقوله: «من يسألني فأعطيه»^(١) تحركاً وانتقالاً، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث، وما يقوم به من صفاته أعراضاً،

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم / كتاب صلاة المسافرين / باب : صلاة الليل

ثم يتوصلون إلى نفى ما وصف به نفسه بنفى هذه الأمور، ويوهمون الأغمار^(١)، وضعفاء البصائر أن إثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تستلزم هذه الأمور ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظه، ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. فسماء زخرفاً، وهو باطل؛ لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به.

والمقصود أن الشيطان قد لزم ثغر الأذن أن يدخل فيها ما يضر العبد ولا ينفعه، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخل بغير اختياره أفسده عليه.

[مدخل اللسان]

* ثم يقول: قوموا على ثغر اللسان؛ فإنه الثغر الأعظم، وهو قبالة الملك، فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وامنعوه أن يجرى عليه شيء مما ينفعه، من ذكر الله تعالى واستغفاره، وتلاوة كتابه، ونصيحة عباده، والتكلم بالعلم النافع، ويكون لكم في هذا الثغر أمران عظيمان، لا تبالون بأيهما ظفرتم: أحدهما: التكلم بالباطل، فإن المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم.

والثاني: السكوت عن الحق؛ فإن الساكت عن الحق أخ لكم أحرص، كما أن الأول أخ ناطق، وربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم، أما سمعتم قول الناصح: «المتكلم بالباطل شيطان ناطق، والساكت عن الحق شيطان أحرص»؟

فالرباط الرباط على هذا الثغر أن يتكلم بحق أو يمسك عن باطل، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق.

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم، وأكبهم منه على مناخرهم في النار، فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر؟

(١) الأغمار: جمع غمر، وهو الغافل الجاهل السريع الانخداع، ومن لا تجربة له.

وأوصيكم بوصية فاحفظوها: لينطق أحدكم على لسان أخيه من الإنس بالكلمة، ويكون الآخر على لسان السامع، فينطق باستحسانها، وتعظيمها والتعجب منها، ويطلب من أخيه إعادتها. وكونوا أعوانًا على الإنس بكل طريق، وادخلوا عليهم من كل باب، واقعدوا لهم كل مرصد، أما سمعتم قسَمِي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَا تَجِدُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، أو ما تروني قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها، فلا يفوتني من طريق إلا قعدت له بطريق غيره، حتى أصيب منه حاجتي أو بعضها؟ . وقد حذرهم ذلك رسولهم ﷺ وقال لهم: «إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها، وقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فخالفه وأسلم، فقعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماؤك؟ فخالفه وهاجر، فقعد له بطريق الجهاد، فقال: أتجاهد فتقتل فيقسم المال وتُنكح الزوجة؟» (١)

فهكذا فاقعدوا لهم بكل طرق الخير، فإذا أراد أحدهم أن يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة، وقولوا له في نفسه: أخرج المال فتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء؟ . أو ما سمعتم ما ألقى على لسان رجل سأل آخر أن يتصدق عليه، فقال: هي أموالنا إن أعطيناكموها صرنا مثلكم.

واقعدوا له بطريق الحج، فقولوا: طريقه مخوفة مشقة، يتعرض سالكها لتلف النفس والمال، وهكذا فاقعدوا على سائر طرق الخير بالتنفير عنها وذكر صعوبتها وآفاتِها، ثم اقعدوا لهم على طرق المعاصي فحسنوها في أعين بني آدم، وزينوها في قلوبهم، واجعلوا أكثر أعوانكم على ذلك النساء. فمن أبوابهن فادخلوا عليهم، فنعم العون هن لكم.

﴿ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين. فامنعوها أن تبتش بما يضركم وتمشي فيه.﴾

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٤٨٣)، والنسائي (٦/ ٢١، ٢٢). وصححه الألباني في

«صحيح الجامع» (١٦٤٨)

[مدخل النفس]

* واعلموا أن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمانة، فأعينوها واستعينوا بها، وأمدوها واستمدوا منها، وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة، فاجتهدوا في كسرهما وإبطال قواها، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع موادها عنها؛ فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمانة، وانطاعت لكم أعوانها فاستزلوا القلب من حصنه، واعزلوه عن مملكته، وولوا مكانه النفس الأمانة، فإنها لا تامر إلا بما تهوونه وتحبونه، ولا تحيئكم بما تكرهون البتة. مع أنها لا تخالفكم في شيء تشيرون به عليها، بل إذا أشرتكم عليها بشيء بادرت إلى فعله، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته، وأردتم الأمن من أحسن صورة عروس توجد، وقولوا له : ذق طعم هذا الوصال، والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وياشرت مرارة الطعن والضرب، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة، فدع الحرب تضع أوزارها، فليست بيوم وتنقضي، وإنما حرب متصل بالموت، وقواك تضعف عن حرب دائم.

واستعينوا يابتي بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما:

أحدهما: جند الغفلة، فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله تعالى والدار الآخرة بكل طريق، فليس لكم شيء أبلغ في تحصيل غرضكم من ذلك؛ فإن القلب إذا غفل عن الله تعالى تمكنت منه ومن إغوائه.

والثاني: جند الشهوات، فزينوها في قلوبهم، وحسنوها في أعينهم، ووصلوا عليهم بهذين العسكرين، فليس لكم من بني آدم أبلغ منهما، واستعينوا على الغفلة بالشهوات، وعلى الشهوات بالغفلة، واقنوا بين الغافلين، ثم استعينوا بهما على الذاكر، ولا يغلب واحد خمسة؛ فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة، وشيطان الذاكر معهم. وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم - من ذكر الله أو مذاكرة أمره ونهيه ودينه، ولم تقدرُوا على تفريقهم - فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين، فقربوهم منهم، وشوشوا عليهم بهم.

* وبالجمللة فأعدوا للأمور أقرانها، وادخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته، فساعدوه عليها، وكونوا أعوانا له على تحصيلها، وإذا كان الله قد أمرهم أن يصبروا لكم، ويصابروكم، ويرابطوا عليكم الثغور، فاصبروا أنتم وصابروا ورباطوا عليهم بالثغور، وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب، فلا تصطادون بنى آدم فى أعظم من هذين الموطنين.

واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور فخذوا عليه طريق الشهوة، ودعوا طريق الغضب، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب. فلا تخلوا طريق الشهوة قلبه، ولا تعطلوا ثغرها، فإن لم يملك نفسه عند الغضب فإنه الحرى أن لا يملك نفسه عند الشهوة. فزوجوا بين غضبه وشهوته وامزجوا أحدهما بالآخر وادعوه إلى الشهوة من باب الغضب، وإلى الغضب من طريق الشهوة.

واعلموا أنه ليس لكم فى بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة، وإنما أقيت العداوة بين أولادهم بالغضب، فيه قطعت أرحامهم، وسفكت دماءهم، وبه قتل أحد ابنى آدم أخاه.

واعلموا أن الغضب جمره فى قلب ابن آدم، والشهوة تثور من قلبه، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير، فإياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة، فإن ذلك يطفى عنهم نار الغضب والشهوة، وقد أمرهم نبيهم بذلك فقال: «إن الغضب جمره فى قلب ابن آدم، أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه، فمن أحس بذلك فليتوضأ»^(١).

وقال لهم: «إنما تطفأ النار بالماء»^(٢) وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك، وأنسوهم إياه؛ واستعينوا عليهم بالشهوة

(١) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (١٩/٣)، والترمذى (٢١٩١)، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٣٣٨).

(٢) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (٢٢٦/٤)، وأبو داود (٤٧٨٤)، وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (٥٨٢)، وضعيف الجامع (١٥١).

والغضب . وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها: الغفلة واتباع الهوى .

وأعظم أسلحتهم فيكم ؛ وأمنع حصونهم: ذكر الله ، ومخالفة الهوى . فإذا رأيتم الرجل مخالفاً لهواه ، فاهربوا من ظله ولا تدنوا منه .

* والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ، ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلون بسلاحه ، ويكون معهم على نفسه ، وهذا غاية الجهل .

ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

* ومن العجب أن العبد يسعى بجهد في هوان نفسه ، وهو يزعم أنه لها مكرم ، ويجتهد في حرمانها أعلى حظوظها وأشرفها ، وهو يزعم أنه يسعى في حفظها ، ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدنيها ، وهو يزعم أنه يعليها ويرفعها ويكبرها . وكان بعض السلف يقول في خطبته :

ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه ، وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ، ومضيع لنفسه ، وهو يزعم أنه مراع لحفظها ! وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه ، يبلغ منها بفعله ما لم يبلغ من عدوه . والله المستعان .

[المعصية تنسى العبد نفسه]

* ومن عقوباتها: أنها تنسى العبد نفسه . وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها . فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ! وإذا نسي نفسه فأى شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩] .

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم . كما قال الله تعالى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] .

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته. فالهلاك أدنى إليه من اليد للقم.

وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحفظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، ينسيه ذلك جميعه فلا يخطره بباله.

ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره.

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتهما، فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها، فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعى في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مشغن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداوانه، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضعيها، ونسى مصالحها وداءها ودواءها، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟

* ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا حقيقة أنفسهم وضعيها وأضاعوا حفظها من الله، وباعوها رخيصة بثمان بخس بيع الغبن، وإغما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذي عقده لنفسه في هذه الدار، والتجارة التي اتجر فيها لمعاده، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لآخرته.

فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة وحظهم فيها، فأذهبوا طبيئاتهم في حياتهم الدنيا، واستمتعوا

بها، ورضوا بها، واطمأنوا إليها، وكان سعيهم لتحصيلها، فباعوا واشتروا وانجروا وباعوا آجلاً بعاجل، ونسيئة بنقد، وغائباً بناجز، وقالوا: هذا هو الحزم.

ويقول أحدهم: «خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به».

فكيف أبيع حاضراً نقداً مشاهداً في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه؟ وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان، وقوة داعي الشهوة، ومحبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التي قال الله سبحانه في أهلها:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

وقال فيهم: ﴿فَمَا رِبْحُ تِجَارَتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة، فتقطع عليها النفوس حشرات. وأما الرابحون فإنهم باعوا فائداً بياق، وخسبوا بنفيس، وحقيقاً بعظيم، وقالوا: ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها، حتى نبيع حظنا من الله تعالى والدار الآخرة بها؟ فكيف ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذي هو في الحقيقة كغفوة حلم، لا نسبة له إلى دار القرار البتة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانُوا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [٤٢] ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ [٤٣] ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [٤٤] ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّحْشَاهَا﴾ [٤٥] ﴿كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [٤٦] [النازعات: ٤٢ - ٤٦].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ فَبَلَّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الاحقاف: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [١١٢] ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ

يَوْمَ فَاسْأَلُ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ [المؤمنين: ١١٢ - ١١٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١١٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٤﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

فهذه حقيقة الدنيا عند موافاة يوم القيامة، فلما علموا فلة لبثهم فيها، وأن لهم داراً غير هذه الدار، هي دار الحيوان ودار البقاء رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء، فاتجروا تجارة الأكياس، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس، فظهر لهم يوم التغابن ربح تجارتهم ومقدار ما اشتروه، وكل أحد في هذه الدار الدنيا بائع مشتر متجر، و«كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١١١].

فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة، فتاجروا أيها المفلسون، ويامن لا يقدر على هذا الثمن هنا ثمن آخر، فإن كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوْفُونِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ - ١١].

* والمقصود: أن الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة، وتشغله بالتجارة الخاسرة، وكفى بذلك عقوبة، والله المستعان.

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣٤٢/٥)، ومسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧).

[المعاصي تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة]

* ومن عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة، فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعل الله سبحانه لكل شيء سبباً وآفة، سبباً بحليته، وآفة بتطله، فجعل أسباب نعمه الحالبة لها طاعته، وآفات المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد روالها عنه خذله حتى عصاه بها.

ومن العجيب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره، وسماعاً لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه، وهو مقيم على معصية الله، كأنه مستثنى من هذه الحملة أو مخصوص من هذا العموم، وكان هذا أمر جار على الناس لا عليه، وواصل إلى الخلق لا إليه.

فأى جهل أبلغ من هذا؟ وأي ظلم للنفس فوق هذا؟ فالحكم لله العلى الكبير.

[المعصية تبعد عن فاعلها الملك وتقرب منه الشيطان]

* ومن عقوباتها: أنها تباعد عن العبد وليه، وأنفع الخلق له، وأنصحهم له، ومن سعادته في قربه منه، وهو الملك الموكل به، وتدنئ منه عدوه، وأغش الخلق له وأعظمهم ضرراً له: وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى إنه يتباعد عنه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

وفى بعض الآثار: «إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلاً من نتن ريحه»^(١) فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة، فماذا يكون مقدار بعده منه مما هو أكبر من ذلك، وأفحش منه؟

وقال بعض السلف: إذا ركب الذكر^(٢) الذكر عجت الأرض إلى الله، وهربت

(١) حديث ضعيف جداً: أخرجه الترمذى (١٩٧٢)، عن ابن عمر مرفوعاً ضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى»، و«ضعيف الجامع» (٧٨٠) وقال: «ضعيف جداً»

(٢) يعنى المصنف جريمة اللواط

الملائكة إلى ربها، وشكت إليه عظيم ما رأت.

وقال بعض السلف: إذا أصبح العبد ابتدره الملك والشيطان، فإذا ذكر الله وكبره وحمده وهله طرد الشيطان وتولاه، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان.

ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له، فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند بعثه، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (٣٠) نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴿[فصلت: ٣٠ - ٣١].

وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق وأنفعهم وأبرهم، فثبته وعلمه، وقوى جنانه، وأيده قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (١٢) [الأنفال: ١٢].

فيقول له الملك عند الموت: «لا تخف ولا تحزن وأبشِر بالذي يسرك»^(١)، ويثبته بالقول الثابت أحوج ما يكون عليه في الحياة الدنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة. فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليه في يقظته ومنامه، وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدثه في سره، ويحارب عنه عدوه، ويدفع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشره به، ويحثه على التصديق بالحق، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعاً وموقوفاً: «إن للملك بقلب ابن آدم لمة»^(٢) وللشيطان لمة، فلمة الملك إبعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إبعاد بالشر وتكذيب بالحق»^(٣).

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٨٧/٤)، وأبو داود (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٢).

(٢) اللمة: بفتح اللام من ألم به نزل به نزولاً خفيفاً، ومعتاء: الخطرة في القلب.

(٣) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٨٨) ضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي»، و «ضعيف الجامع»

وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه، وألقى على لسانه القول السديد، وإذا بعد منه وقرب الشيطان تكلم على لسانه، وألقى عليه قول الزور والفحش، حتى يرى الرجل يتكلم على لسانه الملك، والرجل يتكلم على لسانه الشيطان.

وفى الحديث: «إن السكينة تنطق على لسان عمر»^(١) - رضى الله عنه - وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الملك، ويسمع ضدها فيقول: ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان، فالملك يلقي بالقلب الحق، ويلقيه على اللسان، والشيطان يلقي الباطل في القلب، ويجريه على اللسان.

فمن عقوبة المعاصي: أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومحاورته وموالاته، وتدنى منه عدوه الذي شقاؤه بهلاكه فسادته في قربه وموالاته، حتى إن الملك لينافح عن العبد، ويرد عنه إذا سقه عليه السفه وسبه، كما اختصم بين يدي النبي ﷺ رجلان، فجعل أحدهما يسب الآخر، وهما ساكتان، فنكله بكلمة في بها على صاحبه، فقام النبي ﷺ فقال: يا ربك الله ما رددت بعض قولي قمت، فقال: «كان الملك ينافح عنك»^(٢) فلما رددت علي الشيطان فلم أكن لأجلس»^(٣).

وإذا دعا العبد المسلم لأحد شئ الغيب أمن الملك على دعائه، وقال: «لك بمثل»^(٤).

وإذا فرغ من قراءة فاتحة أم الكتاب الملائكة على دعائه»^(٥).

(١) حديث صحيح: أخرجه «الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١/١٠٦) وفي زوائد فضائل الصحابة

(٤٧٠)، وصححه الشيخ شاذلي في تعليقه على المسند (٨٣٤)

(٢) ينافح عنك: يدافع عنك

(٣) حسن: أخرجه أبو داود (٤٨٩٦) وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٣٤)

(٤) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٥/١٩٥ و ٦/٤٥٢)، ومسلم (٨/٨٦)، وأبو داود (١٥٣٤)، وابن ماجه (٢٨٩٥).

(٥) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٦/٤١).

وإذا أذنب العبد المؤمن الموحد المتبع لسبيله وسنة رسوله ﷺ، استغفر له حملة العرش ومن حوله^(١). وإذا نام على وضوء بات في شعاره ملك^(٢).

فملك المؤمن يرد عنه ويحارب ويدافع عنه، ويعلمه ويثبت به ويشجعه، فلا يليق به أن يسىء جواره، يبالغ في أذاه وطرده عنه وإبعاده، فإنه ضيفه وجاره.

وإذا كان إكرام الضيف من الأدميين والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان وموجباته، فما الظن بإكرام أكرم الأضياف، وخير الجيران وأبرهم؟ وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه، وقال: «لا جزاك الله خيراً» كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان.

قال بعض الصحابة - رضى الله عنهم -: «إن معكم من لا يقارحكم، فاستحيوا منهم وأكرمواهم».

ولا الأم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القدر، ولا يجله ولا يوقره، وقد ثبت سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ﴾ كراماً كاتبين [الأنفطار: ١٠ - ١١].

أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرمواهم، وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكاتبين؟ والله المستعان.

(١) إسناده ضعيف: أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٨/١٠ - الإحسان) وابن المبارك في «الزهد» (١٢٤٤) وفي إسناده الحسن بن ذكوان، قال الحافظ في «التقريب»: صدوق يخطئ كان يدلس - قلت: وقد جعله الألبانى العلة الثانية في تضعيف الحديث رقم (٩٣٦). من «الضعيفة» وقد ذكره الحافظ في «طبقات المدلسين» في المرتبة الثالثة وهم الذين أكثروا من التدليس ولم يحتج الأئمة من حديثهم إلا بما صرحوا فيه بالسماع.

(٢) الشعار: ما يلي الجسم من الثياب.

[المعاصي سبب هلاك العاصي في الدنيا والآخرة]

* ومن عقوباتها: أنها تستجلب مراد هلاك العبد من دنياه وآخرته فإن الذنوب هي أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحاً إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاق الرديئة التي متى غلبت أفسدته، وحمية يمنع بها عما يؤذي ويخشى ضرره، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح تستفرغ بها المواد الفاسدة والأخلاق الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ الصحة وتجنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة.

والتقوى: اسم متناول لهذه الأمور الثلاثة، فما فات منها، فات من التقوى بقدره. وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة، فإنها تستجلب المواد المؤذية، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح. فانظر إلى بدن عليل قد تراكت عليه الأخلاق ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمى لها، كيف تكون صحته وبقاؤه؟ ولقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حصنته مخافة من ألم طارئ

وكان أولى بك أن تخشى من المعاصي خشية الباري

فمن حفظ القوة بامتنال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهي، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلباً، ولا من الشر مهرباً والله المستعان.

[العقوبات الشرعية على العاصي]

فإن لم ترعك هذه العقوبات، ولم تجد لها تأثيراً في قلبك، فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم، كما قطع اليد في سرقة ثلاثة دراهم، وقطع اليد والرجل في قطع الطريق على معصوم المال والنفس، وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن، أو فطرة حمر يدخلها جوفه، وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة. في فرج حرام، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة

الإحصان بمائة جلدة، وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى الغربة، وفرق بين رأس العبد ويدنه إذا وقع على ذات رحم محرم منه، أو ترك الصلاة المفروضة، أو تكلم بكلمة كفر، وأمر بقتل من وطئ ذكراً مثله، وقتل المفعول به، وأمر بقتل من أتى بهيمة وقتل البهيمة معه، وعزم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها على الجرائم وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم، وحسب الوازع عنها. فما كان الوازع عنه طبيعياً وليس في الطباع داع إليه اكتفى فيه بالتحريم مع التعزير، ولم يرتب عليه حداً، كأكل الرجيع، وشرب الدم، وأكل الميتة. وما كان في الطباع داع إليه رتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته، ويقدر داعي الطبع إليه. ولهذا كان داعي الطباع إلى الزنا من أقوى الدواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها، وعقوبته السهلة أعلى أنواع الجلد مع زيادة التعزير. ولما كانت جريمة اللواط فيها الأمان كان حده القتل بكل حال. ولما كان داعي السرقة قوياً ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد.

وتأمل حكمته في إفساد العضو الذي باشر العبد به الجناية، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به، إذ مفسدته تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها، فاكتفى من ذلك بإيلاام جميع بدنه بالجلد.

فإن قيل: فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية؟

قيل: لوجوه:

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية. إذ فيه قطع النسل وتعريضه للهلاك.

الثاني: أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناة، بخلاف قطع اليد.

الثالث: أنه إذا قطع يده أبقى له يداً أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج.

الرابع: أن لذة الزنى عمت جميع البدن، فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع

البدن، وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه.

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل، وأقومها بالمصلحة.

*** والمقصود:** أن الذنوب إنما تترتب عليها العقوبات الشرعية أو القدرية أو يجمعهما الله للعبد، وقد يرفعهما عن تاب وأحسن.

[عقوبات المعاصي شرعية وقدرية]

*** وعقوبات الذنوب نوعان:** شرعية، وقدرية، فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبة القدرية أو خففتها، ولا يكاد الرب تعالى يجمع على العبد بين العقوبتين إلا إذا لم يف أحدهما برفع موجب الذنب، ولم يكف في زوال دائه، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية، وربما كانت دونها، ولكنها نعم، والشرعية تخص، فإن الرب تبارك وتعالى لا يعاقب شرعاً إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها.

وأما العقوبة القدرية فإنها تقع عامة وخاصة، فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة، وإذا رأى الناس المنكر فاشتروا في ترك إنكاره أو شك أن يعمهم الله بعقابه.

وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله سبحانه على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها، وجعلها الله سبحانه ثلاثة أنواع: القتل، والقطع، والجلد، وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب منه، وهو الزنى واللواط، فإن هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأنساب، ونوع الإنسان.

قال الإمام أحمد: « لا أعلم بعد القتل ذنباً أعظم من الزنى » واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال: « يا رسول الله: أى الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قال: قلت: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: قلت: ثم أى؟ قال: أن تزاني حليلة جارك »^(١) فأنزل الله تصديقها.

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١/٤٦٤)، والبخاري (٤٤٧٧)، ومسلم كتاب الإيمان - باب أعظم الذنوب بعد الشرك.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (٦٨) [الفرقان: ٦٨].

والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل، فإنه سأل عن أعظم الذنب، فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها، وما هو أعظم كل نوع. فأعظم أنواع الشرك: أن يجعل العبد لله نداً.

وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه. وأعظم أنواع الزنى: أن يزنى بحليلة جاره، فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق.

فالزنى بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها؛ إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه، وتعليق نسب عليه لم يكن منه، وغير ذلك من أنواع أذاه، فهو أعظم إثماً وجرمًا من الزنى بغير ذات البعل.

فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار، فإن كان زوجها جاراً له انضاف إلى ذلك سوء الجوار، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق^(١).

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه»^(٢) ولا يائقة أعظم من الزنى بامرأة الجار.

فإن كان الجار أخاً له أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم، فيتضاعف الإثم له، فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة وطلب العلم والجهاد تضاعف له الإثم، حتى إن الزانى بامرأة الغازی في سبيل الله يوقف له يوم القيامة، ويقال: خذ من حسناته ما شئت. قال النبي ﷺ: «فما ظنكم»^(٣) أى: ما ظنكم أنه يشرك له من الحسنات، قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء؟ على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة

(١) البوائق: العوائل والشُرور، واحدها بائقة وهي المهلكة.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (١٦ - ٦) عن ابن شريح، ومسلم (٤٦) عن أبى هريرة، واللفظ له.

(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم، كتاب الإمارة - باب: حرمة نساء المجاهدين عن بريدة.

حيث لا يترك الأب لابنه، ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه؟ فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها، فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً كان الإثم أعظم، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، فإن اختلف بذلك أن يكون فى شهر حرام أو بلد حرام، أو وقت معظّم عند الله، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة، تضاعف الإثم. وعلى هذا فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الإثم والعقوبة، والله المستعان.

[القتل والقطع والجلد]

وجعل سبحانه القطع بإزاء فساد الأموال الذى لا يمكن الاحتراز منه، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه؛ لأنه يأخذ الأموال فى اختفاء، وينقب الدور، ويتسور من غير الأبواب فهو كالسنور والحية التى تدخل عليك من حيث لا تعلم، فلم ترتفع مفسدة سرقة إلى القتل، ولا تندفع بالجلد، فأحسن ما دفعت به مفسدته إبانة العضو الذى يتسلط به على الجناية، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف.

فدارت عقوباته سبحانه الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع: العتق، وهو أعلاها، والإطعام، والصيام.

أقسام الذنوب:

• ثم إنه سبحانه جعل الذنوب ثلاثة أقسام:

قسماً فيه الحد، فهذا لم يع فيه كفارة اكتفاء بالحد.

وقسماً لم يترتب عليه حد، فشرع فيه الكفارة، كالوطء فى نهار رمضان، والوطء فى الإحرام، والظهار، وقتل الخطأ، والخنث فى اليمين وغير ذلك.

وقسماً لم يترتب عليه حد ولا كفارة، وهو نوعان:

أحدهما: ما كان الوازع عنه طبيعياً، كأكل العذرة، وشرب البول والدم.

والثانى: ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد، كالنظر والقبلة

واللمس والمحادثة، وسرقة فلس، ونحو ذلك.

الكفارات في ثلاثة أنواع:

* وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع:

أحدها: ما كان مباح الأصل، ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم، كالوطء في الإحرام والصيام، وطرده: الوطء في الحيض والنفاس، بخلاف الوطء في الدبر، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح، فإنه لا يباح في وقت دون وقت، فهو بمنزلة التلوط، وشرب المسكر.

النوع الثاني: ما عقد لله من نذر أو بالله من يمين، أو حرمه الله، ثم أراد حله، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث، كما ظنه بعض الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجباً، وقد يكون مستحباً، وقد يكون مباحاً، وإنما الكفارة حل لما عقده.

النوع الثالث: ما تكون فيه جابرة لما فات، ككفارة قتل الخطأ، وإن لم يكن هناك إثم، وكفارة قتل الصيد خطأ، فإن ذلك من باب الجوابر، والنوع الأول من باب الزواجر، والنوع الأوسط من باب التحلة لما منعه العقد.

لا يجتمع الحد والتعزير:

* لا يجتمع الحد والتعزير في معصية، بل إن كان فيها حد اكتفى به، وإلا اكتفى بالتعزير، ولا يجتمع الحد والكفارة في معصية، بل كل معصية فيها حد فلا كفارة فيها، وما فيه كفارة فلا حد فيه، وهل يجتمع التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها؟

فيه وجهان: وهذا كالوطء في الإحرام والصيام، ووطء الحائض. وإذا أوجبنا فيه الكفارة، فقليل: يجب التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجنابة، وقيل: لا تعزير في ذلك، اكتفاءً بالكفارة؛ لأنها جابرة وماحية.

[العقوبات القدرية]

* وأما العقوبات القدرية فهي نوعان: نوع على القلوب والنفوس، ونوع على الأبدان والأموال.

والتي على القلوب نوعان:

أحدهما: آلام وجودية يضرب بها القلب.

والثاني: قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها.

وعقوبة القلب أشد العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان، وهذه العقوبة تقوى وتتزايد، حتى تسرى من القلب إلى البدن، كما يسرى ألم البدن إلى القلب. فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقاً بها فظهرت عقوبة القلب حينئذ، وصارت علانية ظاهرة وهي المسماة بعذاب القبر، ونسبته إلى البزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار.

* والتي على الأبدان أيضاً نوعان: نوع في الدنيا، ونوع في الآخرة.

وشدتها ودوامها بحسب مقاسد ما رتب عليه في الشدة والخفة فليس في الدنيا والآخرة شر أصلاً إلا الذنوب وعقوباتها، فالشر اسم لذلك كله، وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال، وهما الأصلان اللذان كان النبي ﷺ يستعبد منهما في خطبته بقوله: «ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا»^(١). وسيئات الأعمال: من شرور النفس، فعاد الشر كله إلى شر النفس، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته.

وقد اختلف في معنى قوله: «ومن سيئات أعمالنا» هل معناه السيئ من أعمالنا، فيكون من باب إضافة النوع إلى جسده؟ أو تكون «من» بيانية. وقيل: معناه من عقوباتها التي تسوء، فيكون التقدير: ومن عقوبات أعمالنا التي تسوؤنا، ويرجع هذا

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣٩٢/١)، وأبو داود (٢١١٨)، والنسائي (١٠٥/٣)، والترمذي

(١١٠٥). وصححه الألباني في «صحيح السنن»

القول: أن الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة، وهي تستلزم العقوبات السيئة، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال، واكتفى بذكرها منه، إذ هو أصله، ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه، فهو السيئات التي تسوء العبد من عمله، من العقوبات والآلام، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفرعه وغايته ومقتضاه.

ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩]. فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها؛ فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيئ وقاهم جزاء السيئ، وإن كان قوله: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتها يومئذ.

﴿فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ سَأَلُوهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقِيَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، وَهَذَا هُوَ وَقَايَةُ الْعُقُوبَاتِ السَّيِّئَةِ، فَقَدْ عَلِيَ أَنْ الْمُرَادَ بِالسَّيِّئَةِ الَّتِي سَأَلُوا وَقَايَتَهَا: الْأَعْمَالُ السَّيِّئَةُ، وَيَكُونُ الَّذِي سَأَلَهُ الْمَلَائِكَةُ نَظِيرَ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ﴾.

ولا يرد على هذا قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم، وهي سيئات في أنفسها.

قيل: وقاية السيئات نوعان:

أحدهما: وقاية فعلها بالتوقيف فلا تصدر منه.

والثاني: وقاية جزائها بالمغفرة، فلا يعاقب عليها، فتضمنت الآية سؤال الأمرين، والظرف تقييد للجملة الشرطية لا للجملة الظلية.

وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان، والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم، وقدموا بين يدي استغفارهم توسلهم إلى الله سبحانه بسعة علمه، وسعة رحمته، فسعة علمه تتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم، وهواهم وطباعهم، وما زين لهم من الدنيا وزينتها، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض، وإذ هم أجنة في بطون

أمهاتهم، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه، وأنه يحب العفو والمغفرة، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شئ، ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله، وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته فتابوا مما يكره، واتبعوا السبيل التى يحبها ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم، وقروعههم، وأزواجهم - جنات عدن التى وعدهم بها، وهو سبحانه، وإن كان لا يخلف الميعاد، فإنه وعدهم بها بأسباب، ومن جملتها: دعاء ملائكته لهم أن يدخلهم إياها برحمته التى منها أن وفقهم لأعمالها، وأقام ملائكته يدعون لهم بها. ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩]. أى: مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك وكمال علمك، فإن العزة كمال القدرة والحكمة كمال العلم، وبهاتين الصفتين يقضى سبحانه وتعالى ما شاء ويأمر وينهى ويثيب ويعاقب، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر.

*** والمقصود:** أن عقوبات السيئات تنوع إلى عقوبات شرعية، وعقوبات قدرية، وهى إما فى القلب، وإما فى البدن، وإما فيهما، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت، وعقوبات يوم حشر الأجساد. فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما فيه من العقوبة، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذى لا يشعر بالألم، فإذا استيقظ وصحا أحس بالألم، فترتب العقوبات على الذنوب كترتب الإحراق على النار، والكسر على الانكسار، والاغتراق على الماء، وفساد البدن على السموم، والأمراض على الأسباب الخالية لها، وقد تقارن المضرة الذنب وقد تتأخر عنه، إما يسيراً وإما مدة، كما يتأخر المرض من سببه أو يقارنه وكثيراً ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقبيه، ولا يدرك أنه يعمل عمله على التدريج شيئاً فشيئاً، كما تعمل السموم والأشياء الضارة حذو القذة بالقذة^(١) فإن

(١) القذة: واحدة، يرش السهم أى كما تقذف كل واحدة منها على قدر صاحبها، يضرب مثلاً للشيبين يستويان ولا يتفاوتان.

تدارك العبد بالأدوية والاستفراغ والحمية، وإلا فهو صائر إلى الهلاك، هذا إذا كان ذنباً واحداً لم يتداركه بما يزيل أثره، فكيف بالذنب على الذنب وكل ساعة؟ والله المستعان.

[محاسبة النفس]

فاستحضر بعض العقوبات التي رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب وجوز وصول بعضها إليك؛ واجعل ذلك داعياً للنفس إلى هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرقاً يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

الختم على القلب:

فمنها: الختم على القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والإقفال على القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرین عليها والطبع، وتقليب الأفئدة، والأبصار، والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضاً على مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقى منكوسة كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - أنه قال: «القلوب أربعة: فقلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس؛ فذلك قلب المنافق، وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما»^(١).

«ومنها: الشيطان عن الطاعة، والإقعاد عنها.

«ومنها: جعل القلب أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق به، أعمى لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الذي لا يتفقه غيره، كالتسبية بين أذن الأصم، والأصوات، وعين الأعمى والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمى والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة، وللجوارح بالعرض والتبعية.

(١) ضعيف. أخرجه أحمد (١٧/٣) من حديث أبي سعيد مرفوعاً، وفيه ليث بن أبي سليم، قال فيه الحافظ في «التقريب»: صدوق اختلط أخيراً، ولم يتميز حديثه، فترك.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٤٦) [الحج: ٤٦]. وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر، كيف وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]. وقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ (١) أن جاءه الأعمى (٢) [عبس: ١ - ٢]. وإنما المراد العمى التام فى الحقيقة عمى القلب، حتى إن عمى البصر بالنسبة إليه كلاً عمى، حتى إنه يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته، كما قال النبى ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب»^(١). وقوله ﷺ: «ليس المسكين بالطَّوْف الذى تردُّه اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس، ولا يُفْطَن له فيُتَصَدَّق عليه»^(٢) ونظائره كثيرة.

* والمقصود: أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم.

خسف القلب:

* ومنها: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلى أسفل السافلين، وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به، أنه لا يزال جوالاً حول السفليات والقاذورات والردائل. كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوالاً حول العرش.

* ومنها: البعد عن البر والخير ومعالى الأعمال والأقوال والأخلاق.

قال بعض السلف: «إن هذه القلوب جوالّة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُش».

مسخ القلب:

* ومنها: مسخ القلب، فيمسخ كما تمسخ الصورة، فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يمسخ على خلق قلب كلب أو حمار أو حية

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦١١٤)، ومسلم: كتاب البر - باب فضل من يملك نفسه عند الغضب.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (١٤٧٩)، ومسلم: كتاب الزكاة - باب النهى عن المسألة.

وعقرب وغير ذلك. وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال: منهم من يكون على أخلاق السباع العادية، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوس في ثيابه كما يتطوس طاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليداً كالحمار، ومنهم من يؤثر على نفسه بالديك، ومنهم من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم الذي هو صير كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها، وقد شبه الله تعالى أهل لجحيم والغنى بالحر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة.

وتقوى هذه المشابهة باطناً حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً حقيقياً، يراه لتفرسون، وتظهر الأعمال ظهوراً يراه كل أحد، ولا يزال يقوى حتى تستشنع صورة، فتقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله سبحانه وتعالى صورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر؟ وقلب ممسوخ، وقلب خسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه؟ ومغرور بستر الله عليه؟ ومستدرج بم الله عليه؟ وكل هذه عقوبات وإهانات، ويظن الجاهل أنها كرامة.

* ومنها: مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته قلب الزائع عن الحق.

نكس القلب:

ومنها: نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والمعروف منكراً والمنكر مروقاً، ويفسد ويرى أنه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرى أنه يدعو إليها، يشتري الضلالة بالهدى، وهو يرى أنه على الهدى، ويتبع هواه وهو يزعم أنه مطيع لاه؟ وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلب.

حجب القلب عن الرب:

* ومنها: حجاب القلب عن الرب في الدنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤١) كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٤٢) [المطففين: ١٤ - ١٥]. فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم، فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته، وتقر به عينًا وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين ربهم وحالقهم.

المعيشة الضنك:

* ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى﴾ (١٢٤) [طه: ١٢٤].

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت تكرة في سياق الإثبات، فإن عمومها من حيث المعنى، فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالعراض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم. ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب، والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر فيه، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنه يفتيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقرر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلا بإلاهاها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقرر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به، وعمل صالحًا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ

صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧]. فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدارين.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [النحل: ٣٠]. ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣]. ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين، فإن طيب النفس سرور القلب وفرحه ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانسراحه ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرمة، والشبهات الباطلة، وهو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم لبدن إليه. وقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف. وقال آخر: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر»^(١) وقال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٢).

نعيم الأبرار وجحيم الفجار:

* ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي

(١) حديث حسن: أخرجه أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذي (٣٥١٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٨٧). وحسنه الشيخ الأرنؤوط في «تحقيق جامع الأصول» (٤/ ٤٧٨). وحسنه شيخنا الشيخ عمرو بن عبد اللطيف - حفظه الله - في رسالة «الأذكار».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١١٩٥)، ومسلم (١٣٩٠).

جحيم ﴿١٤﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٤]. مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة، وهؤلاء في جحيم في الثلاثة، وأي لذة ونعيم في الدنيا أطيب من به القلب، وسلامة الصدر، ومعرفة الرب تبارك وتعالى ومحبته، والعمل على موافقته، وهل العيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم؟ وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على خليله - عليه السلام - بسلامة قلبه فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ - ﴿١٣﴾ - إذ جاء ربه بقلب سليم ﴿٨٤﴾ [الصافات: ٨٣ - ٨٤]. وقال حاكياً عنه أنه قال: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ - ﴿٨٨﴾ - إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ - ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]. والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده عن الله، وسلم من كل شبهة تعارض، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تراحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد.

سلامة القلب:

* ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تنحصر.

الصراط المستقيم:

* ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته، إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها. فإن الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكاً ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده، كسلماً

وتهاوناً، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم فيه بشروط الإخلاص وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر.

وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك كله وهذا هو الإركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم، فأعادهم إلى طباعهم وما خلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم. والرب تبارك وتعالى على صراط مستقيم في قضائه وقدره، ونهيه وأمره فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته، وجعله الهداية حيث تصلح، ويصرف من يشاء عن صراطه المستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه. فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إليه فهو على صراط مستقيم.

* ونصب لعباده من أمره صراطاً مستقيماً دعاهم جميعاً إليه حجة منه وعدلاً، وهدى من شاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلاً، ولم يخرج بهذا العدل وهذا الفضل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه.

فإذا كان يوم لقائه نصب لخلقه صراطاً مستقيماً يوصلهم إلى جنته، ثم صرف عنه من صرف عنه في الدنيا، وأقام عليه من أقامه عليه في الدنيا وجعل نور المؤمنين به ورسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نوراً ظاهراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم في ظلمة الحشر، وحفظ عليهم نورهم حتى قطعوه. كما حفظ عليهم الإيمان به حتى لقوه، وأطفا نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه، كما أطفأ من قلوبهم في الدنيا.

أعمال العصاة بجنتي الصراط كلاليب وحسكاً تخطفهم كما خطفتهم في الدنيا عن الاستقامة عليه، وجعل قوة سيرهم وسرعتهم عليه على قدر قوة سيرهم وسرعتهم في الدنيا، ونصب للمؤمنين حوضاً يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا، وحرم من الشرب منه هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا.

* فانظر إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين ، تعلم حيثئذ علماً يقيناً لا شك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة وعنوانها وأتمودجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح ضدهما ، وبالله التوفيق فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة .

[أصل الذنوب]

ولما كانت الذنوب متفاوتة في درجاتها ومفاسدها تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة بحسب تفاوتها ، ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلاً وجيزاً جامعاً ، فنقول : أصلها نوعان : ترك مأمور ، وفعل محظور ، وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوى الجن والإنس . وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح ، وباطن في القلوب . وباعتبار متعلقه إلى حق الله ، وحق خلقه . وإن كان كل حق لخلقفه فهو متضمن لحقه ، لكن سمي حقاً للخلق ؛ لأنه يجب بمطالبتهم ويسقط بإسقاطهم . ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام : ملكية ، وشيطانية ، وسبعية ، وبهيمية ، ولا تخرج عن ذلك .

الذنوب الملكية : فالذنوب الملكية أن يتعاطى ما لا يصح له من صفات الربوبية ، كالعظمة والكبرياء ، والجبروت ، والقهر ، والعلو ، واستعباد الخلق ، ونحو ذلك . ويدخل في هذا الشرك بالله تعالى ، وهو نوعان : شرك به في أسمائه وصفاته وجعل آلهة أخرى معه ، وشرك به في معاملته ، وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار ، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره .

وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره . فمن كان من أهل هذه الذنوب ، فقد نازع الله سبحانه في ربوبيته وملكه ، وجعل له نداً . وهذا أعظم الذنوب عند الله ، ولا ينفع معه عمل .

الذنوب الشيطانية : وأما الشيطانية ، فالتشبه بالشیطان في الحسد ، والبغى والغش ، والغل والخداع ، والمكر ، والأمر بمعاصي الله وتحسينها ، والنهي عن طاعته وتهجينها ،

والابتداء في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال. وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

الذنوب السبعية: وأما السبعية، فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع أذى النوع الإنساني والجرأة على الظلم والعدوان.

الذنوب البهيمية: وأما الذنوب البهيمية، فمثل الشره والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنى، والسرقعة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشح، والجبن، والهلع والجزع وغير ذلك.

وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق لعجزهم عن الذنوب السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام. فهو يجرمهم إليها بالزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم إلى منازعة الربوبية، والشرك في الوجدانية. ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته.

[الذنوب كبائر وصغائر]

* وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة، على أن الذنوب كبائر وصغائر، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]. وفي الصحيح عنه عليه السلام أنه قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»^(١).

وهذه الأعمال المكفرة لها ثلاث درجات:

أحدها: أن تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الإخلاص فيها والقيام

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٠)، ومسلم: كتاب الطهارة - باب فضل الوضوء، والترمذي (٢١٤).

بحقوقها، بمنزلة الدواء الضعيف الذي ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية.

الثانية: أن تقاوم الصغائر، ولا ترقى إلى تكفير شيء من الكبائر.

الثالثة: أن تقوى على تكفير الصغائر، وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا؛ فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة. وفي «الصحيحين» عنه عليه السلام أنه قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، فقال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»^(١).

وفي «الصحيحين» عنه عليه السلام: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

وفي «الصحيحين» عنه عليه السلام أنه سئل: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تدعو لله ندأ وهو خلقك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حيلة جارك»^(٣) فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

عدد الكبائر:

- واختلف الناس في الكبائر: هل لها عدد يحصرها؟ على قولين:

ثم الذين قالوا يحصرها اختلفوا في عددها، فقال عبد الله بن مسعود: هي أربع، وقال عبد الله بن عمر: هي سبع، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي تسعة، وقال غيره: هي إحدى عشرة، وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة، فوجدتها أربعة في القلب،

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم في كتاب الإيمان - باب الكبائر، والترمذي (٢٣٠١).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٣) حديث صحيح: تقدم تخريجه.

وهي: الشرك بالله، والإصرار على المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وأربعة في اللسان، وهي: شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاث في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنان في الفرج، وهما: الزنى، واللواط. واثنان في اليدين، وهما: القتل، والسرقه، وواحد في الرجلين، وهو الفرار من الزحف، وواحد يتعلق بجميع الجسد، وهو: عقوق الوالدين.

❖ والذين لم يحصروها بعدد، منهم من قال: كل ما نهى الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة.

❖ وقالت طائفة: ما اقترن بالهوى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقترن به شيء من ذلك فهو صغيرة.

❖ وقيل: كل ما يترتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة وما لم يترتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة.

❖ وقيل: كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر. وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

❖ وقيل: كل ما لعن الله ورسوله فاعله فهو كبيرة.

❖ وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله: ﴿إِنْ تَجَتَّابُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

الذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر:

❖ والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها - بالنسبة إلى الجراءة على الله سبحانه ومعصيته ومخالفة أمره - كبائر، فالنظر إلى من عصى أمره، وانتهاك محارمه يوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهي مستوية في هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق في

ذلك بين ذنب وذنب .

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنوب إنما هي تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى، ولهذا لو شرب رجل خمراً أو وطئ فرجاً حراماً، وهو لا يعتقد تحريمه، لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان آتياً بإحدى المفسدتين، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول، فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب .

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمة، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب .

قالوا: فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره في نفسه، ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته، وانتهاك حرمة بالمعصية، وهذا لا يفرق فيه الحال بين معصية ومعصية، فإن ملكاً مطاعاً عظيماً لو أمر أحد مملوكيه أن يذهب في مهمة له إلى بلد بعيد، وأمر آخر أن يذهب في شغل له إلى جانب الدار، فعصاه وخالفأ أمره لكانا في مقتله والسقوط من عينه سواء .

قالوا: ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة ومن ترك الجمعة وهو جار المسجد، أقبح عند الله من معصية من ترك من المكان البعيد، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا، ولو كان مع رجل مائتا درهم ومنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف ألف فمنع زكاتها لاستويا في منع ما وجب على كل واحد منهما، ولا يبعد استواءهما في العقوبة، إذا كان كل منهما مصرّاً على منع زكاة ماله، قليلاً كان المال أو كثيراً .

[الحق في المسألة]

وكشف الغطاء عن هذه المسألة أن يقال:

إن الله - عز وجل - أرسل رسله، وأنزل كتبه، وخلق السموات والأرض ليعرف ويعبد ويوحّد ويكون الدين كله لله، والطاعة كلها له، والدعوة له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكُكْبَةَ الْيُبْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧].

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والامر أن يعرف بأسمائه وصفاته، ويعبد وحده لا يشرك به، وأن يقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥].

فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات.

فتأمل هذا الأصل حق التأمل، واعتبر تفاصيله، تعرف به حكمة أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي. فلما كان الشرك بالله منافياً بالذات لهذا المقصود كان من أكبر الكبائر على الإطلاق، وحرّم الله الجنة على كل مشرك، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد، وأن يتخذوهم عبيداً لهم لما تركوا القيام بعبوديته، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملاً، أو يقبل فيه شفاعاة أو يستجيب له في الآخرة دعوة، أو يقبل له فيها عثرة، فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه نداءً وذلك غاية الجهل به. كما أنه غاية الظلم منه، وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه.

[شرك الوساطة والشفعاء]

* ووقعت مسألة وهي: أن المشرك إنما قصده تعظيم جناب الرب تبارك وتعالى ، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء ، كحال الملوك . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه . وقال : وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدخلني عليه ، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء ، فلم كان هذا القدر موجباً لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ، ومخلداً في النار ، وموجباً لسفك دماء أصحابه ، واستباحة حريمهم وأموالهم ؟ .

وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو : أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع ، أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمنع أن تأتي به شريعة ؟ بل جاءت الشرائع بتقرير ما في الفطر والعقول من قبحه الذي هو أقبح من كل قبيح ؟ وما السر في كونه لا يغفره من بين سائر الذنوب ؟ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] . فتأمل هذا السؤال ، واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه ؛ فإنه به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين ، والعالمين بالله والجاهلين به ، وأهل الجنة وأهل النار .

نوعا الشرك :

فنقول : وبالله التوفيق والتأييد ، ومنه نسأل المعونة والتسديد ، فإنه من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

الشرك شركان : شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك في عبادته ومعاملته ، وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

والشرك الأول نوعان :

أحدهما : شرك التعطيل ، وهو أقبح أنواع الشرك ، كشرك فرعون ؛ إذ قال : ﴿ وَمَا

رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ [الشعراء: ٢٣]، وقال تعالى مخبراً عنه أنه قال لهامان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ ﴿٣٦﴾ أسباب السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴿٣٧﴾ [غافر: ٣٦ - ٣٧]. والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه عطل حق التوحيد.

التعطيل:

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها، هو التعطيل، وهو ثلاثة أقسام: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله. وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد. ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خالق ومخلوق ولا هاهنا شيان، بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوماً أصلاً، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائل اقتضت إيجادها، ويسمونها بالعقول والنفوس، ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة، فلم يشبوا له اسماً ولا صفة، بل جعلوا المخلوق أكمل منه، إذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها.

[شرك من جعل مع الله إلهاً آخر]

* النوع الثاني: شرك من جعل مع الله إلهاً آخر ولم يعطل أسمائه وصفاته وربوبيته كشرك النصارى الذين جعلوه ثلاثة، فجعلوا المسيح إلهاً، وأمه إلهاً. ومن هذا شرك المجوس القائلين بإستاد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة الله، وقدرته، وإرادته، ولهذا كانوا أشباه المجوس.

ومن هذا الشرك - [شرك] - ^(١) الذى حاج إبراهيم فى ربه : ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ
الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] . فهذا جعل نفسه ندأ لله ،
يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر
على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأتى بها الله منها ، وليس هذا انتقالاً كما
زعم بعض أهل الجدل ، بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً .

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر
هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم . ومن هذا شرك عباد الشمس
وعباد النار وغيرهم . ومن هؤلاء من يزعم أن معبوده هو الإله على الحقيقة ، ومنهم
من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم أنه إله من جملة الآلهة ، وأنه إذا خصه
بعبوديته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم أنه معبوده
الأدنى يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه ، والفوقانى يقربه إلى من هو فوقه ، حتى يقربه
تلك الآلهة إلى الله سبحانه وتعالى ، فئارة تكثر الآلهة والوسائط وتارة تقل .

[الشرك فى العبادة]

* وأما الشرك فى العبادة فهو أسهل من هذا الشرك ، وأخف أمراً ، فإنه يصدر ممن
يعتقد أنه لا إله إلا الله ، وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وأنه لا
إله غيره ، ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص الله فى معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ
نفسه تارة ، ولطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة ، فله من
عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق
نصيب ، وهذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن
حبان فى «صحيحه» : «الشرك فى هذه الأمة أخف من ديب النمل» قالوا : كيف
تنجو منه يا رسول الله ؟ قال : «قل : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ،
وأستغفرك لما لا أعلم» ^(٢) .

(١) زيادة أثبتها لإيضاح المراد .

(٢) حديث حسن : أخرجه أحمد (٤ / ٤٠٣) من حديث أبى موسى الأشعرى ، وحسنه الألبانى فى

«صحيح الترغيب» (٣٣) .

فالرياء كله شرك ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ ۝١١٠ ﴾ [الكهف: ١١٠]. أى : كما أنه إله واحد، ولا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء، المقيد بالسنة.

وكان من دعاء عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : «اللهم اجعل عملى كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل، وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجباً، فإنه ينزل منزلة من لم يعمله، فيعاقب على ترك الأمر، فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥]. فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذى أتى به شىء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه، ويقول الله : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك معى فيه غيبرى، فهو للذى أشرك به وأنا منه برىء»^(١).

أقسام الشرك:

* وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور، وأكبر وأصغر، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شىء منه مغفور، فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم أن يحب مخلوقاً كما يحب الله، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وقال أصحاب هذا الشرك لألهتهم وقد جمعهم الجحيم : ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفَى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٩٨ ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣٠١/٢)، ومسلم (٢٢٣/٨) بنحوه، وابن خزيمة (٩٣٨)، وابن ماجه

(٢٠٢/٤٢). وصححه الألبانى فى «صحيح الترغيب» (٣١).

ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والملك، والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع له والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغنى بالذات، القادر بالذات، الذي غناه، وقدرته، وملكه، وجوده، وإحسانه، وعلمه، ورحمته، وكماله المطلق النام من لوازم ذاته؟

فأى ظلم أقبح من هذا؟ وأى حكم أشد جوراً منه؟ حيث عدل من لا عدل له بخلقه كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) [الأنعام: ١]. فعدل المشرك من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض. فيا لك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه!!

[الشرك في الأفعال والأقوال والإرادات والنيات]

* ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الأفعال، والأقوال، والإرادات، والنيات، فالشرك في الأفعال السجود لغيره، والطواف بغير بيته، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً لغيره، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمينه في الأرض^(١). وتقبيل القبور واستلامها، والسجود لها، وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها، فكيف بمن اتخذ القبور أوثاناً يعبدونها من دون الله؟

ففي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

وفي «الصحيح» عنه: «إن من شرار الناس من تدرَكهم الساعة وهم أحياء والذين

(١) حديث ضعيف: ضعفه الألباني في «الضعيفة» (٢٢٣).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٣٣٠)، ومسلم (٥٢٩).

يتخذون القبور مساجد»^(١).

وفى «الصحيح» أيضاً عنه : «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»^(٢).

وفى «مسند الإمام أحمد» - رضى الله عنه - ، و«صحيح ابن حبان» عنه رحمهما الله قال : «لعن الله زوارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج»^(٣).

وقال : «اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٤).

وقال : «إن من كان قبلكم كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرارُ الخلق عند الله يوم القيامة»^(٥).

فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر نفسه.

وقد قال النبى ﷺ : «اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد»^(٦).

وقد حمى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية، حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ؛ لئلا يكون ذريعة إلى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين. وسد الذريعة بأن منع من الصلاة بعد العصر والصبح لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس.

أما السجود لغير الله فقال : «لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد إلا الله»^(٧).

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى تعليقا (٦٧-٧)، وأحمد (٤٣٥/١)، وصححه الألبانى فى «تحذير الساجد» (١٢)، والشيخ أحمد شاكر فى تعليقه على «المسند» (٣٨٤٤)، وأخرجه مسلم (٢٩٥٠) مختصراً.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٥٣٢).

(٣) حديث صحيح إلا الفقرة الأخيرة: وقد سبق تخريجه.

(٤) حديث مرسل: أخرجه مالك فى «الموطأ» (١٢٢/١)، وصححه الألبانى مرسلأ «تحذير الساجد» ص ١٨، ١٩.

(٥) حديث صحيح: أخرجه البخارى (١٣٤١)، ومسلم (٥٢٨).

(٦) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢/٢٤٦)، وصححه الألبانى فى «تحذير الساجد» (١١).

(٧) حديث حسن صحيح: أخرجه الترمذى (١١٥٩)، وابن ماجه (١٨٥٣)، وصححه الألبانى فى «صحيحى ابن ماجه والترمذى».

«لا ينبغي» في كلام الله ورسوله ﷺ الذي هو في غاية الامتناع شرعاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلِداً﴾ (٩٢) [مريم: ٩٢]. وقوله: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]. وقوله: ﴿وَمَا تَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢١٠) [الشعراء: ٢١٠ - ٢١١]. وقوله: ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

[الشرك في اللفظ]

* ومن الشرك به سبحانه الشرك به في اللفظ، كالحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه ﷺ أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»^(١). صححه الحاكم وابن حبان.

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نداً؟ قل: ما شاء الله وحده»^(٢). هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨). فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت في الأرض، أو يقول: والله وحياة فلان، أو يقول: نذراً لله ولفلان، أو أنا تائب لله ولفلان، أو أرجو الله وفلاتاً، ونحو ذلك.

فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت، ثم انظر أيهما أفحش، يتبين لك أن قائلها أولى بجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة، وأنه إذا كان قد جعل لله نداً بها، فهذا قد جعل من لا يداني رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٨٧، ١٢٥)، وأبو داود (٣٢٥١). وصححه الألباني في «صحيح أبي داود». و«صحيح الجامع» (٦٠٨٠)، وأخرجه الحاكم (٤/ ٢٩٧).

(٢) حديث حسن: أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، وابن ماجه (٢١١٧). وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

- بل لعله أن يكون له من أعدائه - ندًا لرب العالمين، فالسجود والعبادة، والتوكل والإنابة، والتقوى والخشية، والحسب، والتوبة، والنذر، والخلف، والتسبيح والتكبير، والتهليل والتحميد والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والطواف بالبيت، والدعاء كل ذلك محض حق الله الذي لا يصلح ولا ينبغي لسواه، من ملك مقرب ولا نبي مرسل.

وفي «مسند الإمام أحمد»: «أن رجلاً أتى به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبًا، فلما وقف بين يديه قال: اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال: «قد عرف الحق لأهله»^(١).

[الشرك في الإرادات والنيات]

* وأما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته.

والإخلاص: أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته، وهذه هي الحقيقة ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد غيرها، وهي حقيقة الإسلام: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥) [آل عمران: ٨٥]. وهي ملة إبراهيم التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء.

[شرك تشبيه الخالق سبحانه بالمخلوق]

* إذا عرفت هذه المقدمة انفتح لك الجواب عن السؤال المذكور، فنقول، ومن الله وحده نسند الصواب:

حقيقة الشرك:

هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة، لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله، فعكس الأمر من نكس

(١) حديث ضعيف؛ أخرجه أحمد (٤٣٥ / ٣). ضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٧٠٧).

الله قلبه، وأعمى بصيرته، وأركسه بكسبه، وجعل التوحيد تشبيهاً، والتشبيه تعظيماً، وطاعة. فالمشرك مشبه للمخلوق في خصائص الإلهية.

فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق، وجعل ما لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً - فضلاً عن غيره - شبيهاً لمن له الأمر كله، فأزمة الأسور كلها بيديه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها أحد، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد.

فمن أقبح التشبيه: تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنى بالذات، ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال والخشية والدعاء والرجاء والإنابة والتوبة والتوكل، والاستعانة، وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون له وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئاً من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة.

ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين.

فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تحيى به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتهم عليهم، واجتالتهم^(١) عنها،

(١) اجتالتهم الشياطين: أى: استخففتهم وركبتهم وحالت بهم حيث شاءت من السفه والضلال فجالوا معهم وبعادوا عن الفطرة السليمة

ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك تورا على نور. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥] إذا عرف هذا فمن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به.

ومنها: التوكل، فمن توكل على غيره فقد شبهه به.

ومنها: التوبة، فمن تاب لغيره فقد شبهه به.

ومنها: الحلف باسمه تعظيماً وإجلالاً له، فمن حلف بغيره فقد شبهه به، هذا في جانب التشبيه.

* وأما في جانب التشبه به: فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاءاً والتجاءً واستعانة، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيقى بأن يهينه الله غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه.

وفي «الصحيح» عنه ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: العظمة إزارى، والكبرياء ردائى، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتُهُ»^(١).

وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصورة، فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والإلهية؟

كما قال النبى ﷺ: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة المصورُّون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتُم»^(٢).

وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب بخلق خلقاً كخلقى، فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»^(٣) فنبه بالذرة والشعيرة على

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٩٠-٩٤)، وابن ماجه (٤١٧٤). صححه الألبانى في «صحيح السنن».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨).

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).

ما هو أعظم منها وأكبر .

❖ والمقصود : أن هذا حال من تشبه به فى صنعة صورة ، فكيف حال من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته ؟! وكذلك من تشبه فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له وحده ، كملك الملوك ، وحاكم الحكام ونحوه .

وقد ثبت فى «الصحيح» عن النبى ﷺ أنه قال : « إن أخنع الأسماء ^(١) عند الله : رجل يسمى بشاهان شاه - أى ملك الملوك - لا ملك إلا الله » وفى لفظ «أغيظ رجل على الله : رجل يسمى بملك الأملاك» ^(٢) .

فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ، ويقضى عليهم لا غيره .

[سوء الظن بالله]

إذا تبين هذا فهأنا أصل عظيم يكشف سر المسألة، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كماله المقدس ، وظن به ما يناقض أسمائه وصفاته ولهذا توعده الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٦) . [الفتح : ٦] . وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢٣) . [فصلت : ٢٣] . قال تعالى عن خليله إبراهيم أنه قال لقومه : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٨٥) . ﴿ أَتُنْفِكَ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (٨٦) . ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٧) . [الصافات : ٨٥ - ٨٧] .

أى فما ظنكم أن يجازيكم به إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وما ظننتم به حتى عبدتم معه غيره ؟ وما ظننتم بأسمائه وصفاته وربوبيته من النقص حتى أحوجكم

(١) أخنع الأسماء: أى أذلها وأوضعها وأحقرها.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٠٦٠ - ٦٢٠٠)، ومسلم (٢١٤٣).

ذلك إلى عبودية غيره ؟ فلو ظننتم به ما هو أهله من أنه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وأنه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المنفرد بتدبير خلقه لا يشركه فيه غيره ، والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه ، والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته ، فلا يحتاج فى رحمته إلى من يستعطفه .

وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء ، فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم ، وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم ، وإلى من يسترحمهم ، ويستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم ، وقصور علمهم .

فأما القادر على كل شيء ، الغنى بذاته عن كل شيء ، العالم بكل شيء ، الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه تنقص بحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده ، وظن به ظن سوء ، وهذا يستحيل أن يشرعه لعباده ، ويمتنع فى العقول والفطر جوازه ، وقبحه مستقر فى العقول السليمة فوق كل قبيح . ويوضح هذا أن العابد معظم لمعبوده ، مثاله له خاضع ذليل له ، والرب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم ، والإجلال والتأله والخضوع والذل .

وهذا خالص حقه ، فمن أقبح الظلم أن يعطى حقه لغيره ، أو يشرك بينه وبينه فيه ، ولا سيما إذا كان الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه ، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم : ٢٨] .

أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكه فى رزقه ، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا منفرد به ، وهو الإلهية التى لا تنبغى لغيرى ولا تصح لسواى ؟ . فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمنى حق تعظيمى ولا أفردنى بما أنا مفرد به وحدى دون خلقى ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْزِدُوهُ مِنْهُ ضَعْفُ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤].

فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره ممن لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وإن سلبه الذباب شيئاً مما عليه لم يقدر على استنقاذه منه قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧].

فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه ، فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الدليل .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتابا ، بل نسيه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى ، وخلقهم باطلاً وعبثاً .

ولا قدره حق قدره من نفى حقائق أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه ، وكلامه ، وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ، أو نفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته ومشيته وخلقهم وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون في ملكه ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون ، تعالى الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً .

وكذلك ما قدره حق قدره من قال : إنه يعاقب عبده على ما لا يفعله العبد ، ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، هو سبحانه الذى جبر العبد عليه ، وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول أن السيد لو أكره عبده على فعل أو الجاء إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً ، فأعدل العادلين وأحكم

لحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ، ولا هو واقع بإرادته ، بل ولا هو فعله البتة ، ثم يعاقب عليه عقوبة الأبد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وقول هؤلاء شر من أقوال المجوس ، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره .

وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش^(١) ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله في كل مكان ، صانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر : ١٠] .

وتعرج الملائكة والروح إليه ، وتنزل من عنده : ﴿يَدَبُرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة : ٥] .

فصانه عن استوائه على سرير الملك ، ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان ، بل غيره من الحيوان ، أن يكون فيه .

وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورافته ورضاه وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة فعله ، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به ، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه ، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه واستوائه على عرشه ، وتكليمه موسى من جانب الطور ، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله ، التي نفوها ، وزعموا أنهم بنقيها قد قدروه حق قدره .

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبةً وولداً ، أو جعله سبحانه يحل في مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود .

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : أنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم ، وجعل فيهم الملك والخلافة والعز ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته ، وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذلة أينما ثقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح في

(١) الحش : بيت الخلاء الذي تقضى فيه الحاجة «الكثيف» .

جناب الرب ، تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا .

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى فى رب العالمين : أنه أرسل ملكاً ظالماً فادعى النبوة لنفسه ، وكذب على الله ، ومكث رمناً طويلاً يكذب عليه كل وقت ، ويقول : قال الله كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا ، ينسخ شرائع أنبياء ورسله ، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم ، ويقول : الله أباح لى ذلك والرب تعالى يظهره ويزيده ويعليه ، ويعزه ويجيب دعواته ، ويمكنه ممن خالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره ، ويحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء .

ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى ، وفى علمه وحكمته ورحمته وربوبيته ، تعالى الله عن قول الجاحدين علواً كبيراً .
فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر :

رضيى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا تتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال : إنه يجوز أن يعذب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الجحيم ، وينعم أعداءه ومن لم يؤمن به طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وأن كلا الأمرين بالنسبة إليه سواء ، وإنما الخير المحض جاء عنه بخلاف ذلك ، فمعناه للخير لا لمخالفة حكمته وعدله ، وقد أنكر سبحانه فى كتابه على من جور عليه ذلك غاية الإنكار ، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام .

قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ (٢٧) أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المسكين كالفجار ﴾ (٢٨) [ص : ٢٧ - ٢٨] .

وقال : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (٢١) ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق ولنجرى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٢٢) [الجاثية : ٢١ - ٢٢] .

وقال : ﴿ أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ ٣٦ ﴾ [القلم : ٣٥ - ٣٦] .

وكذلك لم يقدره حق قدره من يزعم أنه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث من فى قبور ، ولا يجمع خلقه ليوم يجازى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، رياخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين للمشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلق الله الذين يختلفون فيه ، ويعلم لذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه ، وكان هواه أثر عنده من طلب رضاه ، وطاعة المخلوق أهم من طاعته ، فله الفضلة من قلبه وقوله وعمله ، هواه المقدم فى ذلك لأنه المهم عنده ، يستخف بنظر الله إليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستحى من الناس ولا يستحى من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما يقدر عليه ، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه ، وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه - إن ساعد القدر - قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحى أن يواجه به مخلوقاً مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ؟ .

وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الإجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً فى ذلك ، لكان ذلك جرأة وتوثباً على محض حقه واستهانة به وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغى ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما شرك بينه وبين أبغض الخلق ، وأهونهم عليه ، وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا سَيِّدِ ادم أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٦٠) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [يس : ٦٠ - ٦١] .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم فى نفس الأمر للشياطين ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ - ٤١] ، فالشيطان يدعو المشرك إلى عبادته ، ويوهمه أنه ملك ، كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب ، وهى التى تخاطبهم ، وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان ، فيسجد لها الكافر ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ، ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم ، لا عبد الله ولا رسوله ﷺ .

فتزل هذا كله على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ - وأن اعبدوني هذا صراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿ [يس : ٦٠ - ٦١] ، فما عبد أحد من بنى آدم غير الله - كائنا ما كان - إلا وقعت عبادته للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول غرضه ، ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له ، وإشراكه مع الله الذى هو غاية رضا الشيطان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ ، أى من إغوائهم وإضلالهم : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه ، وأنه يوجب الخلود فى العذاب ، وأنه ليس تحريره وقبحه بمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده عبادة إله غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله ، وكيف يُظن بالمتفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والجلال أن يأذن فى مشاركته فى ذلك ، أو يرضى به ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً

[الشرك والكبر]

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق ، وأمر لأجله بالأمر ، كان من أكبر الكبائر عند الله .

وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم فإن الله سبحانه خلق الخلق ، وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده ، الشرك والكبر ينافيان ذلك .

والمثل ذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ، فلا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر .

[القول على الله بغير علم]

ويلي ذلك في كبر المفسدة : القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، فهذا أشد شيء مناقضة ومنافاة لكمال الخلق والأمر ، وقدح في نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم إثماً عند الله .

فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما أن من أقر الملك بالملك ، ولم يجحد ملكه ولا الصفات التي استحق بها الملك ، لكن جعل منه شريكاً في بعض الأمور ويقربه إليه - خير ممن جحد صفات الملك ، وما يكون به ملكاً ، وهذا أمر مستقر في سائر الفطر والعقول .

فأين القدح في صفات الكمال والجحد لها من عبادة واسطة بين المعبود الحق وبين العابدين يتقرب إليه بعبادة تلك الواسطة إعظاماً له وإجلالاً ؟ .

فداء التعطيل ، هذا الداء العضال الذي لا دواء له ، ولهذا حكى الله عن إمام المعطلة فرعون أنه أنكر على موسى ما أخبر به من أن ربه فوق السموات فقال : ﴿ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ (٣٦) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴿ [غافر: ٣٦ - ٣٧] .

واحتج الشيخ أبو الحسن الأشعري في كتبه على المعطلة بهذه الآية .

وقد ذكرنا لفظه في غير هذا الكتاب ، والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان .
ولما كانت البدع المضلة جهلاً بصفات الله وتكذيباً بما أخبر به عن نفسه وأخبر به
عنه رسوله ﷺ عناداً وجهلاً كانت من أكبر الكبائر ، وإن قصرت عن الكفر ، وكانت
أحب إلى إبليس من كبائر الذنوب .

كما قال بعض السلف « البدعة أحب إلى إبليس من المعصية » لأن المعصية يتاب
منها والبدعة لا يتاب منها .

وقال إبليس : « أَهْلَكْتَ بَنِي آدَمَ الذَّنُوبَ ، وَأَهْلَكُونِي بِالْأَسْتِغْفَارِ ، وَبِلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ،
فَلَمَّا رَأَيْتَ ذَلِكَ بَشْتٌ فِيهِمُ الْأَهْوَاءُ ، فَهُمْ يَذْنُبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ ، لِأَنَّهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ
يَحْسِنُونَ صَنْعًا » .

ومعلوم أن المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ،
وفتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة المذنب في الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس
على صراط الله المستقيم يصدّهم عنه ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع قاذح في
أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق
الآخرة ، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه .

[الظلم والعدوان]

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي قامت به السموات والأرض ،
وأرسل الله سبحانه رسوله - عليهم الصلاة والسلام - وأنزل كتبه ليقوم الناس به كان
من أكبر الكبائر عند الله ، وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه ،
وكان قتل الإنسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له ، وقد جبل الله سبحانه
القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه ، وخص الوالدين من ذلك بمزية
ظاهرة ، وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشدّه ،
وكذلك قتله أبويه الذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذا رحمه ، وتفاوت
درجات القتل بحسب قبحة واستحقاق من قتله السعى في إبقائه ونصيحته ، ولهذا
كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً أو قتله نبى .

ويليه من قتل إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط ، ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم في دينهم ، وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمداً الخلود في النار ، وغضب الجبار ، ولعنته وإعداد العذاب العظيم له ، هذا موجب قتل المؤمن عمداً ما لم يمنع منه مانع ، ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعاً واختياراً مانع من نفوذ ذلك الجزاء .

وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه ؟ فيه قولان للسلف والخلف ، وهما روايتان عن أحمد .

توبة القاتل :

* والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا أنه -حق لأدمى لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منها بظلامته ، فلا بد أن يستوفى في دار العدل .

قالوا : فما استوفاه الوارث إنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه ، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ، وأى استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه ؟ . وهذا أصح القولين في المسألة : وأن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعي وغيرهما .

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها والذنب الذي جناه قد أقيم عليه حده .

قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثماً من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ؟ وقد قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنهم عن دينهم إلى التوبة وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] فهذه في حق التائب ، وهي تتناول الكفر وما دونه .

قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع الله وجزائه .

قالوا : وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول ، فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول ، بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث .

والتحقيق فى المسألة : أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق ، حق لله ، وحق للمظلوم المقتول ، وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعاً واختياراً إلى الولى ندماً على ما فعل ، وخوفاً من الله وتوبة نصوحاً سقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو ، وبقي حق المقتول يعرضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ، ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ، ولا تبطل توبة هذا .

التوبة من الحقوق المالية:

* وأما مسألة المال فقد اختلف فيها .

فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من المال إلى الوارث برئ من عهده فى الآخرة ، كما برئ منها فى الدنيا .

وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، ولو لم يستدرك ظلامته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه بل طول حياته ، ومات ولم يتففع به وهذا ظلم لم يستدركه ، وإنما يتففع غيره باستدراكه ، وبنوا على هذا أنه لو انتقل المال من واحد إلى واحد وتعدد الورثة ، كانت المطالبة به للجميع ، لأنه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث ، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد .

وفصل شيخنا - رحمه الله - بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من أخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذه حتى مات ، صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه وأخذه ، بل حال بينه وبينه ظلماً وعدواناً ، فالطلب له فى الآخرة .

وهذا التفصيل من أحسن ما يقال ، فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل ، وداره التى أحرقها غيره وطعامه

وشرايه الذى أكله وشربه غيره ، ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث ، فحق المطالبة لمن تلف على ملكه ، ويبقى أن يقال : فإذا كان المال عقاراً أو أرضاً أو أعياناً قائمة باقية بعد الموت ، فهى ملك الوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، فإذا لم يدفع إليه أعيان ماله استحق المطالبة بها عند الله تعالى ، كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا .

وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال : المطالبة لهما جميعاً ، كما لو غصب مالا مشتركاً بين جماعة استحق كل منهم المطالبة لحقه منه ، كما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه ، كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ، ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض ، والله أعلم .

[جريمة القتل]

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقالوا : معلوم أن إثم قاتل مائة أعظم عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوه من ظنهم أن التشبيه فى مقدار الإثم والعقوبة ، واللفظ لم يدل على هذا ، ولا يلزم من تشبيه الشيء بالشيء أخذه بجميع أحكامه ، وقد قال تعالى : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] . وقال تعالى : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾ [الاحقاف : ٣٥] .

وذلك لا يوجب أن لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار ، وقد قال النبى ﷺ : «من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله»^(١) أى مع العشاء ، كما جاء فى لفظ آخر ، وأصرح من هذا

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٦٨/١)، ومسلم (٦٥٦)، وأبو داود (٥٥٥)، والترمذى (٢٢١).

قوله : «من صام رمضان وأتبعه ستاً من شوال فكأنما صام الدهر»^(١) وقوله ﷺ : «من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن»^(٢) ومعلوم أن ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به فيكون قدرهما سواء ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي العشاء والفجر في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتي أحد بعد الإيمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء .

فإن قيل : ففي أى شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعاً ؟
 قيل في وجوه متعددة :

أحدها : أن كلاهما عاص لله ورسوله ﷺ مخالف لأمره ، متعرض لعقوبته ، وكل منهما قد باء بغضب الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم ، وإعداد له عذاباً عظيماً ، وإنما التفاوت في دركات العذاب ، فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كإثم من قتل من لا مزية له من آحاد الناس .
 الثاني : أنهما سواء لاستحقاق إزهاق النفس .

الثالث : أنهما سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام ، فإن من قتل نفساً بغير استحقاق ، بل لمجرد الفساد في الأرض ، أو لأخذ ماله ، فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وأمكنه قتله ، فهو معاد للنوع الإنساني .
 ومنها : أنه يسمى قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً ، كما يسمى كذلك بقتله الناس جميعاً .

ومنها : أن الله سبحانه « جعل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر » فإذا أتلّف القاتل من هذا الجسد عضواً فكأنما أتلّف سائر الجسد ، وألم جميع أعضائه ، فمن آذى

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١١٦٤)، وأبو داود (٢٤٣٣)، والترمذي (٧٥٩)، وابن ماجه (١٧١٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١٤١/٥)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٤٩).

مؤمنًا واحدًا فكأنما آذى جميع المؤمنين ، وفى آذى جميع المؤمنين آذى جميع الناس ، فإن الله يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم ، فإيذاء الخفير إيذاء المخفور ، وقد قال النبى ﷺ « لا تقتل نفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سنَّ القتل »^(١) .

ولم يجرىء هذا الوعيد فى أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر ، وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبى ﷺ عمرو بن لحي الخزاعى يعذب بأعظم العذاب فى النار ، لأنه أول من غير دين إبراهيم عليه السلام^(٢) ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ [البقرة: ٤١] .

أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم ، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفى «جامع الترمذى» عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : «يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ، ناصيته ورأسه بيده ، وأوداجه تشخب دمًا يقول : يا رب ، سل هذا : فيم قتلنى ؟ فذكروا لابن عباس التوبة ، فتلا هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ثم قال : ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة؟^(٣) قال الترمذى : هذا حديث حسن . وفيه أيضاً عن نافع قال : نظر عبد الله ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمنون عند الله أعظم حرمة منك»^(٤) . هذا حديث حسن ، وفى «صحيح البخارى» عن سمرة بن جندب قال : «إن أول ما يفتن من الإنسان بطنه ، فمن استطاع منكم أن لا يأكل إلا طيباً

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٨٦٧)، ومسلم (١٦٧٧) .

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٣٥٢١)، ومسلم (٣٨٥٦) .

(٣) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٢٢/١)، والبخارى (٤٧٦٢) مختصراً، والنسائى (٧/ ٨٥) .

(٨٧)، والترمذى (٣٠٢٩) . وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى والنسائى» .

(٤) حديث حسن صحيح: أخرجه الترمذى (٢٠٣٢) . وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» .

فليفعل ، ومن استطاع أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل^(١) وفى «صحيح البخارى» أيضا عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً»^(٢) ، وذكر البخارى أيضا عن ابن عمر قال : «إن من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»^(٣) .

وفى «الصحيحين» عن أبى هريرة يرفعه «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»^(٤) .
وفيهما أيضا عنه ﷺ : «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٥) .
وفى «صحيح البخارى» عنه ﷺ : «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»^(٦) هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهداً فى عهده وأمانه ، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن ؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعاً وعطشاً، فرأها النبى ﷺ فى النار والهرة تخذشها فى وجهها وصدرها^(٧) ، فكيف عقوبة من حبس مؤمناً حتى مات بغير جرم وفى بعض السنن عنه ﷺ «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق»^(٨)

[جريمة الزنى]

* ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المقاسد ، وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب ، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة

- (١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٧١٥٢).
- (٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٨٦٢).
- (٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٨٦٣).
- (٤) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٠٤٤)، ومسلم (٦٤) وأحمد (١/ ٣٨٥)، والنسائى (١٢٢/٧)، وابن ماجه (٣٩٣٩) عن ابن مسعود، ورواه ابن ماجه عن أبى هريرة (٣٩٤٠).
- (٥) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦)، والنسائى (١٢٦/٧) عن ابن عمر.
- (٦) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٣١٦٦)، وابن ماجه (٢٦٨٦)، والنسائى (٢٥/٨١) بنحوه.
- (٧) حديث صحيح: سبق تخريجه.
- (٨) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (١٣٩٥)، وابن ماجه (٢٦١٩)، والنسائى (٧/ ٨٢، ٨٣) وصححه الألبانى فى «صحيح السنن» و«صحيح الجامع» (٩٤٥٤).

والبغضاء بين الناس ، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه ، وفى ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ، ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه ، ورسوله ﷺ فى سننه كما تقدم .

قال الإمام أحمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئاً أعظم من الزنى ، وقد أكد سبحانه حرمة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۖ إِلَّا مَنْ تَابَ ۖ ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] .

فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس ، وجعل جزاء ذلك الخلود فى العذاب المضاعف ، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ ﴾ [الإسراء : ٣٢] .

فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه فى العقول ، حتى عند كثير من الحيوانات ، كما ذكر البخارى فى «صحيحه» عن عمرو ابن ميمون الأودى قال : « رأيت فى الجاهلية قرداً زنى بقردة ، فاجتمع القروء عليهما فرجموهما حتى ماتا »^(١) ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلاً ، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا ، وعذاب وخزى ونكال فى الآخرة ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۖ ﴾ [النساء : ٣٢] .

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه ، فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ (٧) ﴾ [المؤمنون : ١ - ٧] .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (٣٨٤٩) .

الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ، ووقع في اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك .

وتظير هذا أنه سبحانه ذم الإنسان وأنه خلق هلوغاً لا يصبر على سراء ولا ضراء ، بل إذا مسه الخير منع ويخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر منهم : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ (٢٩) **إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ** أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿ ٣١ ﴾ فمن اتقى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴿ [المعارج : ٢٩ - ٣١] .

فأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم ، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدماً على حفظ الفرج فإن الحوادث مبدؤها من البصر ، كما أن معظم النار مبدؤها من مستنصر الشر ، فتكون نظرة ، ثم خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة ، ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه ، اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات .

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ، ويلزم الرباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ، ويتبر ما علا تنبيراً .

[مداخل المعاصي]

• وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة ، فنذكر في كل باب منها فصلاً يليق به .
مدخل النظرة :

• فأما اللحظات فهي رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج ، فمن أطلق بصره أورد نفسه موارد المهلكات .

وقال النبي ﷺ « لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى ، وليست لك الآخرة »^(١) .

(١) حديث حسن : أخرجه أحمد (٣٥١/٥) ، وأبو داود (٢١٢٩) ، والترمذي (٢٧٧٧) . حقه الألباني في «صحيح أبي داود والترمذي» .

وفى «المسند» عنه عليه السلام « النظره سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة لله أورث الله قلبه حلاوة إلى يوم يلقاه» ^(١). هذا معنى الحديث، وقال: «غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم» ^(٢).

وقال: «إياكم والجلوس على الطرقات»، قالوا يا رسول الله مجالسنا ما لنا بد منها، قال: «فإن كنتم لابد فاعلين، فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حقه؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام» ^(٣).

والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع، وفى هذا قيل: «الصبر على غض البصر يسر من الصبر على ألم ما بعده» وقال الشاعر:

كل الحوادث مبدأها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت قلب صاحبها	كمبلغ السهم بين القوس والوتر؟
والعبد ما دام ذا طرف يقلبه	فى أعين الغير موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته	لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

ومن آفات النظر: أنه يورث الحشرات والزفريات والخرقات، فيرى العبد ما ليس قادراً عليه ولا صابراً عنه، وهذا من أعظم العذاب، أن ترى ما لا صبر لك عن بعضه، ولا قدرة على بعضه، قال الشاعر:

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً	لقلبك يوماً، أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر	عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وهذا البيت يحتاج إلى شرح، ومراده: أنك ترى ما لا تصبر عن شيء منه ولا

(١) حديث ضعيف: ضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (١٠٦٥). وفى «ضعيف الجامع» (٥٢٢٥).

(٢) حديث حسن: أخرجه أحمد (٣٢٣ / ٥). وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٢٩).
و«الصحيحة» (١٤٧).

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٢٤٦٥)، ومسلم (٢١٢١) عن أبى سعيد.

تقدر عليه ، فإن قوله : « لا كله أنت قادر عليه » نفى لقدرته على الكل الذى لا ينفى إلا بنفى القدرة عن كل واحد واحد .

وكم من أرسل لحظاته فما أقلعت إلا وهو يتشطح بينهن قتيلا ، كما قيل :

يا ناظرا ، ما أقلعت لحظاته حتى تشحط بينهن قتيلا
ولى من أبيات :

مل السلامة فاغندت لحظاته وقفًا على طلل يظن جميلا

ما زال يتبع أثره لحظاته حتى تشحط بينهن قتيلا

ومن العجب : أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه ، حتى يتبوا مكانًا من قلب الناظر ، ولى من قصيدة :

يا راميا بسهام اللحظ مجتهدًا أنت القليل بما ترمى ، فلا نصب

يا باعث الطرف يرناد الشفاء له احبس رسولك ، لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك : أن النظرة ترحق القلب جرحًا ، فيتبعها جرحًا على جرح ، لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها ، ولى أيضا فى هذا المعنى :

ما زلت تتبع نظرة فى نظرة فى أثر كل مليحة ومليح

وتظن ذاك دواء جرحك وهو فى التحقيق تجريح على تجريح

فذهبت طرفك باللحظ وبالبكا فالقلب منك ذبيح أى ذبيح

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

[مدخل الخطرات]

❖ وأما الخطرات : فشانها أصعب ، فإنها مبدأ الخير والشر ، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب ، ومن استهان بالخطرات قاده قهرا إلى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيْعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ

فوفاه حسابه والله سريع الحساب [النور: ٣٩] وأخس الناس همة وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالآمانى الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها ، وهى لعمر الله رءوس أموال المنلسين ومتاجر البطالين ، وهو قوت النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصول بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال ، كما قال الشاعر :

أمانى من سعدى رواء على الظما سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا
مضى إن تكن حقا تكن أحسن المضى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وهى أفسر شىء على الإنسان ، ويتولد منها العجز والكسل ، وتولد التفريط والحسرة والندم ، والمتمنى لما فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حول صورتها فى قلبه ، وعالماً بما وضمها إليه ، فتنع بوصول صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يرضى عليه شيئاً ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور فى وهمه صورة الطعام الشراب ، وهو لا يأكل ولا يشرب ، والسكون إلى ذلك واستجلابه يدل على خسارة النفس ووضاعتها ، وإنما شرف النفس وزكاؤها ، وطهارتها وعلوها بأن ينفى عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا يرضى أن يخطر بها بباله ويأنف لنفسه منها .

ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول :

خطرات يستجلب بها منافع دنياء .

وخطرات يستدفع بها مضار دنياء .

وخطرات يستجلب بها مصالح آخرة .

وخطرات يستدفع بها مضار آخرة .

فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه فى هذه الأقسام الأربعة ، فإذا انحصرت له فيها أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره ، وإذا تراخمت عليه الخطرات لتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى فوته ، وآخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته .

بقي قسمان آخران .

أحدهما : مهم لا يفوت .

والثاني : غير مهم ولكنه يفوت .

ففى كل منهما ما يدعو إلى تقديمه ، فهنا يقع التردد والحيرة ، فإن قدم المهم خشى فوات ما دونه ، وإن قدم ما دونه فاته الاشتغال به عن المهم ، وكذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر .

فهذا موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن ههنا ارتفع من ارتفع ، وأنجح من نجح ، وخاب من خاب ، فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت ، ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر .

والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى عليها مدار الشرع والقدر ، وإليها يرجع الخلق والأمر ، وهى إثارة أكبر المصلحتين وأعلاهما ، وإن فاتت المصلحة التى هى دونها والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها ، فيفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها .

خطرات العاقل :

فخطرات العاقل ، وفكره لا يجاوز ذلك ، وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ، ما كان لله والدار الآخرة ، فما كان لله فهو أنواع :

أحدها : الفكرة فى آياته المنزلة وتعلقها ، وفهم مراده منها ، ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها ، بل التلاوة وسيلة ، قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً .

الثانى : الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها ، والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته ، وإحسانه وبره وجوده ، وقد حض الله سبحانه عباده على التفكير

فى آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .

الثالث : الفكرة فى آلائه وإحسانه ، وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة رحمته ومغفرته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من معرفة الله ومحبه وخوفه ورجاءه ، ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصيب للقلب المعرفة والمحبة صبغة تامة .

الرابع : الفكرة فى عيوب النفس وآفاتنا ، وفى عيوب العمل ، وهذه الفكرة عظيمة النفع ، وهى باب لكل خير ، وتأثير فى كسر النفس الأماره بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانبعثت وصار الحكم لها ، فحى القلب ، ودارت كلمته فى مملكته ، وبث أمراءه وجنوده فى مصالحه .

الخامس : الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه ، فالعارف ابن وقته ، فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت ، وإن ضيعه لم يستدركه أبدا .

قال الشافعى - رضى الله عنه - : « صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين ، أحدهما قولهم : الوقت سيف ، فإن قطعتة وإلا قطعك ، وذكر الكلمة الأخرى : وثفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل » فوقت الإنسان هو عمره فى الحقيقة ، وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك فى العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته وإن عاش فيه عاش عيش البهائم ، فإذا قطع وقته فى الغفلة والسهو والأمانى الباطلة ، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة ، فموت هذا خير له من حياته .

وإذا كان العبد وهو فى الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل منها ، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله ولله ، وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر ، قايما وساوس شيطانية وإما أمانى باطلة وخدع كاذبة ، بمنزلة خواطر المصابين فى عقولهم من السكرارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق :

إن كان منزلتى فى الحشر عندكم
أمنية ظفرت نفسى بها زمناً
ما قد لقيت ، فقد ضيعت أيامى
واليوم أحسبها أضغاث أحلام

واعلم أن ورود الخاطر لا يضر ، وإنما يضر استدعاؤه ومحاذنه ، فالخاطر كالمار على الطريق فإن تركته مر وانصرف ، وإن استدعيتَه سحرك بحديثه خدعه وغروره ، وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة .

وقد ركب الله سبحانه فى الإنسان نفسين : نفساً أماره ، ونفساً مطمئنة وهما متعاديتان ، فكل ما خف على هذه ثقل على هذه ، وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأماره أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها ، وليس لها أنفع منه ، وليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله ، وما جاء به داعى الهوى ، وليس عليها شيء أضر منه ، والملك مع هذه عن يمنة القلب والشيطان مع تلك عن يسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا أن يُستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان والأماره^(١) ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة^(٢) ، والحرب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر ورابط وانقى الله فله العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكماً لا يبدل أبداً ، أن العاقبة للتقوى ، والعاقبة للمتقين ، فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه ، فكيف يليق بالعاقل أن تكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور وخدع ، وأمانى باطلة ، وسراب لا حقيقة له ؟ فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ؟ وإذا أراد أن ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة ما لا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم تستقر فيه الخواطر النافعة ، فإنها لا تستقر إلا فى محل فارغ كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

(١) أى : النفس الأماره .

(٢) أى : النفس المطمئنة .

وهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر ، وأن لا يمكنوا خاطراً يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أدخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر ، فبقيت فارغة لا شيء فيها ، فصادفها الشيطان خالية ، فبذر فيها الباطل في قوالب أوهمهم أنها على الأشياء وأشرفها ، وعوضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى وإذا خلا القلب عن الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خالياً ، فشغله بما يناسب حال صاحبه ، حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية ، فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون المستولية على قلبه ، وهي إرادة مراد الله الديني الأمرى الذي يحبه ويرضاه ، وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به ، والقيام به وتنفيذه في الخلق ، والتطرق إلى ذلك ، والتوسل إليه بالدخول في الخلق لتنفيذه ، فيضلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها .

وأوهمهم أن كمالهم في ذلك التجريد والفراغ ، وهيهات هيهات ، إنما الكمال في امتلاء القلب من الخواطر والإرادات والفكر في تحصيل مرضى الرب تعالى من العبد ، ومن الناس والفكر في طرق ذلك والتوصل إليه فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لذلك ، كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكراً وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت ، والله المستعان .

ولهذا فإن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كانت تتزاحم عليه الخواطر في مرضى الرب - تعالى - ، فربما استعملها في صلاته ، وكان يجهز جيشه وهو في الصلاة ، فيكون قد جمع بين الجهاد والصلاة ، وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة ، وهو باب عزيز شريف لا يدخل منه إلا صادق حاذق القلب ، متضلع من العلم عالى الهمة ، بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

[مدخل اللفظات]

* وأما اللفظات : فحفظها بأن لا يخرج لفظة ضائعة، بأن لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة في دينه، فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر، هل فيها ربح وفائدة أم لا ؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح نظر: هل تقوته بها كلمة أربح منها؟ فلا يضيعها بهذه، وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب فاستدل عليه بحركة اللسان، فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى .

قال يحيى بن معاذ « القلوب كالقدور تغلى بما فيها ، وألسنتها مغارفها » فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك بما في قلبه حلو وحامض، عذب أو أحاج وغير ذلك ، ويبين لك طعم قلبه اغترف لسانه ، أي كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته ، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه، فتذوق ما في قلبه من لسانه . كما تذوق ما في القدور بلسانك .

وفي حديث أنس المرفوع « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه »^(١) .

وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : « الفم والفرج »^(٢) قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعده عن النار، فأخبره النبي ﷺ « برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قال : بلى يا رسول الله فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : كف عليك هذا ، فقال : وإنا لمؤاخذون

(١) إسناده ضعيف، أخرجه أحمد (١٩٨/٣) . وفيه : على بن مسعدة الباهلي أبو حبيب البصري قال (ابن معين) « صالح » وقال أبو حاتم : « لا بأس به » . وقال البخاري : « فيه نظر » . وقال ابن عدي : « أحاديثه غير محفوظة » . وقال ابن حبان : « لا يحتج بما لا يوافق فيه الثقات » . انظر ترجمته في « التهذيب » . قال الحافظ في « التهذيب » : « صدوق له أوهام » . قلت : فهو ممن يستشهد به ولا يحتج بتفرده ولا أعلم له متابعا .

(٢) حديث حسن أخرجه الترمذي (٤٠٤ : ٢٠٠) ، وابن ماجه (٤٢٤٦) . وحسنه الألباني في « صحيح الترمذي » وابن ماجه .

بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم ^(١) قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ، ومن النظر المحرم وغير ذلك ، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه ، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد ، والعبادة ، وهو يتكلم بالكلمات من سخط الله لا يلقى لها بالاً ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وكم ترى من رجل متورع الفواحش والظلم ، ولسانه يفرى في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول .

وإذا أردت أن تعرف ذلك فالظر في ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان ، فقال الله - عز وجل - : من ذا الذى يتألى على أنى لا أغفر لفلان ؟ قد غفرت له وأحببت عملك ^(٢) » فهذا العابد الذى قد عید الله ما شاء أن يعبدته أحببت هذه الكلمة الواحدة عمله كله .

وفى حديث أبى هريرة نحو ذلك ، ثم قال أبو هريرة « تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته » ^(٣) .

وفى «الصحيحين» من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالاً يرفعه الله بها درجات ، وإن العبد يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها فى نار جهنم ^(٤) »

وعند «مسلم» « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى بها فى النار أبعد من

(١) حديث صحيح : أخرجه الترمذى (٢٦١٦) ، ماجه (٣٩٧٣) . وصححه الألبانى فى

«صحيحهما» و«صحيح الجامع» (٥٠١٢)

(٢) حديث صحيح : أخرجه مسلم (٢٦٢١)

(٣) حديث صحيح : رواه أبو داود (٤٩٠١) . وصححه الألبانى فى «صحيح أبى داود»

(٤) حديث صحيح : أخرجه البخارى (٦٤٧٨) ، ومسلم (٢٩٨٨) ، وأحمد (٣٣٤/٢)

بين المشرق والمغرب»^(١).

وعند الترمذى من حديث بلال بن الحارث المزنى عن النبى ﷺ: «إن من أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(٢).

وكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث .

وفى «جامع الترمذى» أيضا من حديث أنس قال : «وفى رجل من الصحابة فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله ﷺ: وما يدريك ؟ فلعله تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه»^(٣) قال : حديث غريب .

وفى لفظ «أن غلاما استشهد يوم أحد، فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع ، فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئا لك يا بنى لك الجنة . فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ، وجنح ما لا يضره»^(٤).

وفى «الصحيحين» من حديث أبى هريرة يرفعه «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»^(٥).

وفى لفظ لمسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»^(٦).

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٧).

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٤٧٧) ، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (٢٣١٩) . وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» .

(٣) حديث ضعيف: أخرجه الترمذى (٢٣١٦) . وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى» .

(٤) ضعيف: انظر ما قبله .

(٥) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٤٧٥) ، ومسلم (٤٧) ، والترمذى (١٩٦٧) ، وابن ماجه (٣٩٧١) .

(٦) حديث صحيح: أخرجه الترمذى (٢٣١٧ ، ٢٣١٨) . وصححه الألبانى فى «صحيح الترمذى» .

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: «قلت: يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»، قال قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف على؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا»^(١) والحديث صحيح .

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال: «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو ذكراً لله - عز وجل -»^(٢) قال الترمذى: حديث حسن غريب .

وفى حديث آخر: «إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإذا استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»^(٣) . وقد كان بعض السلف يحاسب نفسه فى قوله يوم حار ويوم بارد، ولقد رأى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال: أنا موقوف على كلمة قلتها، قلت: ما أحوج الناس إلى غيث، فقيل لى: وما يدريك؟ أنا أعلم بمصلحة عبادى .

وقال بعض الصحابة لجاريته يوماً، هات السفرة نعبث بها، ثم قال: أستغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطئها وأزعمها إلا هذه الكلمة خرجت منى بغير خطام ولا زمام، أو كما قال. وأيسر حركات الجوارح حركة اللسان وهى أضرها على العبد. واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط؟ على قولين، أظهرهما الأول .

وقال بعض السلف: كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من الله وما والاه، وكان الصديق - رضى الله عنه - يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردنى الموارد والكلام

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٣٨)، والترمذى (٢٤١)، وابن ماجه (٣٩٧٢).

(٢) حديث ضعيف: أخرجه الترمذى (٢٤١٢). وضعفه الألبانى فى «ضعيف الترمذى»، وابن ماجه (٣٩٧٤).

(٣) حديث حسن: أخرجه الترمذى (٢٤٠٧). حسنه الألبانى فى «صحيح الترمذى». و«صحيح الجامع» (٣٤٨).

أسيرك ، فإذا خرج من فيك صرت أنت أسيره ، والله عند لسان كل قاتل : ﴿ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] .

وفى اللسان آفتان عظيمتان ، إن خلص من إحدهما لم يخلص من الأخرى آفة الكلام ، وآفة السكوت ، وقد يكون كل منهما أعظم إثما من الأخرى فى وقتها ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، عاصٍ لله ، مرءٍ مداهن إذا لم يخف على نفسه ، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله ، وأكثر الخلق منحرف فى كلامه وسكوته ، فهم بين هذين النوعين ، وأهل الوسط - وهم أهل الصراط المستقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل ، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة ، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلاً أن تضره فى آخرته ، وإن العبد ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتى بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله - عز وجل - وما اتصل به .

[مدخل الخطوات]

✽ وأما الخطوات : فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه ، فإن لم يكن فى خطاه مزيد من ثواب فالقعود عنها خير له ، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة ينوبها لله ، فتقع خطاه قربة .

ولما كانت العشرة عشرين : عشرة الرجل ، وعشرة اللسان جاءت إحدهما قرينة الأخرى فى قوله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] .

فوصفهم بالاستقامة فى لفظاتهم وخطواتهم ، كما جمع بين اللحظات والخطوات فى قوله تعالى : ﴿ يَسْلَمُونَ سِرَّةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورِ ﴾ [غافر: ١٩] .

وهذا كله ذكرناه فى مقدمة بين يدى تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج وقد قال ﷺ : « أكثر ما يدخل الناس النار : الفم والفرج »^(١)

(١) حديث حسن سبق تخريجه .

وفى «الصحيحين» عنه ﷺ « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »^(١) .

وهذا الحديث فى اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التى فى الفرقان ، ونظير حديث ابن مسعود^(٢) .

بدأ رسول الله ﷺ بالأكثر وقوعاً ، والذى يليه فالزنى أكثر وقوعاً من قتل النفس وقتل النفس أكثر وقوعاً من الردة ، وأيضاً فإنه تنقل من الأكبر إلى ما هو أكبر منه ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم ، فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ، ونكست رؤوسهم بين الناس ، وإن حملت من الزنى ، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبياً ليس منهم ، فورثهم وليس منهم ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم ، إلى غير ذلك من مفاصد زناها ، وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الانساب أيضاً ، وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد ، وفى هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين ، وإن عمرت القبور فى البرزخ والنار فى الآخرة ، فكم فى الزنا من استحلال الحرمات ، وفوات حقوق ووقوع مظالم ؟

ومن خاصيته : أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ، ويكسو صاحبه سواد الوجه ، وثوب المقت بين الناس .

ومن خاصيته أيضاً : أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه ، وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمة قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

وقال سعد بن عباد - رضى الله عنه - : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (٦٨٧٨) ، ومسلم (١٦٧٦) ، والترمذى (١٤٠٢) ، والنسائى (٩٢/٧) ، وابن ماجه (٢٥٣٤) .

(٢) حديث صحيح : سبق تخريجه ، وهو حديث : «أبى الذنب أعظم ... إلخ» .

بالسيف غير مصفح^(١) ، قبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « أتعجبون من غيرة سعد^(٢) والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن^(٣) » متفق عليه .

وفى «الصحيحين» أيضاً عنه ﷺ : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتي العبد ما حرم عليه^(٤) » .

وفى «الصحيحين» أيضاً عنه ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه^(٥) » .

وفى «الصحيحين» في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة محمد ، والله إنه لا أحد أغير من الله ، أن يزني عبده أو تزني أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » ثم رفع يديه وقال : « اللهم هل بلغت؟^(٦) » .

وفى ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سر يدعي لمن بالله وظهور الزنى من أمارات خراب العالم ، وهو من أشراط الساعة ، كما في «الصحيحين» عن أنس بن مالك أنه قال : « لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكموه أحد بعدى ، سمعته من النبي ﷺ يقول : « من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ويظهر الزنى ، ويقتل الرجال . وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد^(٧) » .

(١) يضم الميم . وفتح الفاء ، يقال : أصفحه بالسيف ، أي : ضرب به بعروقه دون حده .

(٢) حديث صحيح : أخرجه البخاري (٦٨٤٦) ، ومسلم (١٤٩٩) .

(٣) حديث صحيح : أخرجه البخاري (٥٢٢٣) ، ومسلم (٢٧٦١) .

(٤) حديث صحيح : أخرجه البخاري (٤٦٣٧) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

(٥) حديث صحيح : أخرجه البخاري (١٠٤٤) ، ومسلم (١٠٩) .

(٦) حديث صحيح : أخرجه البخاري (٨١) ، ومسلم (٢٦٧١) .

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله - سبحانه وتعالى - ويشد غضبه ، فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة .

قال عبد الله بن مسعود «ما ظهر الربا والزنى في قرية إلا أذن الله بإهلاكها» ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنه يغمز امرأة فقال : مهلاً يا بني ، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقيل له : هكذا غضبك لي ؟ لا يكون في جنسك خير أبداً .

وخص سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص :

أحدها : القتل فيه بأشنع القتلات ، وحيث خفقه جمع فيه بين العربة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة .

الثاني : أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رافة في دينه ، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم ، فإنه سبحانه من رافته ورحمته بهم شرع في هذه العقوبة فهو أرحم بكم ، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة ، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرافة من إقامة أمره .

وهذا - وإن كان عاماً في سائر الحدود - ولكن ذكر في حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزانى ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزانى أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم والوقائع ، والواقع شاهد بذلك ، فنهوا أن تأخذهم هذه الرافة وتحملهم على تعطيل حد الله - عز وجل - .

وسبب هذه الرحمة : أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفي النفوس أقوى الدواعي إليه والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة إلى رحمة العاشق ، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقرية ، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه ، ولا يستنكر هذا الأمر ، فإنه مستقر عند ما شاء الله من أشباه الأنعام ، ولقد حكى لنا من ذلك شيئاً كثيراً نقاص العقول كالخدام والنساء .

وأيضاً فإن هذا ذنب غالباً ما يقع مع التراضى من الجانبين ، ولا يقع فيه من

العدوان والظلم والاعتصاب ما تنفر النفوس منه وفي النفوس شهوة غالبة، فيصور ذلك لها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم به أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدث، فيكون موافقاً لربه - تعالى - في أمره ورحمته .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين ، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد ، وذلك أبلغ في مصلحة الحد والحكمة الزجر ، وحد المحصن مشتق من عقوبة الله تعالى لقوم لوط بالقذف بالحجارة ، وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش ، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره فإن في إبطاء من المفاسد ما يقوت الحصر والتعداد ، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يورث الفساد قسداً لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، ويذهب خيره كله، وتغص الأرض ماءً . وجهه ، فلا يستحي بعد ذلك من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نظف . السم في البدن .

وقد اختلف الناس هل يدخل الجسد المفعول به ؟ على قولين ، سمعت شيخ الإسلام - رحمه الله - يحكيهما .

الذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور :

منها : أن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة ولد زنية »^(١) فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له في ذاك ولكنه مظنة كل شر وخبث، وهو جدير أن لا يجيء منه خير أبداً، لأنه مخلوق من نطفة خبيثة، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام، النار أولى به، فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ؟

قالوا : والمفعول به شر من ولد الزنى، وأخرى وأخبث، وأوقع وهو جدير أن لا يوفق للخير، وأن يحال بينه وبينه، وكلما عمل خيراً قبض الله له ما يفسده عقوبة له، وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان، ولا يوفق لعمل نافع، ولا لعمل صالح، ولا لتوبة نصوح .

(١) حديث حسن أخرجه أحمد (٢/٣-٢) . حقه الألباني في «الصحيحة» (٦٧٣)

والتحقيق في هذه المسألة أن يقال : إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأتاب ورزق توبة نصوحاً وعملاً صالحاً، وكان في كبره خيراً منه في صغره وبذل سيئاته بحسنات، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات، وغض بصره وحفظ فرجه عن المحرمات، وصدق الله في معاملته، فهذا مغفور له، وهو من أهل الجنة، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب، حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه، والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله - تعالى - به عدلاً وفضلاً أن «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١) وقد ضمن الله سبحانه لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أن يبذل سيئاته حسنات، وهذا حكم عام لكل تائب من كل ذنب.

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا في حق التائبين خاصة. وأما المفعول به إن كان في كبره شراً مما كان في صغره لم يوفق لتوبة نصوح ولا لعمل صالح، ولا استدراك ما فات، ولا أبدل السيئات بالحسنات. فهذا بعيد أن يوفق عند المحامات الخاتمة يدخل بها الجنة، عقوبة له على عمله. فإن الله - سبحانه وتعالى - يعاقب على السيئة بسيئة أخرى وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى فتتضاعف الحسنات. وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة، عقوبة لهم على أعمالهم السيئة.

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي - رحمه الله - : «واعلم أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسباباً، ولها طرق وأبواب أعظمها الانكباب على الدنيا، والإعراض عن الآخرة والإقدام والجرأة على معاصي الله - عز وجل - ، وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية، وجانب من

(١) حديث حسن؛ أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠). حنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٧).

و«صحيح الجامع» (٣٠٠٥).

الإعراض ، ونصيب من الجرأة والإقدام ، فملك قلبه وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ولا نجحت فيه موعظة ، فربما جاء الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد .

قال : ويروى أن بعض رجال الناصر نزل الموت به فجعل ابنه يقول : قل لا إله إلا الله ، فقال : الناصر مولاي ، فأعاد عليه القول ، فأعاد مثل ذلك ، ثم أصابته غشية ، فلما أفاق قال : الناصر مولاي ، وكان هذا دأبه ، كلما قيل له قل : لا إله إلا الله ، قال : الناصر مولاي ، ثم قال لابنه : يا فلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ، ثم مات .

قال عبد الحق : وقيل لآخر - ممن أعرفه - قل لا إله إلا الله فجعل يقول : الدار الفلانية أصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا .

قال : وفيما أذن لى أبو طاهر السلفى أن يحدث به عنه أن رجلاً نزل به الموت فقبل له : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية ده يارده ده وازده ، تفسيره : عشرة بإحد عشرة ، وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول : أين الطريق إلى حمام منجاب؟

قال : وهذا الكلام له قصة ، وذلك أن رجلاً كان واقفاً بإزاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر ، فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ؟ فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها ، فلما رأت نفسها فى داره وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشوى والفرح باجتماعها معه ، وقالت له : يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا وتقر به عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدن وتشتهين ، وخرج وتركها فى الدار ولم يغلقها ، فأخذ ما يصلح ورجع ، فوجدها قد خرجت وذهبت ، ولم تخبه فى شيء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها ، وجعل يمشى فى الطريق والأرقه ويقول :

يا رب قائلة يوماً ، وقد تعبت كيف الطريق إلى حمام منجاب؟

فبينما هو يوماً يقول ذلك وإذا بجاريته أجابته من طاق:

هلا جعلت سريعاً إذ ظفرت بها حرزاً على الدار أو قفلاً على الباب؟

فازداد هيمانه واشتد ولم يزل على ذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه في الدنيا.

ولقد بكى سفيان الثوري ليلة إلى الصباح، فلما أصبح قيل له: كل هذا خوفاً من الذنوب! فأخذ تبتةً من الأرض، وقال: الذنوب أهون من هذا، وإنما أبكى من خوف سوء الخاتمة. وهذا من أعظم الفقه، أن يخاف الرجل أن تخذله ذنوبه عند الموت، فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى.

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء أنه لما احتضر، جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقول: ﴿وَنَقْلِبُ أَمَدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طَعْيَانِهِمْ يَعْسَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

فمن هذا خاف السلف من الذنوب، أن تكون حجاباً بينهم وبين الخاتمة الحسنى.

قال: واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله تعالى منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه، وما سمع بهذا ولا علم به ولله الحمد، وإنما تكون لمن له فساد في العقد أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة، فيأخذه قبل إصلاح الطوية، ويصطلم^(١) قبل الإنابة، فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة، ويختطفه عند تلك الدهشة، والعياذ بالله.

قال: ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء الطاعة وأنوار العبادة، فرقى يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني، فاطلع فيها، فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها، فترك الأذان ونزل إليها، ودخل الدار عليها، فقالت له: ما شأنك وما تريد؟ قال: أريدك، فقالت: لماذا؟ قال: لقد سيئت لبي، وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة أبدًا، وقال: أنتزوجك؟ قالت: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجني منك، قال: أنتصر، قالت: إن

فعلت أقبل ، فتنصر الرجل ليتزوجها وأقام معهم فى الدار ، فلما كان فى أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات ، فلم يظفر بها ، وفاته دينة .

قال : ويروى أن رجلاً علق شخصاً فاشتد كلفه به ، وتمكن حبه من قلبه ، حتى وقع الما به ولزم الفراش بسببه ، وتمتع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه ، فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده بأن يعود ، فأخبره بذلك الناس ففرح واشتد فرحه وانجلي غمه ، وجعل ينتظره للمعاد الذى ضربه له ، فبينما هو كذلك إذ جاء الساعى بينهما ، فقال : إنه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع ، ورغبت إليه وكلمته ، فقال : إنه ذكرنى وفرح بى ، ولا أدخل مدخل الريبة ، ولا أعرض نفسى لمواقع التهم ، فعادته فأتى وانصرف ، فلما سمع البائس أسقط فى يده ، وعاد أشد مما كان به ، وبدت عليه علائم الموت ، فجعل يقول فى تلك الحال :

أسلم يا راحة العليل ويا شفا المدنف النحيل
رضاك أشهى إلى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له يا فلان اتق الله ، قال : قد كان ، فقامت عنه ، لما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت . فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

[الخلاف فى عقوبة الزنى واللواط. أيهما أغلظ؟]

* ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات .

وتد اختلفت الناس : هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنى أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ؟ على ثلاثة أقوال :

فذهب أم بكر الصديق وعلى بن أبى طالب وخالد بن الوليد وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وجابر بن زيد وعبد الله بن معمر ، والزهرى وربيعه بن أبى عبد الرحمن ، ومالك وإسحق بن راهويه ، والإمام أحمد - فى أصح الروايتين عنه - والشافعى فى أحد قوليه - إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبته القتل على كل حال ، محصناً كان أو غير محصن .

وذهب عطاء بن أبي رباح والحسن البصري وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي ، وقتادة والأوزاعي ، والشافعي - في ظاهر مذهبه - والإمام أحمد - في الرواية الثانية عنه - وأبو يوسف ومحمد، إلى أن عقوبته عقوبة الزاني سواء .

وذهب الحاكم وأبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزنى وهي التعزير . قالوا : لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله ﷺ فيها حداً مقدراً ؛ فكان فيه التعزير كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : ولأنه وطء في محل لا تشتهي الطباع، بل ركبها الله تعالى على النفرة منه حتى الحيوان البهيم ، فلم يكن فيه حد كوطء الأتان^(١) وغيرها .

قالوا : ولأنه لا يسمى زانياً لغة ولا شرعاً ولا عرفاً، فلا يدخل في التصور الدالة على حد الزانين .

قال : وقد رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوارع منها طبيعياً بذلك الوارع من الحد، وإذا كان في الطباع نقاضياً جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطباع لها، ولهذا جعل الحد في الزنى والسرقة وشرب المسكر دون أكل الميتة والدم ولحم الخنزير .

قالوا : وطرد هذا، أنه لا حد في وطء البهيمة ولا الميتة، وقد جبل الله - سبحانه - الطباع على النفرة من وطء الرجل رجلاً مثله أشد نفرة، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من بطؤه بخلاف الزنى، فإن الداعي فيه من الجانبين .

قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد، كما لو تساحت المراتان، واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى .

قال أصحاب القول الأول وهو جمهور الأمة ، وحكاة غير واحد إجماعاً للصحاب : ليس في المعاصي أعظم مفسدة من هذه المفسدة ، وهي تلى مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل ، كما سنبينه - إن شاء الله تعالى - .

قالوا : ولم يبتل الله تعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدًا من العالمين، وعاقبهم

عقوبة لم يعاقب بها أحداً غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالا لم ينكله أمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض غمد من جوانبها إذا عملت عليها، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم، وتعج الأرض إلى ربها - تبارك وتعالى -، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها، وقتل المفعول به خير له من وطنه؛ فإنه إذا وطنه قتله قتلا لا ترجى الحياة معه بخلاف قتله، فإنه مظلوم شهيد أو ربما يتفجع به في آخرته.

قالوا: والدليل على هذا: أن الله - سبحانه - جعل حد القاتل إلى خيرة الولي، إن شاء قتل وإن شاء عفا. وحتم قتل اللوطي حداً، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ. ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها. بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين - رضى الله عنهم أجمعين -.

وقد ثبت عن خالد بن الوليد * أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً يُنكح كما تُنكح المرأة، فكتب إلى أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة - رضى الله عنهم - . فكان على بن أبي طالب أشدهم قولاً فيه فقال: ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة، وقد علمتم ما فعل الله بها، أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه ^(١).

وقال عبد الله بن عباس: « ينظر أعلى بناء في القرية، فيرمى اللوطي منها منكباً، ثم يتبع بالحجارة ».

وأخذ عبد الله بن عباس هذا الحد من عقوبة الله قوم لوط، وابن عباس هو الذي روى عن النبي ﷺ « من وجدنوه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به » ^(٢).

(١) حديث ضعيف جداً: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٢٣٢/٨). قال الزيلعي في تخريج أحاديث الهداية (١/٣/٢) - ضعيف جداً.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١/٣ - ٣)، وأبو داود (٤٤٦٢، ٤٤٦٣)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١). وصححه الألباني في «صحيحيهما» و«صحيح الجامع» (٦٤٦٥).

رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره ، واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث ، وإسناده على شرط البخارى .

وقالوا : وثبت عنه عليه السلام أنه قال : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولم يجئ عنه عليه السلام لعنة الزانى ثلاث مرات فى حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر ، فلم يتجاوز بهم فى اللعن مرة واحدة ، وكرر لعن اللوطية ، وأكد ثلاث مرات ، وأطبق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتله ، لم يختلف فيه منهم رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم فى صفة قتله ، فظن الناس أن ذلك اختلاف منهم فى قتله ، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة ، وهى بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع .

قالوا : ومن تأمل قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] .

وقوله فى اللواط : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠] . تبين له تفاوت ما بينهما ، وأنه سبحانه نكر الفاحشة فى الزنى ، أى هو فاحشة من الفواحش ، وعرفها فى اللواط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ، ونعم الرجل زيد ، أى أتأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد ، فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها ، بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها ، وهذا نظير قول فرعون لموسى : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء: ١٩] . أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد .

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم ، فقال : ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشتمز منه القلوب ، وتنبو عنه الأسماع ، وتنفر منه الطباع أشد نفرة ، وهو إتيان الرجل رجلاً مثله ينكحه كما ينكح الأنثى . فقال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ [الأعراف: ٨١] .

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣٠٩/١) . صححه الشيخ شاكر فى تعليقه على «المستد» (٢٨١٧) .

ثم نيه عن استغنائهم عن ذلك ، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التي لا طهر ولا دماء إلى الأنثى ، من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التي تسي المرأة لها أبويها ، وتذكر يعلها ، وحصول النسل الذي حفظ هذا النوع الذي به شرف المخلوقات ، وتحصين المرأة وقضاء وطرها ، وحصول علاقة بمصاهرة التي هي من النسب ، وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب خلق الله من جماعهم كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبي ﷺ والأنبياء ، منه إلى غير ذلك من مصالح النكاح ، والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله . ويرى عدمه بما لا يمكن حصر فساد ، ولا يعلم تفصيله إلا الله .

ثم أكد قبحه . بأن اللواطية عكسوا فطرة الله التي فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطيب التي ركبها الله في الذكور : وهي شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر ، وعكسوا الفطرة والطيب . فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم ، فجاء غالبيتها سافلها . وكذلك قلوبهم ، ونكسوا في العذاب على رؤسهم .

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف وهو مجاوزة الحد ، فقال : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١] فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريب منه في الرزنى ؟

وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ وَجَنّٰهُم مِّنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَاثٰتِ ﴾ [الأنبياء: ٧٤] .

ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤] .

وسماهم مفسدين في قول نبهم : ﴿ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٠] .

وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم - عليه السلام - : ﴿ إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنِ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣١] .

فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات ، ولما جادل فيهم خليله إبراهيم الملائكة ، وقد أخبروه بإهلاكهم قيل له : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ [هود: ٧٦] .

وتأمل حيث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صوراً . فاقبل اللوطية إليه يهرولون ، فلما رآهم قال لهم : ﴿ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ [هود: ٧٨] ففدى أضيافه ببنته يزوجهن بهن خوفاً على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد .

فقال : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨] فردوا عليه . ولكن رد جبار عنيد : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ [هود: ٧٩] فنفت نبي الله منه نفثة مصدور ، خرجت من قلب مكروب فقال : ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود: ٨٠] فنفس له رسل الله وكشفوا له عن حقيقة الحال ، وأعلموه أنهم ممن ليسوا يوصل إليهم . ولا إليه بسبيهم فلا تخف منهم ولا تعباً بهم وهون عليك . فقالوا : ﴿ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ ﴾ وبشروه بما جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب فقالوا : ﴿ فَاسْرَ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْهَتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] .

فاستبطن نبي الله موعد هلاكهم . وقال : أريد أعجل من هذا . فقالت الملائكة : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود: ٨١] فوالله ما كان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر ، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصلها ، ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذي لا يرد عن الرب الجليل ، إلى عبده ورسوله جبرائيل ، بأن قلبها عليهم كما أخبر به في محكم التنزيل ، فقال عز من قائل : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سَجِيلٍ ﴿٧٤﴾ [هود: ٨٢] ، فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ، ونكالا وسلفا لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين ، وجعل ديارهم بطريق السالكين : ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧] .

أخذهم على غرة وهم نائمون وجاءهم بأسه وهم فى سكرتهم يعمهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فقلبت تلك اللذات آلاما ، فأصبحوا بها يعذبون :
مآرب كانت فى الحياة لأهلها عذابا فصارت فى الممات عذابا

ذهبت اللذات ، وأعقبت الحسرات ، وانقضت الشهوات ، وأورثت الشقوات ، وتمتعوا قليلا وعذبوا طويلا ، رتعوا مرتعا وخيما ، فأعقبهم عذابا أليما ، أسكرتهم خمرة تلك الشهوات ، فما استفاقوا منها إلا فى ديار المعذبين ، وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم ، وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة ، والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم ، وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ويقال لهم وهم على وجوههم يسحبون : ذوقوا ما كنتم تكبون : ﴿١٦﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [الطور: ١٦] .

وقد قرب الله سبحانه مسافة العذاب بين هذ الأمة وبين إخوانهم فى العمل ، فقال مخوفا لهم أن يقع الوعيد : ﴿١٣﴾ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ ﴿١٣﴾ [هود: ٨٣] .

فيا ناكحى الذكران بهنيكم البشرى	فيوم معاد الناس إن لكم لأجرا
كلوا واشربوا وازنوا ولوطوا وأبشروا	فإن لكم زفرا إلى الجنة الحمرا
فإخوانكم قد مهدوا الدار قبلكم	وقالوا إلينا عجلوا، لكم البشرى
وها نحن أسلاف لكم فى انتظاركم	سيجمعنا الجبار فى ناره الكبرى
فلا تحسبوا أن الذين نكحتموا	يغيثون عنكم، بل ترونهم جهرا

ويلعن كل منكم ما بخليله ويشقى به المحزون في الكرة الأخرى
يعذب كل منهما بشريكه كما اشتركا في لذة توجب الوزرا

[القول الفصل في المسألة]

* (في الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنى) :
* أما قولهم : إنها معصية لم يجعل الله فيها حداً معيناً ، فجوابه من وجوه :
أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتماً ، وما شرعه رسول الله ﷺ قائماً شرعه عن الله ، فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .
والثاني : أن هذا ينقض عليكم بالرجم ، فإنه إنما ثبت بالسنة .

فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقي حكمه .

قلنا : فينقض عليكم بحد شارب الخمر .

والثالث : أن نفي دليل معين لا يستلزم نفي مطلق الدليل ولا نفي المدلول ، فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير منتف ؟

وأما قولكم : إنه وطاء في محل لا تشتهيهِ الطباع ، بل ركب الله على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار ، مردود بسنة رسول الله ﷺ وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه .

والثاني : أن قياس وطاء الأمرد الجميل الذي فتنه تربو على كل فتنة ، على وطاء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس ، وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة ، أو سبي ذلك عقل عاشق ، أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه ؟ فليس في القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت ، فإن النفرة الطبيعية عنه حاصلة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود - في أحد القولين - وهو القتل بكل حال

محصناً كان أو غير محصن ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، وهو قول إسحاق ابن راهويه وجماعة من أهل الحديث .

وقد روى أبو داود والترمذى من حديث البراء بن عازب قال : « لقيت عمى ومعه الراية ، فقلت : إلى أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى رجل تكبح امرأة أبيه من بعده : أن أضرب عتقه وأخذ ماله »^(١) .

قال الترمذى : هذا حديث صحيح . قال الجوزجاني : عم البراء اسمه الحارث بن عمرو . وروى سنان بن داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من وقع على ذات محرم فاقتلوه »^(٢) .

ورفع إلى الحجاج رجل اغتصب أخته على نفسها ، فقال : احبسوه وسلوا من هاهنا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فسألوا عبد الله بن أبي مطرف ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تخطف الحرمتين الاثنتين فخطوا وسطه بالسيف »^(٣) .

وفيه دليل على القتل بالتوسيط ، وهذا دليل مستقل فى المسألة ، أن من لا يباح وطؤه بحال فحد وطئه القتل ، دليله : من وقع على أمه أو ابنته ، كذلك يقال فى وطء ذوات المحارم ، ووطء من لا يباح له وطؤه بحال ، فكان حده القتل كاللوطى .

والتحقيق : أن يستدل على المسالتين بالنص ، والقياس يشهد لصحة كل منهما ، وقد اتفق المسلمون على أن من زنى يأت محرمه فعليه الحد ، وإنما اختلفوا فى صفة الحد ، هل هو القتل بكل حال ، أو حده حد الزنى ؟ على قولين :

فذهب الشافعى ومالك وأحمد - فى إحدى روايتيه - أن حده حد الزانى .

وذهب أحمد - إسحاق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال .

(١) حديث صحيح - أخرجه أبو داود (٤٤٥٧) ، والترمذى (١٣٦٢) . وصححه الألبانى فى «صحيحيهما» .

(٢) حديث ضعيف : أخرجه أحمد (١/٣٠٠) ، والترمذى (١٤٦٢) ، وابن ماجه (٢٥٦٤) وزاد : «ومن وقع على بهيمة» . إلخ . وضعفه الألبانى «ضعيف الجامع» (٥٨٩٠) إلا الشطر الثانى فهو صحيح .

(٣) حديث ضعيف : وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٥٥٢٤) .

وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح علماً بالتحريم أنه يحد، إلا
أبا حنيفة وحده ؛ فإنه رأى في ذلك شبهة مسقطه للحد .

ومنازعوه يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظاً وشدة ، فإنه
ارتكب محذورين عظيمين : محذور العقد ، ومحذور الوطء ، فكيف تخفف عند
العقوبة بضم محذور الزنى ؟

وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء ، وهما في مذهب أحمد وغيره :

أحدهما : يجب به الحد ، وهو قول الأوزاعي ، فإن فعله أعظم جرماً وأكثر ذنباً
انضم إلى فاحشته هتك حرمة الميتة .

[عقوبة واطئ البهيمة]

وأما واطئ البهيمة فلفقهاء ثلاثة أقوال :

أحدها : أن يؤدب ولا حد عليه ، وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد
قوليهِ ، وهو قول إسحاق .

والقول الثاني : حكمه حكم الزانى ، يجلد إن كان بكرًا ، ويرجم إن كان
محصنًا . وهذا قول الحسن .

والقول الثالث : أن حكمه حكم اللوطى ، نص عليه أحمد ، فيخرج على
الروایتين في حده ، هل هو القتل حتمًا أو هو كالزانى ؟

والذين قالوا : « حده القتل » احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن
النبي ﷺ : « من أتى بهيمة فاقتلوه ، واقتلوا معه »^(١) .

قالوا : ولأنه وطء لا يباح بحال ؛ فكان فيه القتل كحد اللوطى .

ومن لم ير عليه حدًا قالوا : لم يصح فيه الحديث ، ولو صح لقلنا به . ولم
يحل لنا مخالفته .

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٢٦٩/١) ، وأبو داود (٤٤٦٤) ، وابن ماجه (٢٥٦٤) . وصححه
الألبانى في « صحيح أبي داود » .

قال إسماعيل بن سعيد الشالنجي : سألت أحمد عن الذي يأتي البهيمه ، فوقف عندها ، ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك .
وقال الطحاوي : الحديث ضعيف ، وأيضا فراويه ابن عباس ، وقد أفتى بأنه لا حد عليه .

قال أبو داود : وهذا يضعف الحديث .

ولا ريب أن الزاجر الطبيعي عن إتيان البهيمه أقوى من الزاجر الطبيعي عن التلوط ، وليس الأمر أنهما في طباع الناس سواء ، فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس كما تقدم .

[اللوواط والسحاق^(١)]

وأما قياسكم وطء الرجل لثله على سحاق المراتين ، فمن أفسد القياس ، إذ لا إيلاج هناك ، وإنما نظيره مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج ، على أنه قد جاء في بعض الآثار المرفوعة : « إذا أنت المرأة المرأة فهما زانيتان »^(٢) ، ولكن لا يجب الحد بذلك ، لعدم الإيلاج ، وإن أطلق عليهما اسم الزنى العام ، كزنى العين واليد والرجل والفم .
وإذا ثبت هذا : فقد أجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ، ومن ظن أن تلوط الإنسان بمملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج : ٣٠] .
وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر ، يستتاب كما يستتاب المرتد ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه . وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم .

[دواء اللواط]

فإن قيل : فهل مع هذا كله ، دواء لهذا الداء العضال ؟ ورقية لهذا السحر القاتل ؟ وما الاحتيال لدفع هذا الخيال ؟ وهل من طريق قاصد إلى التوفيق ؟ وهل يمكن

(١) السحاق : مباشرة المرأة المرأة .

(٢) حديث ضعيف . أخرجه البيهقي . وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٨٢) .

السكران بخمر الهوى أن يفيق؟ وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل إلى سويدائه؟ وهل للطبيب بعد ذلك حيلة فى برئه من سويدائه؟ إن لامة لائم التذ بلامه ذكراً لمحبوبه ، وإن عذله عاذل أغراه عذله ، وسار به فى طريق مطلوبه ، ينادى عليه شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بى حيث أنت ، فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى ، فأهنت نفسى جاهداً ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى ، فصرت أحبهم إذا كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذينة حباً لذكرك ، فليلمنى اللوم

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء ، والداء الذى طلب له الدواء .

قيل : نعم ، الجواب من رأس « ما أنزل الله من داء إلا جعل له دواء ، علمه من علمه وجهله من جهله »^(١) .

والكلام فى دواء داء تعلق القلب بالمحبة الهوائية من طريقين :

أحدهما : حسم مادته قبل حصولها .

والثانى : قلعها بعد نزوله . وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ، ومتعذر على من لم يعنه الله ، فإن أزمة الأمور بيديه .

فأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران :

متافع غضب البصر :

✽ أحدهما : غضب البصر كما تقدم ؛ فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، ومن أطلق لحظاته دامت حسراته ، وفى غضب البصر عدة متافع .

أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده ؛

(١) حديث صحيح: سبق تخريجه أول الكتاب.

فليس للعبد في دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامره - تبارك وتعالى - ، وما سعد من سعد في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره ، وما شقى من شقى في الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثانية: أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم - الذى لعل فيه هلاكه - إلى قلبه .

الثالثة : أنه يورث القلب أنساً بالله وجمعية عليه ؛ فإن إطلاق البصر يفرق القلب ويشته ، ويبعده من الله ، وليس على القلب شيء أضر من إطلاق البصر ؛ فإنه يورث الوحشة بين العبد وربه .

الرابعة : أنه يقوى القلب ويفرحه ، كما أن إطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامسة : أنه يلبس القلب نوراً ، كما أن إطلاقه يلبسه ظلمة ، ولهذا ذكر الله سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر ، قال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠] . ثم قال إثر ذلك : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نَوْرِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥] .

أى مثل نوره في قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه ، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحية ، كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان ، فما شئت من بدع وضلالة ، واتباع هوى ، واجتناب هدى ، وإعراض عن أسباب السعادة و اشتغال بأسباب الشقاوة ، فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب ؛ فإذا نفذ ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادسة: أنه يورث فراسة صادقة يميز بها بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب .

وكان شجاع الكرمانى يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وبباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشبهات واعتدى بالحلال ، لم تخطئ له فراسة ، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة .

والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه ؛ فإذا غص بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضاً عن حبس بصره لله . ويفتح عليه باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التي إنما تنال ببصيرة القلب ، وضد هذا ما وصف الله به اللوطيين من العمه الذي هو ضد البصيرة . فقال تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] فوصفهم بالسكرة التي هي فساد العقل ، والعمه الذي هو فساد البصيرة ؛ فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل ، وعمه البصيرة ، وسكر القلب ، كما قال القائل :

سكران: سكر هوى، وسكر مدامة ومنى إفانة من به سكران؟

وقال الآخر :

قالوا: جنت بمن نهوى فقلت لهم: العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

السابعة : أنه يورث القلب ثباتاً وشجاعة وقوة ، فيجمع الله له بين سلطان النصر والحق وسلطان القدرة والقوة ، كما في الأثر : « الذي يخالف هواه ، يفرق الشيطان من ظله » .

« بعد هذا تجد في المتبع لهواه - من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وإفانها - ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه . »

أما قال الحسن : « إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية في رقابهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه » .

« بعد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته ، والذل قرين معصيته ، فقال تعالى : « وَاللَّهُ الْعَزُّ وَالرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

والإيمان قول وعمل ، ظاهر وباطن ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ

الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١٠﴾ [فاطر: ١٠] . أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح .

وفى دعاء القنوت : « إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت »^(١) . ومن أطاع الله فقد وآاه فيما أطاعه فيه ، وله من العز بحسب طاعته ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وله من الذل بحسب معصيته .

الثامنة : أنه يسد على الشيطان مدخله إلى القلب ، فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء فى المكان الخالى ، فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها ، ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يَعِدُّهُ وَيَمْنِيهِ وَيوقد على القلب نار الشهوة ، ويلقى عليها حطب المعاصى التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة ، فيصير القلب فى اللهب .

فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يجد فيها وهج النار ، وتلك الزفرات والحرقات ؛ فإن القلب قد أحاطت به النيران من كل جانب ، فهو فى وسطها كالشاة فى وسط التنور ، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات للصور المحرمة : أن جعل لهم فى البرزخ تنور من نار ، وأودعت أرواحهم فيه إلى يوم حشر أجسادهم كما أراه الله تعالى لنبيه ﷺ فى المنام فى الحديث المتفق على صحته^(٢) .

التاسعة : أنه يفرغ القلب للفكرة فى مصالحه والاشتغال بها ، وإطلاق البصر ينسيه ذلك ويحول بينه وبينه ، فينفرط عليه أمره ، ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن أمر ربه قال تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمَنْ أَعْفَلًا قَلْبُهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۝ ٢٨ ﴾ [الكهف: ٢٨] وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشرة : أن بين العين والقلب منفذًا وطريقًا يوجب انتقال أحدهما عن الآخر ، وأن يصلح بصلاحه ، ويفسد بفساده ، فإذا فسد القلب فسد النظر ، وإذا فسد النظر

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٠٠/١)، وأبو داود (١٤٢٥)، والنسائي (١٦٨/٣)، والترمذى (٤٦٤٤)، وابن ماجه (١١٧٨). وصححه الألبانى فى «صحيح السنن».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٧٠٤٧).

فسد القلب ، وكذلك فى جانب الصلاح . فإذا خربت العين وفسدت خرب القلب وفسد ، وصار كالمزيلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ ، فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه ، والأنس به والسرور بقربه فيه ، وإنما يسكن فيه أضداد ذلك .

فهذه إشارة إلى بعض قوائد غرض البصر نطلعك على ما وراءها :

[اشتغال القلب بالخوف من الله تعالى والحب له]

الطريق الثانى المانع من حصول تعلق القلب : اشتغال القلب بما يصدّه عن ذلك ، ويحول بينه وبين الوقوع فيه ، وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج ، فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب ، أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب ، أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب ، وفواته أضر عليه من فوات هذا المحبوب ، لم يجد بداً من عشق الصور وشرح هذا : أن النفس لا تترك محبوباً إلا لمحبوب أعلى منه ، أو خشية مكروه ، حصوله أضر عليها من فوات هذا المحبوب ، وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقدهما أو أحدهما لم ينتفع بنفسه .

أحدهما : بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه ، فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ، ويحتمل أدنى المكروهين ليخلص من أعلاهما . وهذه خاصة العقل ، ولا يعد عاقلاً من كان بضد ذلك . بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه .

الثانى : قوة عزم وصبر يتمكن به من هذا الفعل والترك ، فكثيراً ما يعرف الرجل قدر التفاوت . ولكن يأبى له ضعف نفسه وهيمته وعزيمته على أشياء لا تنفع ، من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ، ومثل هذا لا ينتفع بنفسه ، ولا ينتفع به غيره ، وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين : فقال تعالى ، ويقول بهتدى المهتدون منهم : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا

بآياتنا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ [السجدة: ٢٤] .

وهذا هو الذى ينتفع بعلمه ، وينتفع به الناس ، وضده لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره ، ومن الناس من ينتفع بعلمه فى نفسه ولا ينتفع به غيره .

فالأول : يمشى فى نوره ، ويمشى الناس فى نوره .

والثانى : قد طغى نوره ، فهو يمشى فى الظلمات ومن تبعه فى ظلمته .

والثالث : يمشى فى نوره وحده .

[المحبة الصادقة لله توحيده]

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدًا ، بل هما ضدان لا يتلاقيان ، بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه . فمن كانت قوة حبه كلها للمحسوب الأعلى الذى محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه .

وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله ، أو لكونه وسيلة إلى محبته ، أو قاطعًا له عما يضاد محبته وينقصها .

والمحبة الصادقة تقتضى توحيد المحبوب ، وأن لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته ، وإذا كان المحبوب من الخلق بأنف ويغار أن يشرك معه محبة غيره فى محبته ، ويمقتة لذلك ، ويبعده لا يحظيه بقربه ، ويعده كاذبًا فى دعوى محبته ، مع أنه ليس أهلاً لصرف كل قوة المحبة إليه ، فكيف بالحبيب الأعلى الذى لا تنبغى المحبة إلا له وحده ، وكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها ووبال . ولهذا لا يغفر الله سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء .

فمحبة الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها . بل تفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده فليختر العبد إحدى المحبتين فإنهما لا يجتمعان فى القلب ولا يرتفعان منه ، بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره ؛ فيعذبه بها فى الدنيا وفى البرزخ ، وفى الآخرة ، فإما

أن يعذبه بمحبة الاوثان ؛ أو بمحبة الصليبان ؛ أو بمحبة المردان ؛ أو بمحبة النسوان ؛
أو محبة العشراء والإخوان ؛ أو محبة ما دون ذلك مما هو فى غاية الحقارة والهوان ،
فالإنسان عبد محبوبه كائنا من كان . كما قيل :

أنت القليل بكل من أحبته فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فمن لم يكن إلهه مالكة ومولاه كان إلهه هواه ، قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ
إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ
يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجن: ٢٣] .

[مراتب الحب وخصائصها]

وخاصية التعبد: الحب مع الخضوع ، والذل للمحبوب ، فمن أحب محبوباً
وخضع له فقد تعبد قلبه له ، بل التعبد أحد مراتب الحب ، ويقال له : التيم أيضاً ،
فإن أول مراتبه : العلاقة ، وسميت علاقة لتعلق المحب بالمحبوب .
قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهى ذات تمانم ولم يد للأتراب من ثديها حجم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعد ما أفنان رأسك كالثغام المخلص^(١)

ثم بعدها الصباة وسميت بذلك لانصباب القلب إلى المحبوب .

قال الشاعر :

تشكى المحبون الصباة ، ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى

فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

ثم الغرام ، وهو لزوم الحب للقلب لزوما لا ينفك عنه ، ومنه سمي الغريم غريماً
للازمته صاحبه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥] .

(١) الأفنان: جمع فنن، أصل الغصن، والثغام: تبت أبيض الزهر والنهر، يشبه به الشيب.

وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ فى الحب، وقلَّ أن تجده فى أشعار العرب.

ثم العشق : وهو إفراط المحبة ، ولهذا لا يوصف به الرب - تبارك وتعالى - ، ولا يطلق فى حقه .

ثم الشوق : وهو سفر القلب إلى المحبوب أحت السفر .

وقد جاء إطلاقه فى حق الرب تعالى ، كما فى «مسند الإمام أحمد» عن عمار ابن ياسر : « أنه صلى صلاة فأوجز فيها ، فقليل له فى ذلك . فقال : أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبى ﷺ يدعو بهن : « اللهم إني أسألك بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى ، اللهم إني أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداة مهتدين »^(١) .

وفى أثر آخر : « طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً » . وهذا هو المعنى الذى عبر عنه ﷺ بقوله : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »^(٢) . وقال بعض أهل البصائر فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : ٥] .

لما علم سبحانه وتعالى شدة شوق أوليائه إلى لقائه ، وأن قلوبهم لا تهتدى دون لقائه ، وضرب لهم أجلاً وموعداً للقاءه ، وتسكن نفوسهم به ، وأطيب العيش وألذّه على الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين ، فحياتهم هى الحياة الطيبة فى

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٦٤/٤)، والنسائي (٥٤/٣). وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (١٣١٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٥٠٧، ٦٥٠٨)، ومسلم (٢٦٨٣، ٢٦٨٤).

الحقيقة، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها ، وهى الحياة الطيبة فى قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار ، من طيب المأكول والملبس والمشرّب والمنكح ، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافاً مضاعفة ، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحاً أن يحييه حياة طيبة ، فهو صادق الوعد الذى لا يخلف وعده ، وأى حياة أطيب من حياة : اجتمعت همومه كلها وصارت همّاً واحداً فى مرضاة الله؟ ولم يتشعب قلبه ، بل أقبل على الله ، واجتمعت إرادته وأفكاره التى كانت منقسمة بكل واد منها شعبة - على الله ، فصار ذكره بمحبوبه الأعلى ، ووجه والشوق إلى لقائه ، والانس بقربه هو المستولى عليه ، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره ، بكل خطرات قلبه ، فإن سكت سكت بالله ، وإن نطق نطق بالله ، وإن سمع فبه يسمع ، وإن أبصر فبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشى ، وبه يسكن ، وبه يحيا ، وبه يموت ، وبه يبعث .

كما فى «صحيح البخارى» عنه ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : «ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يمشى ، ولئن سألتنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيزنه ، وما ترددت فى شيء أنا فاعله ، كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ولا بد له منه » ^(١) .

فتضمن هذا الحديث الشريف - الإلهى الذى حرام على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به - حصر أسباب محبته فى أمرين : أداء فرائضه ، والتقرب إليه بالنوافل .

وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما يتقرب به إليه المتقربون ، ثم بعدها النوافل ،

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٥٠٢)، وأحمد (٦/ ٢٥٦).

وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوباً لله ، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة لله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى ، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه ، وملكته عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة ، فصار ذكر محبوبه وحبه ومثله الأعلى مالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوى محبة حبه كلها له .

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به ، فهو في قلبه ومعه وأنيسه وصاحبه ، فالباء هاهنا للمصاحبة ، وهي مصاحبة لا نظير لها ، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها . فالمسألة خيالية لا علمية محضة .

وإذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يخلق لها ولم يفطر عليها ، كما قال بعض المحبين :

خيالك في عيني ، وذكرك في فمي ومثواك في قلبي ، فأين تغيب ؟

وقال آخر :

ومن عجبى أنى أحسن إليهم فأسأل عنهم من لقيت ، وهم معى

وتطلبهم عيني ، وهم فى سوادها ويشناقهم قلبي ، وهم بين أضلعي

وهذا الطف من قول الآخر :

إن قلت : غبت ، فقلبي لا يصدقنى إذ أنت فيه مكان السر لم تغب

أو قلت : ما غبت قال الطرف ذا كذب فقد تحيرت بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى إلى المحب من محبوبه ، وربما تمكنت منه المحبة حتى يصير أدنى إليه من نفسه ، بحيث ينسى نفسه ولا ينساه . كما قيل :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى لى بكل سبيل

وقال آخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأيي الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر ، فإن هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل ، والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهة ، ويجلبان إليه الحب والبغض ، فيستعمل اليد والرجل ، فإذا كان سمع العبد بالله ، وبصره بالله كان محفوظاً في آلات إدراكه ، وكان محفوظاً في حبه وبغضه ، فحفظ في بطشه ومشيه .

وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان ، فإنه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة ، وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة ، وكذلك حركة اليد والرجل التي لا بد للعبد منهما ، فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصد واختيار؟ وقد يستغنى العبد عنها إلا حيث أمر بها .

وأيضاً فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح ، فإنه ترجمانه ورسوله .

وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به سمعه وبصره وبطشه ومشيه بقوله «كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها » تحقيقاً لكونه مع عبده ، وكون عبده به في إدراكاته ، بسمعه وبصره وحركاته بيده ورجله .

وتأمل كيف قال : «فبى يسمع ، وبى يبصر» ولم يقل : فلى يسمع ولى يبصر . وربما يظن الظان أن اللام أولى بهذا الموضع ، إذ هي أدل على الغاية ، ووقوع هذه الأمور لله ، وذلك أخص من وقوعها به ، وهذا من الوهم والغلط ، إذ ليست الباء هاهنا لمجرد الاستعانة ، فإن حركات الأبرار والفجار ، وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم ، وإنما الباء هاهنا للمصاحبة ، أى إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه ، كقوله في الحديث الآخر : «أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه»^(١) وهذه

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٢/ ٥٤٠) ، وابن ماجه (٣٧٩٢) . وصححه الألبانى في «صحيح ابن

هى المعية الخاصة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وقول النبى ﷺ : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما »^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

وقوله : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

وقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

وقوله تعالى لموسى وهارون : ﴿ إِنِّى مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرِى ﴾ [طه : ٤٦] .

فهذه الباء مفيدة لمعنى المعية دون اللام ، ولا يتأتى للعبد الإخلاص والصبر والتوكل ، ونزوله فى منازل العبودية إلا بهذه الباء وهذه المعية .

فحتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق ، وانقلبت عليه المخاوف فى حقه أماناً ، وبالله يهون كل صعب ، ويسهل كل عسير ، ويقرب كل بعيد ، وبالله تزول الهموم والغموم والأحزان ، فلا هم مع الله ، ولا غم ولا حزن ، إلا حيث يفوته معنى هذه الباء فيصير قلبه حيثئذ كالحوت ، إذا فارق الماء يشب وينقلب حتى يعود إليه .

ولما حصلت هذه الموافقة من العبد لربه تعالى فى محابه ؛ حصلت موافقة الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه ، فقال : « ولئن سألتنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعिذنه » أى : كما وافقنى فى مرادى بامتنال أوامرى ، والتقرب بمحابى ، فأنا أوافقه فى رغبته ورهبته فيما يسألنى أن أفعله به ويستعيزنى أن يناله ، وقوى أمر هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى ذلك تردد الرب سبحانه فى إماتة عبده ، لأنه يكره الموت ، والرب تعالى يكره ما يكرهه عبده ويكره مسأته ، فمن هذه الجهة يقتضى أن لا يميته ولكن مصلحته فى إماتته ، فإنه ما أماته إلا ليحييه ، ولا أمرضه إلا ليصح ، ولا أفقره إلا ليغنيه ، وما منعه إلا ليعطيه ، ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) عن انس عن ابي بكر، واحمد (٤/١٨).

يعيده إليها على أحسن أحواله ، ولم يقل لأبيه (اخرج منها) إلا وهو يريد أن يعيده إليها ، فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواء ؛ بل لو كان فى كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألوه الفنى ؟ وحينئذ أبداً لأول منزل

[آخر مراتب الحب]

ثم التتيم ، وهو آخر مراتب الحب : وهو تعبد المحب لمحبوبه ، يقال : تيمه الحب ، إذا عبده ، ومنه : تيم الله ، أى عبد الله ، وحقيقة التعبد : الذل والخضوع للمحبوب ، ومنه قولهم : طريق معبد أى مذل قد ذلته الأقدام ؛ فالعبد هو الذى ذلله الحب ، والخضوع لمحبوبه ، ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته هى العبودية ؛ فلا منزل له أشرف منها .

وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه ، وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية فى أشرف مقاماته ، وهى مقام الدعوة إليه ، ومقام التحدى بالنبوة ، ومقام الإسراء ، فقال سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن : ١٩] . وقال : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] . وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ﴾ [الإسراء : ١] .

وفى حديث الشفاعة : « اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر »^(١)

فإن مقام الشفاعة بكمال عبوديته ، وكمال مغفرة الله له ، والله سبحانه خلق لخلق لعبادته وحده لا شريك له ، التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع

(١) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٦٥٦٥)، وابن ماجه (٤٣١٢) عن أنس ، ومسلم (١٩٤) عن أبى هريرة .

الخضوع ، وهذا هو حقيقة الإسلام وملة إبراهيم التي من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ ١٣١ ﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ ١٣٢ ﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٣] .

ولهذا كان أعظم الذنوب عند الله الشرك .
الشرك في المحبة :

* وأصل الشرك بالله ، الإشراف في المحبة ، كما قال تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ ﴿ ١٦٥ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به ندًا ، يحبه كما يحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم .

وقيل : بل المعنى أنهم أشد حبا لله ، فإنهم وإن أحبوا الله ، لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم في المحبة ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين ، والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة كما تقدم .

ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له ، أنكر على من اتخذ من دونه وليا أو شفيعا غاية الإنكار ، وجمع ذلك تارة ، وأفرد أحدهما عن الآخر تارة ، فقال تعالى : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) ﴿ [يونس: ١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [يونس: ٣].

وقال تعالى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]. وقال تعالى : ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقال في الأفراد : ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشُّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴿[الزمر: ٤٣ - ٤٤].

وقال تعالى : ﴿مَنْ وَرِثَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

فإذا والى العبد ربه وحده أقام له الشفعاء ، وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياء في الله ، بخلاف من اتخذ مخلوقاً ولياً من دون الله .
فهذا لون وذاك لون ، كما أن الشفاعة الشركية الباطلة لون ، والشفاعة الحق الثابتة التي إنما تنال بالتوحيد لون ، وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الإشراك ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

* والمقصود : أن حقيقة العبودية لا تحصل مع الإشراك بالله في المحبة بخلاف المحبة لله ، فإنها من لوازم العبودية وموجباتها ؛ فإن محبة الرسول ﷺ - بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء - لا يتم الإيمان إلا بها ، إذ محبته من محبة الله ، وكذلك كل حب في الله والله . كما في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال : «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان» (١).

وفي لفظ «الصحيحين» : «لا يجد الإيمان إلا من كان فيه ثلاث خصال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣)، وأحمد (١٠٣/٣) عن أنس.

يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار » ^(١) .
 وفي الحديث الذي في « السنن » : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ،
 ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » ^(٢) . وفي حديث آخر : « ما تحاب رجلان في الله إلا
 كان أفضلهما أشدهما حباً لصاحبه » ^(٣) .

فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله تعالى وموجباتها ، وكلما كانت أقوى ، كان
 أصلها كذلك .

[التمييز بين أنواع المحبة]

* وههنا أربعة أنواع من المحبة ، يجب التفريق بينها ، وإنما ضل من ضل بعدم
 التمييز بينها :

أحدها : محبة الله ، ولا تكفى وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه ؛
 فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبة ما يحبه الله ، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من
 الكفر ، وأحب الناس إلى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب ، ولا تنقسم محبة ما
 يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئاً مع الله ،
 لا لله ، ولا من أجله ولا فيه ، فقد اتخذته نداً من دون الله ، وهذه محبة
 المشركون .

وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه ، وهو المحبة الطبيعية ، وهي ميل الإنسان

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٠٤١) عن أنس.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥٢١)، وأبو داود (٤٦٨١)، وأحمد (٤٤٠/٣)، وصححه
 الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٤١).

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري في «الآداب المفردة» (٥٥٤) وصححه الألباني في «الصحيحة»
 (٤٥٠)، و«صحيح الجامع» (٥٤٧٠).

إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تدم إلا إذا ألهمت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

[الخلّة]

* ثم الخلّة وهي تتضمن كمال المحبة، ونهايتها، بحيث لا يبقى في القلب سعة لغير محبوبه، وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه ما، وهذا المنصب خاص للخليلين - صلوات الله وسلامه عليهما - : إبراهيم ومحمد، كما قال ﷺ: «إِنْ اللَّهُ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا»^(١).

وفى «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «لَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلَ اللَّهِ»^(٢).

وفى حديث آخر: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خَلْتِهِ»^(٣).

ولما سأل إبراهيم - عليه السلام - الولد فأعطيه، وتعلق حبه بقلبه، فأخذ منه شعبة؛ غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبحه، وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمور به أعظم ابتلاءً وامتحاناً، ولم يكن المقصود ذبح الولد، ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب، فلما بادر الخليل - عليه الصلاة والسلام - إلى الامثال، وقدم محبة الله على محبة ولده، حصل المقصود، فرفع الذبح، وفدى الولد بذبح عظيم، فإن الرب تعالى أمر بشيء ثم أبطله رأياً، بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله، كما أبقي شريعة الفداء، وكما أبقي استحباب

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٣/٥) من حديث جندب، لكن أخرجه ابن ماجه (١٤١) من طريق آخر من حديث عبد الله بن عمرو، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٥٣٠، ١٥٣١).

وقال موضوع

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٦٥٤)، ومسلم (٢٣٨٢)

(٣) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٨٣)

الصدقة بين يدي المناجاة، وكما أبقي الخمس صلوات بعد رفع الخمسين، وأبقى ثوابها، وقال: « لا يبدل القول لدى »، هي خمس في الفعل، وهي خمسون في الأجر»^(١).

[التفاضل بين المحبة والخلة]

وأما ما يظنه بعض الغالطين : أن المحبة أكمل من الخلة ، وأن إبراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله ، فمن جهله ، فإن المحبة عامة والخلة خاصة ، والخلة نهاية المحبة ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذته خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ونفى أن يكون له خليل غير ربه ، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ، ولعمر ابن الخطاب وغيرهم .

وأيضاً فإن الله سبحانه : ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [٢٢٢] .
[البقرة: ٢٢٢] . و ﴿ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [١٤٦] ﴿ آل عمران: ١٤٦] .
و ﴿ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [١٤٨] ﴿ آل عمران: ١٤٨] . و ﴿ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [٤٢] [المائدة: ٤٢] . والشاب التائب حبيب الله . وخلته خاصة بالخليلين - عليهما الصلاة والسلام - ، وإنما هذا من قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ .

[إيثار الأعلى]

قد تقدم أن العبد لا يترك ما يحبه ويهواه ، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة ، كما أنه يفعل ما يكرهه لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله ، أو لخلاصه من مكروه .

وتقدم أن خاصية العقل إثارة أعلى المحبوبين على أدناهما ، وأيسر المكروهين على أقواهما ، وتقدم أن هذا من كمال قوة الحب والبغض .

ولا يتم له هذا إلا بامرئ : قوة الإدراك ، وشجاعة القلب ، فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما لضعف الإدراك ، بحيث أنه لم يدرك مراتب المحبوب

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

والمكروه على ما هي عليه ، وإما لضعف في النفس وعجز في القلب ، بحيث لا يطاوعه على إثارة الأصلح ، لرفع علمه بأنه الأصلح ، فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع قلبه على إثارة المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى ، فقد وفق لأسباب السعادة .

فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه ، فيقهر الغالب الضعيف ، ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته ، وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره ، فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله ، وتسميه الأطباء : عديم المروءة ، فهكذا أكثر مرضى القلوب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له .

فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها ، وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها وشجاعتها .

فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه ، والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه ، وهاتان القوتان في القلب أصل سعادة العبد وشقاوته .

ووجود الفعل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة .

وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضيه وسببه ، وتارة يكون لوجود البغض والكراهة المانعة منه ، وهذا متعلق الأمر والنهي ، وهو الذي يسمى الكف ، وهو متعلق الثواب والعقاب ، وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك ، وهل هو أمر وجودي أو عدمي ؟ والتحقيق أنه قسمان : فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمي ، والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي .

[إيثارة الأنفع]

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين إنما يؤثره الحى لما فيه من حصول المنفعة التى يلتذ بحصولها ، أو زوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله ؛ ولهذا يقال : شفى صدره وشفى قلبه ، وقال :

هى الشفاء لدائى لو ظفرت بها وليس منها شفاء الداء مبذول

وهذا مطلوب يؤثره العاقل بل الحيوان البهيم ، ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطاً قبيحاً ، فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم ، فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ، ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض ، وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل الناظر فى العواقب ، فأعقل الناس من أثر لذته وراحته الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة ، وأسفه الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة ، واللذة العظمى التى لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما ، بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف ، وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء .

قال بعض العلماء : « فكرت فيما يسعى فيه العقلاء ، فرأيت سعيهم كله فى مطلوب واحد ، وإن اختلفت طرقهم فى تحصيله ، رأيتهم جميعهم إنما يسعون فى دفع الهم والغم عن نفوسهم ، فهذا بالأكل والشرب ، وهذا بالتجارة والكسب ، وهذا بالنكاح ، وهذا بسماع العناء والأصوات المطربة ، وهذا باللهو واللعب ، فقلت : هذا المطلوب مطلوب العقلاء ، ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه ، بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ، ولم أر فى جميع هذه الطرق طريقاً إليه موصلة إلا الإقبال على الله ، ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شئ . فإن سالك هذا الطريق إن فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لا فوت معه ، وإن حصل للعبد حصل له كل شئ ، وإن فاته فاته كل شئ ، وإن ظفر بحظه من الدنيا ناله على أنها الوجوه ، فليس للعبد أنفع من هذه الطرق ، ولا أوصل منها إلى لذته وبهجته وسعادته . وبالله التوفيق » .

[أقسام المحبوب]

* والمحبوب قسمان : محبوب لنفسه ، ومحبوب لغيره ، والمحبوب لغيره لا بد أن ينتهى إلى المحبوب لنفسه ، دفعاً للتسلسل المحال ، وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره ، وليس شئ يُحبُّ لذاته إلا الله وحده ، وكل ما سواه مما يُحبُّ فلأنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه ، فإنها تبع لمحبة سبحانه ، وهى من لوازم محبته ، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما

يحبّه، وهذا موضع يجب الاعتناء به ؛ فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والمحبة التي لا تنفع بل قد تضر .

فاعلم أنه لا يحب لذاته إلا من كان كماله من لوازم ذاته ، وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته ، وما سواه فإنما يبغض ويكره ؛ لمنافاته محابه ومضادته لها ، وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافسة وضعفها ، فما كان أشد منافاة لمحابه ، كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها ، فهذا ميزان عادل توزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته ، فإذا رأينا شخصاً يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه ، علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك ، وإذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه ، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب ، كان أحب إليه وأثر عنده ، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه، علمنا أن فيه من موالاته الرب بحسب ذلك .

فتمسك بهذا الأصل في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا غزق ولا رياضة .

والمحسوب لغيره قسمان أيضاً :

أحدهما : ما يلتذ المُحب بإدراكه وحصوله .

والثاني : ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه إلى المحبوب، كشرب الدواء الكريه، قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع أنه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه ، والنفوس تحب الراحة والدعة والرفاهية ، وذلك شر لها لإفضائه إلى فوات المحبوب ، فالعاقل لا ينظر إلى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها ، والم المكروه العاجل فيرغب عنه .

فإن ذلك قد يكون شراً له، بل قد يجلب عليه غاية الألم ويفوته أعظم اللذة، بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبهم من اللذة بعدها ، وإن كانت

منقطعة. فالأمور أربعة : مكروه يوصل إلى مكروه ، ومكروه يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى محبوب ، ومحبوب يوصل إلى مكروه ، فالمحبوب الموصل إلى المحبوب قد اجتمع فيه داعى الفعل من وجهين ، والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعى الترك من وجهين .

بقى القسمان الآخران يتجاذبهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان، فالنفس تؤثر أقربهما جواراً منها ، وهو العاجل ، والعقل والإيمان يؤثر أنفعهما وأبقاهما ، والقلب بين الداعيين ، وهو إلى هذا مرة ، وإلى هذا مرة ، وهما محل الابتلاء شرعاً وقدرًا ، فداعى العقل والإيمان ينادى كل وقت : حى على الفلاح عند الصباح يحمد القوم السرى ، وفى الممات يحمد العبد التقي ، فإن اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول : يا نفسى اصبرى ، فما هى إلا ساعة ثم تنفضى ، ويذهب هذا كله ويزول .

[الحب أصل كل عمل]

• وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل ، فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة أو شبهة تمنع كمال التصديق فهى معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له ، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر ، وإن لم تعارضه قدحت فى كماله ، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا فى العزيمة والطلب ، وهى تحجب الواصل وتقطع اللطالِب ، وتتكس الراغب ، فلا تصح الموالاة إلا بالمعاداة ، كما قال تعالى عن إمام الخنفاء المحبين أنه قال لقومه : ﴿ قَالُوا أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ٧٥ ﴿ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴾ ٧٦ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٧٥ - ٧٧] .

فلم يصح تحليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة ، فإنه لا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه ، قال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ

وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ﴿٢٦﴾ [الممتحنة: ٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي ظَنَرْتَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨] .

أى جعل هذه الموالاته لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبه يتوارثها لأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة : لا إله إلا الله ، وهى التى ورثها بام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة .

كلمة التوحيد:

وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، عليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهى محض حق الله على جميع العباد ، وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية فى هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهى المنشور الذى لا يدخل أحد الجنة إلا به ، الحبل الذى لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ، وهى كلمة الإسلام ومفتاح دار لسلام، وبها انقسم الناس إلى شقى وسعيد، ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار لكفر من دار الإيمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان، وهى العمود لحامل للفرض والسنة « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة »^(١).

[المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد]

* وروح هذه الكلمة وسرها : أفراد الرب جل ثناؤه وتقديست أسماؤه وتبارك اسمه ، وتعالى جده ، ولا إله غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرغبة ، فلا يحب سواه ، وكل ما يحب غيره فلأنما يحب تبعاً لمحبهه ، وكونه وسيلة إلى زيادة محبهه ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا إليه ، ولا يرهب إلا

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٣/٥)، وأبو داود (٣١١٦). وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٦٣٥٥).

منه ، ولا يُحلفُ إلا باسمه ، ولا يُنذَرُ إلا له ، ولا يُتابُ إلا إليه ، ولا يُطاع إلا أمره ، ولا يُتَّحَسَّبُ إلا به ، ولا يُستَغاثُ في الشدائد إلا به ، ولا يُلْتَجأُ إلا إليه ، ولا يُسجدُ إلا له ، ولا يُذبحُ إلا له وباسمه ، ويجتمع ذلك في حرف واحد وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة ، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ؛ ولهذا حُرِّمَ على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ [المعارج : ٣٣] .

فيكون قائماً بشهادته في ظاهره وباطنه وفي قلبه وقالبه ، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة ، ومنهم من تكون نائمة إذا نبتت التبت ، ومنهم من تكون مضطجعة ، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب . وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن ، فروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب ، وروح إلى الحياة أقرب ، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن .

وفي الحديث الصحيح عنه عليه السلام : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحاً »^(١) ، فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها ، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه ، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها ، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشه أطيب عيش .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ - ٤١] فالجنة مأواه يوم اللقاء .

وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به ، والرضى به ، وعنه مأوى روحه في هذه الدار ، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا كانت جنة الخلد مأواه يوم الميعاد ، ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً ، والأبرار في

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٣٧/١) ، وابن ماجه (٣٧٩٥) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٨٨) .

نعيم وإن اشتد بهم العيش ، وضائق عليهم الدنيا ، والفجار فى جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا . قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وطيب الحياة جنة الدنيا ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥] . فإى نعيم أطيب من شرح الصدر ؟! وأى عذاب أمر من ضيق الصدر ، وقال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا وأنعمهم بالآ ، وأشرحهم صدرًا ، وأسرهم قلبًا ، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة ، قال النبى ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر »^(١) ، ومن هذا قوله ﷺ : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة »^(٢) ، ومن هذا قوله - وقد سأله عن وصاله فى الصوم - « إني لست كهيتكم ، إني أظل عند ربى يطعمنى ويسقبنى »^(٣) ، فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى ، وأن ما يحصل له من ذلك أمر يختص به لا يشاركه فيه غيره ، فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عنه عوض يقوم مقامه ويتوب منابه ، ويغنى عنه كما قيل :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها	عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضىء به	ومن حديثك فى أعقابها حادى
إذا شكت من كلال السير أو عدها	روح اللقاء ، فتحيا عند ميعاد

(١) حديث صحيح: سبق تخريجه.

(٢) حديث صحيح: سبق تخريجه.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣).

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ، وكلما كان عدمه أنفع له كان تألمه بوجوده أشد ، ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله ، واشتغاله بذكره ، وتنعمه بحبه ، وإيثاره لمرضاته ، بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك ، فعدمه ألم شيء له وأشدّه عليه ، وإنما تغيب الروح عن شهود هذا العذاب والألم ، لاشتغالها بغيره ، واستغراقها في ذلك الغير ، فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم الفوات بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها ، وهذه منزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده ، وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بالألم ذلك الفوات وحسرتة ، حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر ، وانتبه من رقدة الخمر ، فهو أعلم بحاله حيثئذ .

وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة ، والإشراف على مفارقة الدنيا ، والانتقال منها إلى الله بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف مضاعفة ، فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبيته في الدنيا بالعوض ، ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له ، فكيف بمن مصيبيته بما لا عوض عنه ، ولا بدل منه ، ولا نسيّة بينه وبين الدنيا جميعها ، فلو قضى الله سبحانه عليه بالموت من هذه الحسرات والألم ، لكان العبد جديراً به ، فإن الموت ليعود أعظم أمنيته وأكبر حسراته ، وهذا لو كان الألم على مجرد الفوات ، فكيف وهناك من العذاب على الروح والبدن بأمور أخرى وجردية مما لا يقدر قدره ؟ فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الألمين الضعيفين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي .

فاعرض الآن على نفسك أعظم محبوب لك في الدنيا ، بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه ، فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه ، أحوج ما كنت إليه ، كيف يكون حالك ؟ هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه ؟ كما قيل :

من كل شيء إذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

وفى أثر إلهي : « ابن آدم ؟ خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، ابن آدم ، اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فأتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من كل شيء » .

[المحبة المحمودة والمحبة المذمومة]

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف ، كان أغلب ما يذكر بها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، وما لا تصلح إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوها ، فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده ، وكذلك إنابة ، وقد تذكر المحبة باسمها المطلق ، كقوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ فِيهِمْ رِجَالٌ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِمَا رُبُّوا بِهِمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ إِذَا دُعِيَ إِلَى اللَّهِ فَيَحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

وأعظم أنواع المحبة المذمومة : المحبة مع الله ، التي يسوَّى المحب فيها بين محبته لله ومحبه للنفس الذي اتخذه من دونه .

وأعظم أنواعها المحمودة : محبة الله وحده ومحبة ما أحب ، وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها ، والمحبة المذمومة شركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها ، فأهل حبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ، ومن دخلها هم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم أحد .

ومدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن المحبة الأخرى ولوازمها ، فسرر الأمثال والمقاييس للنوعين ، وذكر قصص النوعين وتفصيل أعمال النوعين ، وأوليائهم ومعبود كل منهما ، وإخباره عن فعله بالنوعين ، وعن حال نوعين في الدور الثلاثة : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، والقرآن جاء ، شأن النوعين .

وأصل دعوة جميع الرسل - عليهم السلام - من أولهم إلى آخرهم ، إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له ، المتضمنة لكمال حبه ، وكمال الخضوع والذل له ، لإجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة ، والتقوى ، وقد ثبت في «الصحيحين» حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى »

أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»^(١) .

وفى «صحيح البخارى» أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسى ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : والذي بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال : الآن يا عمر »^(٢)

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجوب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله - سبحانه وتعالى - ، ووجوب تقديمها على محبة من سواه ؟ .

ومحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره فى قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها ، فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده ، بل من سمعه وبصره ونفسه التى بين جنبيه ، فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله ، والشئ قد يُحب من وجه دون وجه وقد يُحب بغيره ، وليس شئ يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ، ولا تصلح الألوهية إلا له و ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، والثالث : هو المحبة والطاعة والخضوع .

[الحب أصل الحركة]

* وكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة ، فهى علتها الفاعلية والغائية . وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع : حركة اختيارية وإرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة قسرية . والحركة الطبيعية أصلها السكون ، وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعى ، فهو يتحرك للعود إليه ، وخروجه عن مركزه ومستقره ، إنما هو بتحريك القاسر المحرك له ، فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسره ، وحركة طبيعية بذاتها بطلب بها العود إلى مركزه ، وكلا حركتيه تابعة للقاسر

(١) حديث صحيح : أخرجه البخارى (١٥) ، ومسلم (٤٥) ، وأحمد (٣ / ١٧٧) ، والنسائى (٨ / ١١٥) ، وابن ماجه (٦٧) .

(٢) حديث صحيح : أخرجه البخارى (٦٦٣٢) .

المحرك، فهو أصل الحركتين .

والحركة الاختيارية الإرادية هي أصل الحركتين الأخريين وهي تابعة للإرادة والمحبة، والدليل على انحصار الحركات في هذه الثلاث : أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهي الإرادية ، وإن لم يكن له شعور بها ، فلما أن تكون على وفق طبعه أولاً ، فالأولى هي الطبيعية ، والثانية القسرية ، إذا ثبت هذا فما في السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة في بطون أمهاتها فلانما هي بواسطة الملائكة المدبرات أمراً ، والمقسمات أمراً ، كما دل على ذلك نصوص من القرآن والسنة في غير موضع، والإيمان بذلك من تمام الإيمان بالملائكة فإن الله وكل بالرحم ملائكة ، وبالقطر ملائكة، وبالنبات ملائكة ، وبالرياح ملائكة ، وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ، ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة : كاتبين عن يمينه وشماله ، وحافظين من بين يديه ومن خلفه ، ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها الجنة والنار ، ووكل ملائكة بمساءلته وامتحانه في قبره ، وملائكة بتعذيبه في النار أو نعيمه في الجنة ، ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه حيث أمرت به ، وبالقطر ملائكة تنزل بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ، ووكل بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها والقيام عليها ، وملائكة بالنار كذلك .

فأعظم جند الله الملائكة، ولفظ « الملك » يشعر بأنه رسول منفذ لأمر غيره، وليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كله لله ، وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بأمر الله وإذنه ، قال تعالى إخباراً عنهم : ﴿ وَمَا نُنَزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم: ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِّن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم: ٢٦] .

وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لأمره في الخليفة كما قال تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ ﴾ [الصافات: ١-٣] .

وقال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عُرْفًا ۝١﴾ فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا ۝٢﴾ وَالنَّاشِرَاتُ نَشْرًا ۝٣﴾ فَالْفَارِقَاتُ فَرَقًا ۝٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتُ ذِكْرًا ۝٥﴾ عَذْرًا أَوْ نَذْرًا ﴿[المرسلات: ١-٦]. وقال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتُ غُرْقًا ۝١﴾ وَالنَّاشِطَاتُ نَشْطًا ۝٢﴾ وَالسَّابِقَاتُ سَبْحًا ۝٣﴾ فَالسَّابِقَاتُ سَبْقًا ۝٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا ﴿[النارعات: ١-٥]. وقد ذكرنا معنى ذلك وسر الإقسام به فى كتاب « التبيان فى أقسام القرآن ».

• وإذا عرفت ذلك فجميع تلك المحبات والمحركات والإرادات والأفعال هى عبادة منهم لرب الأرض والسموات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها، فلو لا الحب ما دارت الأفلاك، ولا تحركت الكواكب النيرات، ولا هبت الرياح المسخرات، ولا مرت السحب الحاملات، ولا تحركت الأجنة فى بطون الأمهات، ولا انصدع عن الحب أنواع النبات، ولا اضطربت أمواج الزاخرات، ولا تحركت المدبرات والمقسمات، ولا سبحت بحمد فاطرها الأرضيون والسماءات وما فيها من أنواع المخلوقات، فسبحان من ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿[الإسراء: ٤٤].

[استقرار الكون واستقامته قائم على مبدأ الإله الواحد]

• فإذا عُرِفَ ذلك فكل حى له إرادة ومجبة وعمل بحسبه، وكل متحرك فاصل حركته المحبة والإرادة، ولا صلاح للموجودات إلا بأن تكون لحركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده، كما لا وجود لها إلا بإيداعه وحده؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٢].

ولم يقل سبحانه: لما وجدنا ولكانتا معدومتين، ولا قال: لعدمنا؛ إذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد، لكن لا يمكن أن يكونا على وجه الصلاح والاستقامة إلا بأن يكون الله وحده هو معبودهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما، فلو كان فى العالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد، فإن كل إله كان يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه، وتفردته دونه بإلهيته، إذ الشراكة نقص فى كمال

الإلهية ، والإله لا يرضى لنفسه أن يكون إلهاً ناقصاً ، فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الإله وحده والمقهور ليس بإله ، وإن لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ، ولم يكن تام الإلهية ، فيجب أن يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر ، وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيها ، كما هو المعهود من فساد البلد إذا كان فيه ملكان متكافئان ، وفساد الزوجة إذا كان لها بعلان ، والشول إذا كان فيه فحلان .

وأصل فساد العالم إنما هو من اختلاف الملوك والخلفاء ؛ ولهذا لم يطمع أعداء الإسلام فيه في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد ملوك المسلمين واختلافهم ، وانفراد كل منهم ببلاد ، وطلب بعضهم العلو على بعض .

فصلاح السموات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام من أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ، وأن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى ، قال الله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [٩١ - ٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ [٢١] لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون [٢٢] لا يسأل عما يفعل وهم يسألون [٢٣ - ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] .

ف قيل : لا ابتغوا السبيل إليه بالمغالبة والقهر ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، ويدل عليه قوله في الآية الأخرى : ﴿ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] . قال شيخنا - رضى الله عنه - : والصحيح أن المعنى : لا ابتغوا إليه سبيلاً بالتقرب

إليه وطاعته ، فكيف تعبدونهم من دونه ؟ وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له . قال ويدل على هذا وجوه :

منها قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

أى هؤلاء الذين تعبدونهم من دونى هم عبادى كما أنتم عبادى ، ترجون رحمتى وتخافون عذابى : فلماذا تعبدونهم من دونى ؟ .

الثانى : أنه سبحانه لم يقل : لا بتغوا عليه سبيلاً ، بل قال : ﴿ لا تَبْتَغُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ وهذا اللفظ إنما يستعمل فى التقرب كقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] ، وأما فى المغالبة فإنما يستعمل بـ «ء» كقوله : ﴿ ذَاكَ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٣٤] .

والثالث : أنهم لم يقولوا أن آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه ، وهو سبحانه قد قال : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ وهم إنما كانوا يقولون : إن آلهتهم تبتغى التقرب إليه وتقربهم زلفى إليه ، فقالوا : لو كان الأمر كما تقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له ، فلماذا تعبدون عبيده من دونه ؟ .

[آثار المحبة]

• والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام ، سواء كانت محمودة أو مذمومة ، نافعة أو ضارة : من الوجد ، والذوق ، والحلاوة ، والشوق ، والأنس ، والاتصال بالمحبوب والقرب منه ، والانقصال عنه والبعد منه ، والصد والهجران ، والفرح والسرور ، والبكاء والحزن ، وغير ذلك من أحكامها ولوازمها .

والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة التى تجلب لصاحبها ما ينفعه فى دنياه وآخرته ، وهذه المحبة هى عنوان السعادة ، والضارة هى التى تجلب لصاحبها ما يضره فى دنياه وآخرته ، وهى عنوان الشقاوة .

ومعلوم أن الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه ، وإنما يصدر ذلك عن

بهل وظلم ، فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها ، وذلك من ظلم الإنسان نفسه ، إما بأن تكون جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما فى محبته من المصرة ، وهذا حال من اتبع هواه بغير علم ، وإما عالمة بما فى محبته من ضرر لكن تؤثر هواها على علمها ، وقد تتركب محبتها من أمرين : اعتقاد فاسد . هوى مذموم ، وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الأنفس ، فلا تقع المحبة الفاسدة . من جهل أو اعتقاد فاسد أو هوى غالب ، أو ما تركب من ذلك ، فأغان بعضه نضاً ، فتتفق شبهة وشهوة ، شبهة يشتهى بها الحق بالباطل ، وتزين له أمر المحبوب ، شهوة تدعوه إلى حصوله فيساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل الإيمان ، والغلبة لأقواهما .

وإذا عرف هذا فتوابع كل نوع من أنواع المحبة له حكم متبوعه ، فالمحبة النافعة حمودة التى هى عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له ، فحكمها حكم متبوعها ، فإن يكى نفعه ، وإن حزن نفعه ، وإن فرح نفعه ، وإن انقبض نفعه ، وإن سط نفعه ، فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها فى مزيد وربح وقوة .

والمحبة الضارة المذمومة ، توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه ، فما تقلب فى آثارها ونزل فى منازلها فهو فى خسارة ويعد .

وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة أو معصية ، فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة صاحبه وقرب ، وكل ما تولد عن المعصية فهو خسران لصاحبه ويعد ، قال تعالى : **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيهِمْ ظَمًا وَلَا نَصَبًا وَلَا مَخْمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوَاطِنًا يَبْظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ حَسِينٍ ۝١٢٠** وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۝١٢١

فأخبر سبحانه فى الآية الأولى : أن المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب به عمل صالح ، وأخبر فى الثانية : أن أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسهم ، فرق بينهما : أن الأول ليس من فعلهم ، وإنما تولد عنه ، فكتب لهم به عمل

صالح ، والثانى : نفس أعمالهم ، فكتب لهم .

فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ما له وما عليه .

سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع ، وعند الوزن ما كان حصلاً

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل كما تقدم ، فهى أصل كل دين ، س
أكان حقاً أو باطلاً ، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة ، والمحبة والإر
أصل ذلك كله ، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق ، فهو الطاعة اللازمة للدا
التي صارت خلقاً وعادة ؛ ولهذا فسر الخلق بالدين فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّ
خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقال الإمام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس : « لعللى دين عظيم » .

وسئلت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » ^(١) .

والدين فيه معنى الإذلال والقهر ، وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة ، فلذا
يكون من الأعلى إلى الأسفل ، كما يقال : دنته فدان أى : قهرته فذل ، قال الشاعر

هو دان الرباب إذ كرهوا الد
ين فأضحوا بعزة وصبال

ويكون من الأدنى إلى الأعلى ، كما يقال : دنت الله ودنت لله ، وفلان لا يد
الله ديناً ، ولا يدين الله بدين ، فدان الله ، أى : أطاع الله وأحبه وخافه ، و
الله أى تخشع له وخضع وذل وانقاد .

والدين الباطن لابد فيه من الخضوع ، والحب كالعبادة سواء ، بخلاف الذ
الظاهر ، فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذل فى الظاهر .

وسمى الله سبحانه يوم القيامة ﴿ يوم الدين ﴾ ؛ لأنه اليوم الذى يدين فيه الذ
بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم
فذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب .

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٩١/٦) ، ومسلم : كتاب الصلاة - باب صلاة الليل ومن نام عنه
مرض ، وأبو داود (١٣٤٢) . وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٤٦٨٧) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ (٨٦) **ترجعونها** إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ [الواقعة : ٨٦ - ٨٧] ، أى هلا تردون الروح إلى مكانها إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَرْبُوبِينَ مَقْهُورِينَ وَلَا مُجْزِينَ ، وهذه الآية تحتاج إلى تفسير ، فإنها سبقت للاحتجاج عليهم فى إنكارهم البعث والحساب ، ولابد أن كون الدليل مستلزماً لمطلوبه ، بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول ؛ لما بينهما من التلازم ، فكل الملزوم دليلاً على لازمه ، ولا يجب العكس .

ووجه الاستدلال : أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم ، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته ، فإما أن يقولوا بأن لهم رباً قاهراً متصرفاً فيهم ، كما سيميتهم إذا شاء ، ويحييهم إذا شاء ، ويأمرهم وينهاهم ، ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم ، وإما أن لا يقولوا برب هذا شأنه ، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور ، والدين الأمري والجزائى ، وإن أنكروه كفروا به ، فقد زعموا أنهم غير مَرْبُوبِينَ وَلَا مُحَكَّمِينَ عَلَيْهِمْ وَلَا لَهُمْ رَبٌّ يَتَصَرَفُ فِيهِمْ كَمَا أَرَادَ ، فهلا يقدرُونَ على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم ؟ وهذا خطاب للحاضرين ، عند المحتضر ، وهم يعاينون موته ، أى فهلا تردون الروح إلى مكانها إِنْ كَانَ لَكُمْ قُدْرَةٌ وَتَصَرَفَ ، ولستم بمَرْبُوبِينَ وَلَا مَقْهُورِينَ لِقَاهِرٍ قَادِرٍ ، تمضى عليكم أحكامه ، وتنفذ أوامره ، وهذا غاية التعجيز لهم ، إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ، ولو اجتمع على ذلك الثقلان ، فيالها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ووحدانيته ، وتصرفه فى عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم .

الدين دينان :

والدين دينان : دين شرعى أمرى ، ودين حسابى جزائى ، وكلاهما لله وحده ، فالدين كله أمراً أَوْجِزاً لله ، والمحبة أصل كل واحد من الدينين ، فإن ما شرعه - سبحانه وتعالى - وأمر به فإنه يحبه ويرضاه ، وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه ؛ لمنافاته لما يحبه ويرضاه ، فهو يحب ضده ، فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه .

ودين العبد لله به إنما يقبل إذا كان عن محبته ورضاه ، كما قال النبى ﷺ : « ذاق

طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً^(١) ، فهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ، ولأجلها شرع ، وعليها أسس ، وكذلك دينه الجزائى فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وكل من الأمرين محبوب للرب ، فإنهما عدله وفضله ، وكلاهما من صفات كماله ، وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ، ويحب من يحبها ، وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه سبحانه ، فهو على صراط مستقيم فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، كما قال تعالى إخباراً عن نبيه هود عليه السلام إذ قال لقومه - : ﴿ إِنِّى أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ٥٥ ﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦] .

ولما علم نبي الله هود عليه السلام أن ربه على صراط مستقيم ، فى خلقه وأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وقضائه وقدره ، ومنعه وعطائه ، وعافيته وبلائه ، وتوفيقه وخذلانه ، لا يخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته ، من العدل والحكمة والرحمة ، والإحسان والفضل ، ووضع الثواب موضعه والعقوبة فى موضعها اللائق بها ، ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والإضلال ، كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقة به ، بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء - أوجب له ذلك العلم والعرفان ، إذ نادى على رؤوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله : ﴿ إِنِّى أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىْءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ٥٤ ﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ٥٥ ﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦] .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره لكل ما سواه وذل كل شيء أعظمته فقال : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فكيف أخاف من

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٣٤)، والترمذى (٢٦٢٣)، وأحمد (٢٠٨/١).

ناصيته بيد غيره ، وهو فى قبضته وتحت قهره ، وسلطانه دونه ، وهل هذا إلا من الجهل وأقبح الظلم ؟ .

ثم أخبر أنه سبحانه على صراط مستقيم ، فى كل ما يقضيه ويقدره ، فلا يخاف جوره العبد ولا ظلمه ، فلا أخاف ما دونه ، فإن ناصيته بيده ، ولا أخاف جوره وظلمه ، فإنه على صراط مستقيم ، فهو سبحانه ماض فى عبده حكمه ، عدل فيه قضاؤه ، له الملك وله الحمد ، لا يخرج فى تصرفه فى عبادته عن العدل والفضل ، إن أعطى وأكرم وهدى ووفق فيفضله ورحمته ؛ وإن منع وأهان وأضل وخذل وأشقى فبعدله وحكمته ، وهو على صراط مستقيم فى هذا وهذا .

وفى الحديث الصحيح : « ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك اللهم بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً ، قالوا يا رسول الله ألا نتعلمهن ؟ قال بلى ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن »^(١) ، وهذا يتناول حكم الرب الكونى والأمرى وقضاء الذى يكون باختيار العبد وغير اختياره ، وكلا الحكمين ماض فى عبده ، وكلا القضائين عدل فيه ، فهذا الحديث مشتق من هذه الآية ، بينهما أقرب نسب .

[عشق الصور]

« ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور ، وما فيه من المفساد العاجلة والأجلة ، وإن كانت أضعاف ما ذكره فإكر ، فإنه يفسد القلب بالذات ، وإذا فسد القلب فسدت الإرادات والأقوال والأعمال ، وفسد ثغر التوحيد كما تقدم ، وكما سنقرره أيضاً إن شاء الله تعالى .

والله - سبحانه وتعالى - إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس ، وهم

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (١/٣٩١) - وصححه الألبانى فى صحيح الكلم الطيب (١٠٥) .

اللوطية والنساء ، فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به ، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه ، مع أن الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله ، فإن واقعة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع ، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة ، وذلك من وجوه :

أحدها : ما ركبته الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة ، كما يميل العطشان إلى الماء ، والجائع إلى الطعام ، حتى إن كثيراً من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء ، وهذا لا يذم إذا صادف حلالاً ، بل يُحمد كما في كتاب «الزهد» للإمام أحمد ، من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي ﷺ : «حُبِّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءَ وَالطَّيِّبَ ، أَصْبِرْ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرْ عَنْهُنَّ»^(١).

الثاني : أن يوسف - عليه السلام - كان شاباً ، وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : أنه كان عزباً ، لا زوجة له ولا سرية ، تكسر قوة الشهوة .

الرابع : أنه كان في بلاد غريبة ، يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى لـ في وطنه وبين أهله ومعارفه .

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال ، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعوا إلى مواقعتها .

السادس : أنها غير ممتنعة ولا آبية ، فإن كثيراً من الناس يزيل رغبته في المرأة بإيائها وامتناعها ؛ لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها ، وكثير من الناس يزيده الإباء والامتناع إرادة وحباً ، كما قال الشاعر :

وزادني كَلْفًا في الحب أن منعت أحب شيء إلى الإنسان ما مُنِعَا

فطباع النفس مختلفة فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها ، ويضمحل

(١) حديث صحيح دون الشطر الثاني من الحديث: أخرجه أحمد (١٢٨/٣)، والنسائي (٧/ ٦١، ٦٢) دون زيادة: «أصبر عن الطعام... إلخ». وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١١٩).

عند إباطها وامتناعها ، وأخبرنى بعض القضاة أن إرادته وشهوته تضحل عند امتناع امرأته أو سريره وإباطها ، بحيث لا يعاودها ، ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ، فيشتد شوقه كلما منع ، ويحصل له من اللذة نظير ما يحصل له من اللذة بالظفر بالضد بعد امتناعه وتفاره ، واللذة بإدراك المسألة بعد امتنعها وشدة الحرص على إدراكها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وراودت وبذلت الجهد ، فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها ، بل كانت هى الراغبة الذليلة ، وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها ، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له ، فاجتمع داعى الرغبة والرغبة .

التاسع : أنه لا يخشى أن تنم عليه هى ، ولا أحد من جهتها ، فإنها هى الطالبة لراغبة ، وقد غلقت الأبواب وغيت الرقباء .

العاشر : أنه كان فى الظاهر مملوكاً لها فى الدار ، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ، ولا ينكر عليه ، وكان الانس سابقاً على الطلب ، وهو من أقوى الدواعى ، كما قيل لامرأة شريفة من أشرف العرب : ما حملك على الزنا ؟ قالت : قرب الوساد ، وطول السرار ، تعنى قرب وساد الرجل من وسادتى ، وطول السرار بيننا .

الحادى عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتتيال ، فأرته إياهن وشكت حالها إليهن لتستعين بهن عليه ، فاستعان هو بالله عليهن فقال : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

الثانى عشر : أنها توعدته بالسجن والصغار ، وهذا نوع إكراه ، إذ هو تهديد من يغلب على الظن وقوع ما هدد به ، فيجتمع داعى الشهوة وداعى السلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يظهر من الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ، ويبعد كلا منهما عن صاحبه ، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف : ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ وللمرأة ﴿ اسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ، وشدة الغيرة للرجل

من أقوى الموانع ، وهذا لم يظهر منه غيره .

وسمع هذه الدواعي كلها فآثر مرضاة الله وخوفه ، وحمله حبه لله على أن يختار السجن على الزنى : ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه .

وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الألف فائدة ، لعلنا إن وفق الله أن نفردها فى مصنف مستقل .

[عشق قوم لوط]

• والطائفة الثانية ، الذين حكى الله عنهم العشق : هم اللوطية ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضِيفَى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَأَتَقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧٢] .

فهذه الامة عشقت . فحكاه سبحانه عن طائفتين ، عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ، ولم يبال بما فى عشقه من الضرر .

وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه ، وعز عليهم شفاؤه ، وهو لعمر الله الداء العضال ، والسم القنال ، الذى ما علق بقلب إلا وعز على الورى خلاصه من إيساره ، ولا اشتعلت ناره فى مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره ، وهو أقسام :

نارة يكون كفرًا ، كمن اتخذ معشوقه نداءً ، يحبه كما يحب الله ، فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه ؟ فهذا عشق لا يُغفر لصاحبه ، فإنه من أعظم الشرك ، والله لا يغفر أن يشرك به ، وإنما يغفر بالتوبة الماحية ما دون ذلك .

وعلاوة العشق الشركى الكفرى : أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على ربه ، وإذا تعارض عنده حق معشوقه وحظه وحق ربه ، وطاعته ، قدم حق معشوقه على حق

ربه وآثر رضاه على رضاه ، وبذل له أنفس ما يقدر عليه ، وبذل لربه - إن بذل -
أرداً ما عنده ، واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه ، وجعل لربه
- إن أطاعه - الفضلة التي تفضل عن معشوقه من ساعاته .

فتأمل حال أكثر عشاق الصور ، تجدها مطابقة لذلك ، ثم ضع حالهم في كفة ،
توحيدهم ، وإيمانهم في كفة ، ثم رن وزنًا يرضى الله به ورسوله ويطابق العدل ،
ربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب إليه من توحيد ربه ، كما قال
لعاشق الخبيث :

يترشفن من فمى رشقات هن أحلى فيه من التوحيد^(١)

وكما صرح الخبيث الآخر أن وصله أشهى إليه من رحمة ربه ، وقد مرَّ .

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك ، وكثير منهم يصرح بأنه لم يبق في قلبه
موضع لغير معشوقه البتة ، بل قد ملك عليه قلبه كله ، فصار عبداً محضاً من كل
وجه لمعشوقه ، فقد رضى هذا من عبودية الخالق - جل جلاله - بعبودية مخلوق مثله ،
فإن العبودية هي كمال الحب والخضوع ، وهذا قد استفرغ قوة حبه وخضوعه وذله
لمعشوقه ، فقد أعطاه حقيقة العبودية .

ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة ، فإن تلك ذنب كبير ،
لفاعله حكم أمثاله ، ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك ، وكان بعض الشيوخ من
العارفين يقول : لأن ابتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلى من أن ابتلى فيها
بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله .

[دواء العشق]

* ودواء هذا الداء القتال : أن يعرف أن ما ابتلى به من هذا الداء المضاد
للتوحيد إنما هو من جهله وغفلة قلبه عن الله تعالى ، فعليه أن يعرف توحيد
ربه وسننه أولاً ، ثم يأتى من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام
الفكرة فيه ، ويكثر اللجأ والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه ، وأن

(١) البيت للمتنبي ، وهو مما أخذ عليه .

يراجع بقلبه إليه ، وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله ، وهو الدواء الذى ذكره الله فى كتابه حيث قال : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه ، فإن القلب إذا أخلص ، وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور ، فإنه إنما يتمكن من قلب فارغ ، كما قال :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها ، وإعدام المفاسد وتقليلها ، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة ، وجب عليه أمران ، أمر علمى وأمر عملى ، فالعلمى : طلب معرفة الراجح من طرفى المصلحة والمفسدة ، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إثارة المصلح له .
أضرار العشق :

ومن المعلوم : أنه ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية ، بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة ، وذلك من وجوه :

أحداها : الاشتغال بحب المخلوق وذكره عن حب الرب تعالى وذكره ، فلا يجتمع فى القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما الآخر ، ويكون السلطان والغلبة له .

الثانى : عذاب قلبه به ، فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد ، كما قيل :

فما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكياً فى كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق

فيكى إن نأوا شوقاً إليهم ويبكى إن دنوا حذر الفراق

فتسخن عينه عند الفراق وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وإن استعذبه صاحبه ، فهو من أعظم عذاب القلب .

الثالث : أن قلبه أسير فى قبضة غيره يسومه الهوان ، ولكن لسكرته لا يشعر

مصابه ، فقلبه كعصفور فى كف طفل يسومها حياض الردى ، والطفل يلهو ويلعب ،
كما قال بعض هؤلاء :

ملكنت فؤادى بالقطيعه والجفا وأنت خلى البال تلهو وتلعب

فعيش العاشق عيش الأسير الموثق ، وعيش الخلى عيش المسيب المطلق ، والعاشق
كما قيل :

طليق برأى العين وهو أسير عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى فى صورة الحى غادياً ولبس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه فليس له حتى الممات حضور

الرابع: أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه ، فليس شىء أضيع لمصالح الدين
والدنيا من عشق الصور ، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب وإقباله
على الله ، وعشق الصور أعظم شىء تشعيثاً وتشيناً له .

وأما مصالح الدنيا فهي تابعة فى الحقيقة لمصالح الدين ، فمن انفرطت عليه
مصالح دينه وضاعت عليه ، فمصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس: أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار فى يابس
الخطب .

وسبب ذلك أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله ، فأبعد
لقلوب من الله قلوب عشاق الصور ، وإذا بعد القلب من الله طرقت الآفات وتولاه
لشيطان من كل ناحية ، واستولى عليه ، لم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله ،
ما الظن بقلب تمكن منه عدوه ، وأحرص الخلق على غيه وفساده ، وبعد منه وليه
من لا سعادة ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ؟ .

السادس: أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث
لوسواس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها .

وأخبار العشاق فى ذلك موجودة فى مواضعها ، بل بعضها مشاهد بالعيان ،

وأشرف ما فى الإنسان عقله ، وبه يتميز عن سائر الحيوانات ، فإذا عدم عقله التحق بالحيوان البهيم ، بل ربما كان حال الحيوان أصلح من حاله ، وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا العشق ؟ وربما زاد جنونه على جنون غيره ، كما قيل :

قالوا: جنت بمن تهوى فقلت لهم: العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون فى الحين

السابع: أنه ربما أفسد الحواس أو بعضها ، إما إفساداً معنوياً أو صورياً ، أما الفساد المعنوى فهو تابع لفساد القلب ، فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان ، فيرى القبيح حسناً منه ومن معشوقه ، كما فى «المسند» مرفوعاً: «حبك الشيء يعمى ويصم»^(١) فهو يعمى عين القلب عن رؤية مساوىء المحبوب وعيوبه ، فلا ترى العين ذلك ، ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه ، فلا تسمع الأذن ذلك ، والرغبات تستر العيوب ، فالراغب فى شيء لا يرى عيوبه ، حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه ، فشدة الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو به ، كما قيل :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت قطعت نفسى ألومها

والداخل فى الشيء لا يرى عيوبه ، والخارج منه الذى لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ، ولا يرى عيوبه إلا من دخل فيه ثم خرج منه ؛ ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا فى الإسلام بعد الكفر خيراً من الذين ولدوا فى الإسلام .

قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : « إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد فى الإسلام من لم يعرف الجاهلية » .

وأما فساد الحواس ظاهراً فإنه يُمرض البدن وينهكه ، وربما أدى إلى تلفه ، كما هو المعروف من أخبار من قتلهم العشق .

(١) حديث ضعيف: أخرجه أبو داود (٥١٣٠) ، وأحمد (٤٥٠ / ٦) . وضعفه الألبانى فى «الضعيفة» (١٨٦٨) ، و«ضعيف الجامع» (٢٦٨٧) .

وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدًا على عظم ، فقال : ما شأن هذا ؟ قالوا : به العشق ، فجعل ابن عباس يستعيد من العشق عامة يومه .

الثامن : أن العشق كما تقدم هو الإفراط في المحبة ، بحيث يستولى المعشوق على قلب العاشق ، حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه ، بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه ، فعند ذلك تشتغل النفس عن استخدام القوة الحيوانية والنفسانية فتعطل تلك القوى ، فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعز دواؤه ويعتذر فتغير أفعاله وصفاته ومقاصده ، ويختل جميع ذلك فتعجز البشر عن صلاحه ، كما قيل :

الحب أول ما يكون لـجاجة يأتى بها وتسوقه الأقدار

حتى إذا خاض الفنى لجح الهوى جاءت أمور لا نطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة ، وأوسطه هم وشغل قلب وسقم ، وآخره عطب قتل ، إن لم تتداركه عناية من الله تعالى ، كما قيل :

وعش خاليًا فالحب أوله عنى وأوسطه سقم ، وآخره قتل

وقال الآخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

والذنب له ، فهو الجانى على نفسه ، وقد قعد تحت المثل السائر « يداك أوكتا وك نفخ »^(١) .

(١) هذا مثل ، وأصله أن رجلاً كان في جزيرة من جزر البحر ، فأراد أن يعبر على رق قد نفخه ، فلم يحسن إحكامه حتى إذا توسط البحر خرجت منه الريح ففرق ، فلما غشيه الموت امتعاث برجل فقال له : « يداك أوكتا وفوك نفخ » يضرب لمن يجنى على نفسه ، وأوكتى القربة ، أى ربطها .

[مقامات العاشق]

* والعاشق له ثلاث مقامات : مقام ابتداء ، ومقام توسط ، ومقام انتهاء .

فأما مقام ابتدائه ، قالوا : يجب عليه فيه مدافعة بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذراً قدرًا وشرعًا ، فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبة - وهذا مقام التوسط والانتهاء - فعليه كتمان ذلك ، وأن لا يفشيه إلى الخلق ، ولا يشمت بمحبوبة ويهتك بين الناس ، فيجمع بين الشرك والظلم ، فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم ، وربما كان أعظم ضررًا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله ، فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه إلى وقوع الناس فيه وانقسامهم إلى مصدق ومكذب ، وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة ، وإذا قيل : فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون . وخبر العاشق المتهتك عند الناس في هذا الباب يقيد القطع اليقيني ، بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبًا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزمًا لا يحتمل النقيض ، بل لو جمعهما مكان واحد اتفقا جزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما ، وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبه والأوهام والأخبار الكاذبة ، كجزمهم بالحسيات المشاهدة ، وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة حبشية رسول الله ﷺ المبرأة من فوق سبع سموات ، بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر ، حتى هلك من هلك ، ولولا أن تولى الله سبحانه وتعالى براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمرًا آخر .

* والمقصود : أن في إظهار المبلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وإذا ما هو عدوان عليه وعلى أهله ، وتعرض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه ، فإستعان عليه بمن يستميله إليه ، إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر ، وصار ذلك الواسطة ديوًا ظالمًا ، وإذا كان النبي ﷺ قد لعن الرائش^(١) - وهو الواسطة بين

(١) حديث منكر: أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٩) . وضعفه الألباني في «الضعيفة» (١٢٣٥) . وضعفه

الراشى والمرتشى فى إيصال الرشوة - فما ظنك بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق فى الوصل ، فيتساعد العاشق والديوث على ظلم المعشوق وظلم غيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه فى نفس أو مال أو عرض؟ فإنه كثيراً ما يتوقف المطلوب فيه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه ، وكم من قتيل ظلّ دمه^(١) بهذا السبب من زوج وسيد وقريب، وكم خبيّت امرأة على بعليها وجارية وعبيد على سيدهما، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه^(٢)، وهو من أكبر الكبائر.

وإذا كان النبى ﷺ قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه^(٣) ، أو أن يستام على سوم أخيه ، فكيف بمن يسعى فى التفريق بين رجل وبين امرأته وأمه حتى يتصل بهما ؟ . وعشاق الصور ومساعدوهم من الدياثة^(٤) لا يرون ذلك ذنباً ، فإن طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ، ففى ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة ، وإن لم يربُ عليها ، ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة ، فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة ، فإن من ظلم الوالد بإفساد ولده وقلته كبده ومن هو أعز عليه من نفسه ، وظلم الزوج بإفساد حبيبته والجناية على فراشه ، أعظم ممن ظلمه بأخذ ماله كله ؛ ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه أخذ ماله ، ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه ، فياله من ظلم أعظم إثماً من فعل الفاحشة ، فإن كان ذلك حقاً لغارٍ فى سبيل الله وقف له الجانى الفاعل يوم القيامة ، وقيل له : « خذ من حسناته ما شئت »^(٥) ، كما أخير بذلك النبى ﷺ ، ثم قال النبى ﷺ : « فما ظنكم ؟ » ، أى فما تظنون يبقى له من حسناته ؟ فإن انضاف إلى ذلك أن يكون المظلوم جاراً ، أو ذا رحم محرم ، تعدد الظلم فصار ظلماً مؤكداً لقطيعة الرحم وإيذاء الجار ، ولا يدخل الجنة قاطع

(١) ظلّ دمه: أى: أهدر، فلم يقتصر به، ولم تأخذ له دية.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٣٩٧/٢)، وأبو داود (٢١٧٥). وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥٣١٣) : « خيب المرأة على زوجها: ما زال يخدعها ويقويها حتى أفدها عليه ».

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخارى (٥١٤٢ / ٢٧٢٧)، ومسلم (٨ - ١٤).

(٤) الدياثة: فتح الدال والياء ، جمع ديوث، وهو الذى لا يغار على أهله.

(٥) حديث صحيح: سبق تخريجه.

رحم»^(١) ولا «من لا يأمن جاره بوائقه»^(٢).

فإن استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين من الجن - إما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك - ضم إلى الشرك والظلم كفر السحر ، فإن لم يفعله هو ورضى به كان راضياً بالكفر غير كاره لحصول مقصده ، وهذا ليس ببعيد من الكفر .

*** والمقصود :** أن التعاون في هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان .

وأما ما يقرن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فأمر لا يخفى ، فإنه إذا حصل له مقصوده من المعشوق قللمعشوق أغراض أخر يريد من العاشق إعانته عليها ، فلا يجد من إعانته بدءاً ، فبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان ، فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من يتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه ، والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفاً على ظلمه ، فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي فيها ظلم الناس ، فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبح لتعاونهما بذلك على الظلم ، كما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين ، من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبعث ، حتى ربما يسعى له في منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله ، وفي تحصيل مال من غير حله ، وفي استغلاله على غيره ، فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا في جانب المعشوق ظالماً كان أو مظلوماً ، هذا إلى ما يتضم إلى ذاك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم ، والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانة أو بحين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك ، وربما أدى ذلك إلى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به إلى معشوقه .

*** فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ من عشق الصور ، وربما حمل على الكفر الصريح ، وقد تنصر جماعة ممن نشأوا في الإسلام بسبب العشق ،**

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (١٤/٣) ، والبخاري (٥٩٨٤) ، ومسلم - كتاب البر - باب صلة

الرحم ، والترمذي (١٩٠٩) ، وأبو داود (١٦٩٦٦)

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٦٠١٦) ، ومسلم - كتاب الإيمان - باب تحريم إيذاء الجار .

كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر امرأة جميلة على سطح ، ففتن بها ونزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت : هي نصرانية فإن دخلت في ديني تزوجت بك ، ففعل ، فرقى في ذلك اليوم على درجة عندهم ، فسقط منها ، فمات . ذكر هذا عبد الحق في كتاب العاقبة له .

وإذا أراد النصراني أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه في نفسها ، حتى إذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل في دينها ، فهناك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وفي العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه بمعارنته له على الفاحشة ، وظلمه لنفسه ما فيه ، وكل منها ظالم لنفسه وصاحبه ، وظلمهما متعدد إلى الغير كما تقدم ، وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك ، فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها ، والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف ، وذلك ظلم منه ، بأن يطمعه في نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق ، حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه ، لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه ، فهو يسومه العذاب ، والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفى نفسه منه ، ولا سيما إن جاد بالوصال لغيره ، فكم للعشق من قتل من الجانبين ، وكم قد أزال من نعمة ، وأفقر من غنى ، وأسقط من مرتبة ، وشتت من شمل ، وكم أفسد من أهل للرجل وولده ، فإن المرأة إذا رأت بعلمها عاشقا لغيرها اتخذت هي معشوقا لنفسها ، فيصير الرجل مترددا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة ، فمن الناس من يؤثر هذا ، ومنهم من يؤثر هذا .

* فعلى العاقل أن لا يحكم على نفسه عشق الصور لئلا يؤديه ذلك إلى هذه المفاسد أو أكثرها أو بعضها ، فمن فعل ذلك فهو المقرط بنفسه والمغرور بها ، فإذا ملكك فهو الذي أهلكها ، فلو لا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه ، فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع ، فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الإيأس من ذلك لم يحدث له

العشق ، فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشتغل قلبه به لم يحدث له ذلك ، فإن أطال مع ذلك الفكر فى محاسن المعشوق ، وقارنه خوف ما هو أكبر عنده من لذة وصاله ، إما خوف دينى ، كخوف النار وغضب الجبار واحتقاب الأورار ، وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر ، لم يحدث له ذلك العشق ، فإن فاته هذا الخوف فقارنه خوف دنيوى ، كخوف إتلاف نفسه أو ماله ، أو ذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس ، وسقوطه من عين من يعز عليه ، وغلب هذا الخوف لداعى العشق دفعه ، وكذلك إذا خاف من قوات محبوب هو أحب إليه وأنفع من ذلك المعشوق ، وقدم محبته على محبة ذلك المعشوق اندفع عنه العشق ، فإن انتفى ذلك كله وغلبت محبة المعشوق لذلك انجذب إليه القلب بكلية ، ومالت إليه النفس كل الميل .

فإن قيل : قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده ، فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التى من جملتها : رقة الطبع ، وترويح النفس وخفتها ، وزوال ثقلها ، ورياضتها ، وحملها على مكارم الأخلاق ، من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ، ولطف الجانب ؟

وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازى : إن ابنك قد عشق فلانة ، فقال : الحمد لله الذى صيره إلى طبع آدمى .

وقال بعضهم : العشق دواء أفئدة الكرام .

وقال غيره : العشق لا يصلح إلا لذى مروءة ظاهرة وخليقة طاهرة ، أو لذى لسان فاضل وإحسان كامل ، أو لذى أدب بارع وحسن ناصع .

وقال آخر : العشق يشجع جنان الجبان ، ويصفى ذهن الغبى ، ويسخى كف البخيل ، ويذل عزة الملوك ، ويسكن نوافر الأخلاق ، وهو أنيس من لا أنيس له ، وجليس من لا جليس له .

وقال آخر : العشق يزيل الأنقال ، ويلطف الروح ، ويصفى كدر القلب ، ويوجب الارتياح لأفعال الكرام ، كما قال الشاعر :

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم
 كريم يميت السر حتى كأنه
 يود بأن يمسي سقيماً لعلها
 ويهتز للمعروف في طلب العلا
 فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق .

وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ، ويهذب الأخلاق ، وإظهاره
 طبيعي ، وإضمماره تكليفي .

وقال آخر : من لم يهيج نفسه بالصوت الشجي ، والوجه البهي فهو فاسد المزاج ،
 يحتاج إلى علاج ، وأنشدوا في ذلك :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
 وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
 فأنت وعير في القلاة سواء
 وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى
 فقم فاعتلف تبناً ، فأنت حمار
 وقال بعض العشاق أولى العفة والصيانة : عفوا تشرفوا ، واعشقوا تظفروا .

وقيل لبعض العشاق : ما كنت تصنع بمن تهوى لو ظفرت به ؟ فقال : كنت أمتع
 طرفي بوجهه ، وأروح قلبي بذكره وحديثه ، وأستر منه ما لا يحب كشفه ، ولا
 أصير بقبیح الفعل إلى ما ينقض عهده ، ثم أنشد :

أخلو به ، فأعف عنه تكرماً
 خوف الديانة ، لست من عشاقه
 كالماء في يد صائم يلتذه
 ظمأ ، فيصبر عن لذيذ مذاقه

وقال أبو إسحاق بن إبراهيم : أرواح العشاق عطرة لطيفة ، وأبدانهم رقيقة
 خفيفة ، نزهتهم المؤانسة ، وكلامهم يحيى موات القلوب ، ويزيد في العقول ، ولولا
 العشق لبطل نعيم الدنيا .

وقال آخر : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته ضرك ، وإن أكثرته منه قتلك ، وفى ذلك قيل :

خليلى ! إن الحب فيه لذاعة وفيه شقاء دائم وكروب
على ذاك ما عيش يطيب بغيره ولا عيش إلا بالحبيب يطيب
ولا خير فى الدنيا بغير صباة ولا فى نعيم ليس فيه حبيب

وذكر الخرائطى عن أبى غسان قال : مر أبو بكر الصديق رضى الله عنه بجارية وهى تقول :

وهويته من قبل قطع تمائى متميلاً مثل القضيب الناعم

فسألها : أحررة أنت أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة ، فقال : من هواك ؟ فتلكأت ، فأقسم عليها ، فقالت :

وأنا التى لعب الهوى بفؤادها قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشترها من مولاهها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب ، فقال : هؤلاء فتن الرجال ، وكم والله مات بهن كريم ، وعطب بهن سليم^(١) . وجاءت جارية إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه تستعدي على رجل من الأنصار ، فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ قالت : كلفت يا أمير المؤمنين بابتن أخيه ، فما أنفك أراعيه ، فقال عثمان : إما أن تهبها لابن أخيك ، أو أعطيك ثمنها من مالى ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

ونحن لا ننكر فساد العشق الذى متعلقه فعل الفاحشة بالمعشوق ، وإنما الكلام فى العشق العفيف ، من الرجل الطريف ، الذى يأبى له دينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله ، وما بينه وبين معشوقه بالحرام ، وهذا عشق السلف الكرام والأئمة الأعلام : فهذا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة عشق حتى اشتهر أمره ، ولم ينكر عليه ، وعد ظالماً من لأمه ، ومن شعره :

(١) محمد بن القاسم لم يدرك أباً بكر الصديق ، فالظاهر أن كلمة الصديق مقحمة لا أصل لها والخرائطى ليس بمن يوثق بنقله .

كتمت الهوى حتى أضربك الكتم . ولاملك أقوام ، ولومهم ظلم
فَمَّ عليك الكاشحون وقبلهم عليك الهوى قد نم، لو يتفع الكتم
فأصبحت كالهندى إذ مات حسرة على إثر هند أو كمن شفه سقم
تجنببت إنيان الحبيب تأثماً ألا إن هجران الحبيب هو الإثم
فدق هجرها قد كنت تزعم أنه رشاد ألا يا ربما كذب الزعم

وهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه المشهور لجارية فاطمة بنت عبد الملك، وكانت جارية بارعة الجمال ، وكان معجباً بها ، وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له فتأبى ، ولم تزل الجارية فى نفس عمر ، فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت ، وكانت مثلاً فى حسنها وجمالها ، ثم دخلت على عمر ، وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجباً بجاريتى فلانة ، وسألتها ، فأبيت عليك ، والآن قد طابت نفسى لك بها ، فلما قالت له ذلك استبان القرح فى وجهه ، وقال : عجلنى علىَّ بها ، فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً ، وقال لها : ألقى ثيابك ، ففعلت ، ثم قال لها : على رسلك ، أخبرينى لمن كنت ؟ ومن أين صرت لفاطمة ، فقالت : أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالاً ، وكنت فى رقيق ذلك العامل ، فأخذنى وبعث بى إلى عبد الملك فوهبنى لفاطمة ، قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وهل ترك ولدأ ؟ قالت : نعم ، قال : فما حالهم ؟ قالت : سيئة ، فقال شدى عليك ثيابك ، واذهبى إلى مكانك ، ثم كتب إلى عامله على العراق : أن ابعث إلىَّ فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلىَّ جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعته إليه ، ثم قال له : إياك وإياها ، فلعل أباك قد أَلَمَّ بها ، فقال الغلام : هى لك يا أمير المؤمنين ، قال : لا حاجة لى بها ، قال : قابتها منى ، قال : لست إذا بمن نهى النفس عن الهوى ، فلما عزم الفتى على الانصراف بها قالت : أين وجدك بى يا أمير المؤمنين ؟ قال : على حاله ، ولقد زاد ولم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات رحمه الله .

وهذا أبو بكر محمد بن داود الظاهري العالم المشهور في فنون العلم من الفقه والحديث والتفسير والأدب، وله قوله في الفقه وهو من أكابر العلماء، وعشقه مشهور.

قال نَفْطَوِيه : دخلت عليه في مرضه الذي مات فيه فقلت : كيف تجدك ؟ فقال : حب من تعلم أورثني ما ترى ، فقلت : وما يمنعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع على وجهين :

أحدهما : النظر المباح ، والآخر : اللذة المحظورة ، فأما النظر المباح فهو الذي أورثني ما ترى ، وأما اللذة المحظورة فيمنعني منها ما حدثني أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا عَلِيّ بن مسهر عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه : « من عشق وكنم وعف وصبر غفر الله له وأدخله الجنة » ، ثم أنشد :

انظر إلى السحر يجرى في لواحظه وانظر إلى دعج^(١) في طرفه الساجي
وانظر إلى شعرات فوق عارضه كأنهن نَمَالٌ دَبَّ في عاج
ثم أنشد :

ما لهم أنكروا سواداً بخديه ولا ينكرون ورد الغصون ؟
إن يكن عيب خده أن برد الشعر فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له : نفيت القياس في الفقه وأثبتته في الشعر ؟ فقال : غلبة الوجد وملكة النفس دعت إليه ، ثم مات من ليلته ، ويسبب معشوقه صنف كتاب الزهرة .
ومن كلامه فيه : « من يش عن يهواه ولم يمت في وقته سلاه ، وذلك أول روعات النفس تأتي القلب وهو غير مستعد لها ، فأما الثانية فإنها تأتي القلب وقد وطأته لها الروعة الأولى » .

والتقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن عليّ بن عيسى الوزير فتناظرا في مسألة من الإيلاء ، فقال له ابن سريج : أنت بأن تقول : من دامت لحظاته كثرت حسراته ، أحذق منك بالكلام على الفقه ، فقال : لئن كان ذلك ، فإني أقول :

(١) الدعج : سواد العينين مع سعتهما . وطرف ساج : ساكن .

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنه يصب على الصخر الأصم تهديما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري فلولا اختلاسي وده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فلست أرى وداً صحيحاً مسلماً

فقال له أبو العباس بن سريج : بم تفخر على ؟ ولو شئت لقلت :

ومطاعم كالشهد في نعماته قدبت أمتعته لذبذ سناته^(١)
بصبابة وبحسنه وحديثه وأنزه اللحظات عن وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ولي بخاتم ربه وبراته^(٢)

فقال أبو بكر : يحفظ عليه الوزير ما أقر به حتى يقيم شاهدين على أنه ولي
بخاتم ربه وبراته ، فقال ابن سريج : يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك :

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما
فضحك الوزير ، وقال : لقد جمعتما لطفًا وظرفًا . ذكر ذلك أبو بكر الخطيب
في تاريخه .

وجاءته يوماً فتيا مضمونها :

يا ابن داود، يا فقيه العراق أفتنا في قوائل الأحداق
هل عليها بما أتت من جناح أم حلال لها دم العشاق؟
فكتب الجواب بخطه تحت البيتين :

عندي جواب مسائل العشاق فاسمعه من قريح الحشا مشتاق
لما سألت عن الهوى هيجتنى وأرقت دمعاً لم يكن بمراق
إن كان معشوقاً يعذب عاشقاً كان المعذب أنعم العشاق

(١) جمع منة، وهي مقدمات النوم.

(٢) أى : كما برأه الله، يريد أنه لم يمس بسوء، أو براته.

قال صاحب كتاب « منازل الأحباب » ، شهاب الدين محمد بن سليمان بن فهد صاحب كتاب « الإنشاء » : وقلت في جواب البيتين على قافيتهما مجيباً :

قل لمن جاء سائلاً عن لحاظ هن يلعبن في دم العشاق
ما على السيف في الورا من جناح إن ثنى الحد عن دم مهراق
وسيوف اللحاظ أولى بأن تصد فح عما جنت على العشاق
إنما كل من قتلن شهيد ولهذا يفنى ضناً وهو باق

ونظير ذلك فتوى وردت على الشيخ أبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوزاني شيخ الحنابلة في وقته رحمه الله :

قل للإمام أبي الخطاب مسألة جاءت إليك وما خلق سواك لها
ماذا على رجل رام الصلاة فمذ لاحت لخاطره ذات الجمال لها^(١)
فأجاب تحت سؤاله :

قل للأديب الذي وافى بمسألة سرّت قوادى لما أن أصخت لها
إن التى فتنه عن عبادته خريدة ذات حسن فانشى ولها
إن تاب ثم قضى عنه عبادته فرحمة الله تغشى من عصى ولها

وقال عبد الله بن معمر القيسى : حججت سنة ثم دخلت ذات ليلة مسجد المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ ، فبينما أنا جالس بين القبر والمنبر إذ سمعت أنيئاً فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

أشجاك نوح حمائم الصدر^(٢) فأهجن منك بلابل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية أهدت إليك وساوس الفكر
يا ليلة طالت على دنف^(٣) يشكو السهاد وقلة الصبر

(١) من اللهو: أى: شغل عن الصلاة.

(٢) شجرة النبق.

(٣) الدنف: الذى أضناه الهوى وأسقمه الغرام.

أسلمت من نهوى لخر جوى متوقد كتوقد الجمر
فالبدر يشهد أننى كلف مغرى بحب شبيهة البدر
ما كنت أحسبني أهيم بها حتى بليت وكنت لا أدرى

ثم انقطع الصوت فلم أدر من أين جاء ، وإذا به قد عاد البكاء ثم أنشد يقول :

أشجاك من ريا خيال زائر والليل مسود الذوائب عاكر
وأغتيال مهجتك الهوى برسيه^(١) واهتاج مقلتك الخيال الزائر
ناديت ريا والظلام كأنه يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كأنه ملك ترجل والنجوم عساكر
ونرى به الجوزاء ترقص فى الدجى رقص الحبيب علاه سكر ظاهر
ياليل طلت على محب ماله إلا الصباح مساعد ومؤازر
فأجابنى : مت حتف أنفك واعلمن أن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : وكنت ذهبت عند ابتدائه بالأبيات فلم ينتبه إلا وأنا عنده ، فرأيت شاباً مقتبلاً شبايه قد خرق الدمع فى خده خرقين ، فسلمت عليه فقال : اجلس ، من أنت ؟ فقلت : عبد الله بن معمر القيسى ، قال : ألك حاجة ؟ قلت : نعم ، كنت جالساً فى الروضة فما راعنى إلا صوتك ، فبنفسى أفديك ، فما الذى تجد ؟ فقال : أنا عتبة بن الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى ، غدوت يوماً إلى مسجد الأحزاب فصليت فيه ثم اعتزلت غير بعيد ، فإذا أنا بنسوة أقبلن يتهادين مثل القطا ، وإذا فى وسطهن جارية بديعة الجمال ، كاملة الملاحه ، فوقفت على فقالت : يا عتبة ، ما تقول فى وصل من يطلب وصلك ؟ ثم تركتنى وذهبت فلم أسمع لها خبراً ، ولا قفوت لها أثراً ، فانا حيران أنتقل من مكان إلى آخر ، ثم صرخ وأكب مغشياً عليه ، ثم أفاق كأنما صبغت وجنتاه بورس^(٢) ثم أنشد :

(١) الرس هو حديث النفس

(٢) نبت أصفر يعرف الآن بالكركم ، أو هو الزعفران .

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة فيا هل تروني بالفؤاد على بعدى ؟
 فؤادى وطرفى يأسفان عليكم وعندكم روحى وذكركم عندى
 ولست ألد العيش حتى أراكم ولو كنت فى الفردوس فى جنة الخلد

فقلت : يا ابن أخى تب إلى ربك واستغفره من ذنبك ، فبين يديك هول
 المطلع ، فقال : ما أنا بسال حتى يزوب القارطان ، ولم أزل معه إلى أن
 طلع الصباح ، فقلت : قم بنا إلى مسجد الأحزاب ، ففعل الله أن يكشف
 كربتك ، فقال : أرجو ذلك إن شاء الله ببركة طاعتك ، فذهبنا حتى أتينا مسجد
 الأحزاب فسمعته يقول :

يا للرجال ليوم الأربعاء أما ينفك يحدث لى بعد النهى طربا
 ما أن يزال غزال منه يقتلنى يأتى إلى مسجد الأحزاب منتقبا
 يخبر الناس أن الأجر همته وما أتى طالباً للخير محتسبا
 لو كان يبغي ثواباً ما أتى صلواً مضمخاً بفيت المسك مختضباً

ثم جلسنا حتى صلينا الظهر ، وإذا بالنسوة قد أقبلن وليست الجارية فيهن ،
 فوقفن عليه ، وقلن له : يا عتبة ما ظنك بطلابة وصلك وكاسفة بالك ؟ قال : وما
 بالها ، قلن : أخذها أبوها وارتحل بها إلى أرض السماوة^(١) ، فسألتهن عن الجارية ،
 فقلن : هى ريا بنت الغطريف السلمى ، فرفع عتبة رأسه إليهن وقال :

خليلى ، ريا قد أجد بكورها وسارت إلى أرض السماوة غيرها
 خليلى ، إنى قد عشيت من البكا فهل عند غيرى مقلة أستعيرها ؟

فقلت له : إنى قد وردت بمال جزيل أريد به أهل السر ، ووالله لأبذلنه أمامك
 حتى تبلغ رضاك وفوق الرضى ، فقم بنا إلى مسجد الأنصار فقمنا وسرنا حتى
 أشرفنا على ملائمة منهم فسلمت فأحسنوا الرد ، فقلت : يا أيها الملاء ما تقولون فى عتبة
 وأبيه ؟ قالوا : من سادات العرب ، قلت : فإنه قد رمى بداهية من الهوى ، وما

(١) بادية بين الكوفة والشام .

زيد منكم إلا المساعدة إلى السماوة ، فقالوا : سمعاً وطاعة ، فركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سليم ، فأعلم الغطريف بنا فخرج مبادراً فاستقبلنا وقال : حييتم يا كرام ، فقلنا : وأنت فحياك الله ، إنا لك أضياف ، فقال : نزلتم أكرم منزل ، ثم نادى : يا معشر العبيد أنزلوا القوم ، ففرشت الأنطاع^(١) والنمارق^(٢) وذبحت الذبائح ، فقلنا : لسنا بذائقى طعامك حتى تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب عقيلتك^(٣) الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنذر ، فقال : إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها وأنا أدخل أخبرها ، ثم دخل مغضباً على ابنته ، فقالت : يا أبت ما لى أرى الغضب فى وجهك ؟ فقال : قد ورد الأنصار يخطبونك منى ، فقالت : سادات كرام ، استغفر لهم النبى ﷺ ، فلمن الخطبة منهم ؟ قال : لعتبة ، قالت : والله لقد سمعت عن عتبة هذا : إنه يفى بما وعد ، ويدرك إذا فصد ، فقال : أقسمت لا أزوجك به أبداً ، ولقد غمى إالى بعض حديثك معه ، فقالت : ما كان ذلك ، ولكن إذ أقسمت فإن الأنصار لا يردون رداً قبيحاً ، حسن لهم الرد ، فقال : بأى شىء ؟ قالت : أغلظ عليهم المهر ، فإنهم يرجعون ولا يجيبون ، فقال : ما أحسن ما قلت ! فخرج مبادراً ، فقال : إن فتاة الحى قد أجابت ولكنى أريد لها مهر مثلها ، فمن القائم به ؟ فقال عبد الله بن معمر : أنا ، فقل ما شئت ، فقال : ألف مثقال من الذهب ومائة ثوب من الأبراد وخمسة أكرشة عتبر ، فقال عبد الله : لك ذلك كله ، فهل أجبت ؟ قال : أجل ، قال عبد الله : فأنفذت نفرأ من الأنصار إلى المدينة فأتوا بجميع ما طلب ، ثم صنعت الوليمة وأقمنا على ذلك أياماً ، ثم قال : خذوا فتاتكم وانصرفوا مصاحبين ، ثم حملها فى هودج وجهازها بثلاثين راحلة من المتاع والتحف ، فودعناه وسرنا حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة مرحلة واحدة خرج علينا خيل تريد الغارة أحسبها من سليم ، فحمل عليها عتبة بن الحباب ، فقتل منهم رجالاً ، وجرح منهم آخرين ، ثم رجع وبه طعنة تفور

(١) الأنطاع: جمع نطع وهو بساط من جلد.

(٢) النمارق: جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة.

(٣) العقيلة: السيدة المخدرة.

دمًا، فسقط إلى الأرض، وأثانا نحدة فطردت عنا الخيل، وقد قضى عتبة نحبه، فقلنا:

واعتبتاه فسمعتنا الجارية، فألقت نفسها من البعير وجعلت تصيح بحرقة وأنشدت:

تصبرت لا أنى صبرت وإنما أعلل نفسى أنها بك لاحقه

فلو أنصفت روى لكنت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقه

فما أحد بعدى وبعديك منصف خيلًا، ولا نفس لنفس موافقه

ثم شهقت وقضت نحبها، فاحتفرنا لهما قبرًا واحدًا ودفناهما فيه، ثم رجعت

إلى المدينة فأقامت سبع سنين، ثم ذهبت إلى الحجاز ووردت المدينة فقلت: والله

لأتين قبر عتبة أزوره، فأتيت القبر، فإذا عليه شجرة عليها عصائب حمراء وصفراء،

فقلت لأرباب المنزل: ما يقال لهذه الشجرة؟ قالوا شجرة العروسين.

ولو لم يكن فى العشق من الرخصة المخالفة للتشديد إلا الحديث الوارد بالحسن من

الأسانيد، وهو حديث سويد بن سعيد عن علكى بن مسهر عن أبى يحيى القتات عن

مجاهد عن ابن عباس يرفعه: «من عشق وعف وكنم فمات فهو شهيد»، ورواه

سويد أيضًا عن ابن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعًا، ورواه

الخطيب عن الأزهرى عن المعافى بن زكريا عن قطبة بن الفضل عن أحمد بن

مسروق عنه، ورواه الزبير بن بكار عن عبد العزيز بن الماجشون عن عبد العزيز بن

أبى حاتم عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس.

وهذا سيد الأولين والآخرين ورسول رب العالمين ﷺ نظر إلى زينب بنت جحش

- رضى الله عنها - فقال: «سبحان مقلب القلوب»^(١)، وكانت تحت زيد بن حارثة

(١) يشير المصنف - وما كان ينبغى له - إلى أن رسول الله ﷺ عشق زينب بنت جحش، وهى ما تزال

تحت زيد بن حارثة، فقال النبى ﷺ: «سبحان مقلب القلوب» وأنه كان يخفى هذا العشق فى

قلبه. وللأسف وقع كثير من المفسرين فى هذا الخطأ وتلقفه من بعدهم بعض المستشرقين ليروجوه

حول المعصوم ﷺ.

والصحيح الذى قال به العلماء الراسخون وأهل التحقيق أن الذى أخفاه الرسول ﷺ هو إعلام الله له

أن زيدًا سيطلق زينب، وأنه سيزوجه سبحانه إياها، فحشى مقالة الناس فى هذا الزواج فنزلت الآية.

انظر «تفسير ابن كثير» ج ٣ ص (٤٧٢). و «الإسرائيليات والموضوعات» لأبى شعبة ص (٣٢٣)، (٣٢٤).

لاه ، فلما همَّ بطلاقها قال له : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » ، فلما طلقها رَجَّعها الله سبحانه من رسوله ﷺ من فوق سبع سموات ، فكان هو وليها وولى ويجهها من رسول الله ﷺ وعقد نكاحها من فوق عرشه ، وأنزل على رسوله ﷺ { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ }^(١) [الاحزاب: ٣٧].

وهذا داود نبي الله - عليه السلام - لما كان تحته تسع وتسعون امرأة ، ثم أحب لك المرأة فتزوجها وأكمل بها المائة^(٢).

قال الزهري : أول حب كان في الإسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضى الله عنها ، كان مسروق يسميها : حبيبة رسول الله ﷺ .

وقال أبو قيس مولى عبد الله بن عمرو : « أرسلني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة سألها : أكان النبي ﷺ يقبل أهله وهو صائم؟ فقالت : لا . فقال : إن عائشة رضى الله عنها قالت : إن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم^(٣) ، فقالت أم سلمة رضى الله عنها : لعل النبي ﷺ كان إذا رأى عائشة لا يتمالك عنها حباً ، وأما أنا فلا » .

وذكر سعد بن إبراهيم عن عامر بن سعد عن أبيه ، قال : كان إبراهيم الخليل عليه السلام يزور هاجر في كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها ، وقلة صبره عنها . وذكر الخرائطي أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما اشترى جارية رومية ، فكان حبها حباً شديداً ، ف وقعت ذات يوم عن بغلة له ، فجعل يمسح التراب عن وجهها يقبلها ، وكانت تكثر من أن تقول له : يا بطرون أنت قالون : تعنى يا مولاي أنت بيد ، ثم إنها هربت منه ، فوجد عليها وجداً شديداً ، وقال :

(١) قلت : أما شكايه زيد - رضى الله عنه - للنبي ﷺ من رينب وقول الرسول ﷺ له : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » إلخ - حتى تزوج الرسول الأعظم ﷺ بزينب . أخرجه البخارى (٧٤٢٠) ، ومسلم (١٤٢٨) ، والترمذى (٣٢١٢) .

(٢) هذه من الإسرائيليات ، وما كان لابن القيم أن يرويها بدون تثبت أو مراجعة دقيقة ، وحاشا للأنبياء - عليهم السلام - أن يكونوا كذلك .

(٣) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٢٩٦/٦ ، ٣١٧) ، وقد صح عن أم سلمة من وجوه ، منها ما أخرجه البخارى في « صحيحه » (٣٢٢ ، ١٩٢٩) أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم .

قد كنت أحسبني قالون فأنصرفت قاليسوم أعلم أنى غير قالون

قال أبو محمد بن حزم : وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير ، وقال رجل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها ، فقال : ذلك ما لا تملك .

فالجواب وبالله التوفيق :

أن الكلام فى الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز ، والنافع والضار ، ولا يحكم عليه بالذم والإنكار ، ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة ، وإنما يبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه ، وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ، ونحن نذكر النافع من الحب والضار ، والجائز والحرام .

[المحبة النافعة هى محبة الله]

اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، وبها قامت الأرض والسموات ، وعليها فطرت المخلوقات وهى سر شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذى تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله ، والله تعالى يحب لذاته من جميع الوجوه ، وما سواه فلأنما يحب تبعاً لمحبته .

وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزل ، ودعوة جميع رسله ، وفطرته التى فطر عباده عليها ، وما ركب فيهم من العقول ، وما أسبغ عليهم من النعم ، فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كل الإحسان منه ، وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] .

وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنی وصفاته العليا وما دلت عليه آثار

مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

والمحبة لها داعيان : الجمال والإجلال ، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك ، فإنه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له ، والإجلال كله منه ، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٥٤] إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [٥٥] وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٤ - ٥٦] .

* فالولاية أصلها الحب ، فلا موالاة إلا بحب ، كما أن العداوة أصلها البغض ، والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه ، فهم يوالونه بمحبتهم له ، وهو مواليهم بمحبته لهم ، فالله يوالى عبده بحسب محبته له ، ولهذا أنكر الله سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء ، بخلاف من والى أولياءه فإنه لم يتخذهم أولياء من دونه ، بل موالاته لهم من تمام موالاته ، وقد أنكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة ، وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دونه أنداداً يحبهم كحب الله ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وأخبر عن سوى بينه وبين الانداد فى الحب أنهم يقولون فى النار لمعبودهم : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [٩٧] إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٧ - ٩٨] .

وبهذا التوحيد فى الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله وأنزل جميع كتبه ، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم ولأجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار ، فجعل الجنة لأهله ، والنار للمشركين به فيه ، وقد أقسم النبى ﷺ أنه « لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس

أجمعين»^(١)، فكيف بمحبة الرب جل جلاله ؟ وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا ، حتى أكون أحب إليك من نفسك » ، أى لا تؤمن حتى تصل محبتك إلى هذه الغاية .

وإذا كان النبى ﷺ أولى بنا من أنفسنا فى المحبة ولوازمها ، أفليس الرب جل جلاله وتقدس أسماؤه ، أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم ؟ وكل ما منه إلى عباده المؤمن يدعو إلى محبته مما يحب العبد ويكره ، فعطائه ومنعه ، ومعافاته وإبتلاؤه وقبضه وبسطه ، وعدله وفضله ، وإماتته وإحياءه ولطفه وبره ، ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه ، وصبره على عبده ، وإجابته لدعائه ، وكشف كربه ، وإغاثته لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه ، بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته ، بل تمكينه عبده من معصيته وإعانتة عليه وستره حتى يقضى وطره منها وكلاءته وحراسته له ، وهو يقضى وطره من معصيته بعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعى إلى محبته ، فلو أن مخلوقاً فعلاً بمخلوق أدنى شئ من ذلك لم يملك قلبه عن محبته ، فكيف لا يحب العبد بكم قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس ، مع إساءته ؟ فخيرته إلى نازل ، وشره إليه صاعد ، يتحجب إليه بنعمه ، وهو غنى عنه ، والعبد يتبغض إلى بالمعاصى وهو فقير إليه ، فلا إحسانه وبره وإنعامه إليه يصد عنه معصيته ، ومعصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .

فالآم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه .

* وأيضاً فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك ، والله سبحانه وتعالى يريدك لك ، كما فى الأثر الإلهى : « عبدى كل يريدك لنفسه وأريدك لك » ، فكيف لا يستحى العبد أن يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عن مشغول بحب غيره ، قد استغرق قلبه بمحبة ما سواه ؟

وأيضاً فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولا بد له من نو

(١) حديث صحيح: سبق تخريجه.

من أنواع الربح والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه ،
فالدراهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهى
أسرع شئ محوًا .

وأيضًا فهو سبحانه خلقتك لنفسه وخلق كل شئ لك فى الدنيا والآخرة فمن أولى
منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته ؟ .

وأيضًا فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعًا - لديه ، وهو أجود الأجودين
وأكرم الأكرمين ، أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل من العمل
وينميه ، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ، يسأله من فى السموات والأرض كل يوم
هو فى شأن ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه كثرة المسائل ولا يتبرم بالحاح
الملحين ، بل يحب الملحين فى الدعاء ويحب أن يسأل ، ويغضب إذا لم يسأل ،
يستحى من عبده حيث لا يستحى العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه
حيث لا يرحم نفسه ، دعاه بنعمة وإحسانه ، وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ،
فأرسل رسله فى طلبه ، وبعث إليه معهم عهده ، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال :
« من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له ؟ »^(١) كما قيل : « أدعوك وللوصل
تأبى ، أبعث رسولى فى الطلب ، أنزل إليك بنفسى ، ألقاك فى النوم » .

وكيف لا تحب القلوب من لا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا
هو ، ولا يجيب الدعوات ويقيّل العثرات ، ويغفر الخطيئات ، ويستر العورات ،
ويكشف الكربات ، ويغيث اللهفات ، وينيل الطلبات سواه؟ فهو أحق من ذكر ،
وأحق من شكر ، وأحق من عبد ، وأحق من حمد . وأنصر من ابتغى ، وأرأف من
ملك ، وأجود من سئل ، وأوسع من أعطى ، وأرحم من استرحم ، وأكرم من
قُصد ، وأعز من التجئ إليه ، وأكفى من توكل العبد عليه ، أرحم بعبده من الوالدة
بولدها ، وأشد فرحًا بتوبة التائب من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى
الأرض المهلكة إذا يش من الحياة ثم وجدها ، وهو الملك لا شريك له ، والفرد فلا

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤١٩/٢)، والبخارى (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨)، وأبو داود
(٤٧٣٣)، والترمذى (٤٤٦)، وابن ماجه (١٣٦٦).

ند له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، لن يطاع إلا بإذنه ، ولن يعصى إلا بعلمه ،
 يُطاع فيشكر ، ويتوفيقه ونعمته أطيع ، ويُعصى فيغفر ، ويعفو وحقه أضيع ، فهو
 أقرب شهيد ، وأجل حفيظ ، وأوفى بالعهد ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون
 النفوس وأخذ بالنواصي ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مقضية ،
 والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف ، وكل أحد إليه ملهوف ، وعنت
 الوجوه لنور وجهه ، وعجزت القلوب عن إدراك كنهه ، ودلت الفطر والأدلة كلها
 على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات ، واستنارت له الأرض
 والسموات ، وصلحت عليه جميع المخلوقات ، لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام يخفض
 القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ،
 حجابه النور ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه^(١) .

ما اعتاض بأذل حبه لسواه من عوض ، ولو ملك الوجود بأسره

[كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة]

* وهذا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به ، وهو أن كمال اللذة والفرح
 والسرور ونعيم القلب وابتهاج الروح تابع لأمرين :
 أحدهما : كمال المحبوب في نفسه وجماله ، وأنه أولى بإيثار المحبة من كل ما
 سواه .

والأمر الثاني : كمال محبته ، واستفراغ الوسع في حبه ، وإيثار قربه ، والوصول
 إليه على كل شيء ، وكل عاقل يعلم أن اللذة بحصول المحبوب بحسب قوة محبته ،
 فكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة المحبة أكمل ، قلدة من اشتد ظمؤه بإدراك الماء
 الزلال ، ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ، ونظائر ذلك على حسب شوقه

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (كتاب الإيمان - باب ما جاء في رؤية الله عز وجل) ، وابن ماجه
 (١٩٥ ، ١٩٦) .

سبحات: بضم السين والباء . والمعنى: لو انكشف شيء من الحجاب لهلك كل ما وقع عليه البصر
 سبحانه ، كما خر موسى صعقاً .

وشدة إرادته ومحبته .

وإذا عُرِفَ هذا، فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه ، بل هو مقصود كل حى وعاقل ، وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي تدم إذا أعقبت ألماً أعظم منها أو منعت لذة خيراً منها وأجل ، فكيف إذا أعقبت أعظم الحسرات ، وفوتت أعظم اللذات والمسرات ؟ وتحمّد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما ، وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها ، كما قال تعالى :

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [١٦] والآخرة خير وأبقى ﴿ [الاعلى : ١٦ - ١٧] .

وقال السحرة لفرعون لما آمنوا : ﴿ فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ [٧٢] إنا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴿ [طه : ٧٢ - ٧٣] .

* والله سبحانه وتعالى خلق الخلق لينيلهم هذه اللذة الدائمة فى دار الخلد ، وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفو أبداً ولا تدوم بخلاف الآخرة ، فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم ، وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، مع الخلود أبداً ، ولا تعلم نفس ما أخفى الله لعباده فيها من قرة أعين . بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا المعنى الذى قصده الناصح لقومه : ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ [٣٨] يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ﴿ [غافر : ٣٨ - ٣٩] ، فأخبرهم أن الدنيا متاع يستمتع بها إلى غيرها ، وأن الآخرة هى المستقر .

وإذا عرف أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلى لذات الآخرة ، ولذلك خلقت الدنيا ولذاتها ، فكل لذة أعانت على لذة الآخرة ، وأوصلت إليها لم يدم تناولها ، بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة .

[رؤية الله]

إذا عرف هذا فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها : هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله ، وسماع كلامه منه ، والقرب منه ، كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية « فوالله

ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه»^(١).

وفى حديث آخر : إنه « إذا تجلّى لهم وراؤه نسوا ما هم فيه من النعيم »^(٢).

وفى النسائي ومسنّد الإمام أحمد عن عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى دعائه : « وأسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك »^(٣).

وفى كتاب السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد مرفوعاً : « كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن ، إذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك »^(٤).

وإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هى أعظم لذات الدنيا على الإطلاق ، وهو لذة معرفته سبحانه ، ولذة محبته فإن ذلك هو جنة الدنيا ونعيمها العالى ، ونسبة لذاتها الفانية إليه كتفلة فى بحر . فإن الروح والقلب والبدن إنما خلق لذلك ، فأطيب ما فى الدنيا معرفته ومحبته ، وألذ ما فى الجنة رؤيته ومشاهدته ، فمحبته ومعرفته قرّة العيون ولذة الأرواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها ، بل لذات الدنيا القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً وعذاباً ، ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك ، فليست الحياة الطيبة إلا بالله .

وكان بعض المحبين تمر به أوقات ، فيقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا ، إنهم لفى عيش طيب وقد تقدم ذلك ، وكان غيره يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف .

وإذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هى عذاب على قلب المحب يقول فى حاله :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول غيره :

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذى (٢٥٥٢).

(٢) حديث ضعيف: أخرجه ابن ماجه (١٨٤) عن جابر بنحوه. وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٢٣٦٢).

(٣) حديث صحيح: سبق تخريجه.

(٤) حديث ضعيف: وضعفه الألبانى فى «ضعيف الجامع» (١٦١، ١٦٢).

أف للدنيا إذا ما لم يكن صاحب الدنيا محباً أو حبيباً

ويقول الآخر :

ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول الآخر :

اسكن إلى سكن تذبجه ذهب الزمان وأنت مفرد

ويقول الآخر :

تشكى المحبون الصبابة ، ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلقيها قبلي محب ولا بعدى

فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح ؟ وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها ، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، والأنف إذا فقد شمها ، واللسان إذا فقد نطقه ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة ، وما لجرح بميت إيلا .

والمقصود : أن أعظم لذات الدنيا هو السبب الموصل إلى أعظم لذة في الآخرة ، ولذات الدنيا ثلاثة أنواع :

فأعظمها وأكملها : ما أوصل إلى لذة الآخرة ، ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم ثواب ، ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به وجه الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه ، وشفاء غيظه بقهر عدو الله وعدوه ، فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله ، ومحبتة له وشوقه إلى لقائه وطمعه في رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم ؟

النوع الثاني : لذة تمتنع لذة الآخرة ، وتعقب آلاماً أعظم منها ، كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثاناً مودة بينهم في الحياة الدنيا ، يحبونهم كحب الله ويستمتعون بعضهم ببعض ، كما يقولون في الآخرة إذا لقوا ربهم :

﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [١٢٨] وكذلك تولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴿ [الأنعام: ١٢٨ - ١٢٩].

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغي فى الأرض والعلو بغير الحق ، وهذه اللذات فى الحقيقة إنما هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات ، بمنزلة من قدم لغيره طعاماً لذيذاً مسموماً يستدرجه إلى هلاكه ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [١٨٣] وأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿ [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣].

قال بعض السلف فى تفسيرها : كلما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرَّحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [٤٤] فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿ [الأنعام: ٤٤ - ٤٥].

وقال تعالى فى أصحاب هذه اللذة : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ [٥٥] نَسَارِعَ لَهُمْ فى الخيرات بل لَا يَشْعُرُونَ ﴿ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦] ، وقال فى حقهم : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

وهذه اللذة تنقلب آخرآ آلاماً من أعظم الآلام كما قيل :

مآرب كانت فى الحياة لأهلها عذاباً، فصارت فى المعاد عذاباً

النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا ألماً ولا تمنع أصل لذة دار القرار ، وإن تمت كمالها ، وهذه اللذة المباحة التى لا يستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ، ليس لمتع النفس بها قدر ، ولا بد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها .

وهذا القسم هو الذى عناه النبى ﷺ بقوله : « كل ما يلهو به الرجل فهو باطل ،

إلا رمية بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق ^(١) ، فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق ، وما لم يعن عليها فهو باطل .

[الحب الذى لا ينكر ولا يذم]

* فهذا الحب لا ينكر ولا يذم ، بل هو أحمد أنواع الحب ، وكذلك حب رسول الله ﷺ ، وإنما نعنى المحبة الخاصة ، والتي تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبيه ، وإلا فكل مسلم فى قلبه محبة لله ورسوله لا يدخل فى الإسلام إلا بها ، والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتاً لا يحصىه إلا الله ، فبين محبة الخليين ومحبة غيرهما ما بينهما ، فهذه المحبة هى التى تُلطف وتخفف أثقال التكليف ، وتسخى البخيل وتشجع الجبان ، وتصفى الذهن وتروض النفس ، وتطيب الحياة على الحقيقة ، لا محبة الصور المحرمة ، وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل :

سيبقى لكم فى مضمرة القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

وهذه المحبة هى التى تنور الوجه ، وتشرح الصدر ، ونهى القلب ، وكذلك محبة كلام الله فإنه من علامة محبة الله ، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك ، والتذاذك بسماعه أعظم من التذاذ أصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم ، فإن من المعلوم أن من أحب محبوباً كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه ، كما قيل :

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي؟

أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : «لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام الله» ، وكيف يشبع المحب من كلام محبوبه و هو غاية مطلوبه ؟ .

(١) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (١٤٤/٤)، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذى (١٦٣٧)، والنسائى (٢٨/٦) مختصراً ، وضعفه الألبانى فى «ضعيف السنن» .

وقال النبي ﷺ يوماً لعبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « اقرأ على » ، فقال :
 اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : « إني أحب أن أسمع من غيري » . فاستفتح فقرأ
 سورة النساء حتى إذا بلغ قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على
 هؤلاء شهيداً ﴾ [النساء : ٤١] ، قال : « حسبك » ، فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله
 ﷺ تذرغان من البكاء ^(١) .

وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ،
 فيقرأ ، وهم يستمعون ، فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور
 أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني ، فإذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجدده وطربه
 وشوقه إلى سماع الآيات دون سماع الآيات ، وسماع الألحان دون سماع القرآن ،
 كما قيل : تقرأ عليك الختمة وأنت جامد كالخجر ، وبيت من الشعر ينشد فتميل
 كالسكران ، فهذا أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه ، وتعلقه بمحبة
 سماع الشيطان . والمغرور يعتقد أنه على شيء .

فنى محبة الله ورسوله ﷺ أضعاف أضعاف ما أورد السائل من فوائد العشق
 ومنافعه ، بل لا حب على الحقيقة أنفع منه ، وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن
 عليه ويسوق المحبة إليه .

[محبة الزوجات]

وأما محبة الزوجات : فلا لوم على المحب فيها ، بل هي من كماله ، وقد امتنَّ
 الله سبحانه بها على عباده فقال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا
 لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾
 [الروم : ٢١] .

فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن قلبه إليها ، وجعل بينهما خالص الحب ، وهو
 المودة المقترنة بالرحمة ، وقد قال تعالى عقيب ذكر ما أحل لنا من النساء وما حرم

(١) حديث صحيح : أخرجه البخاري (٥٠٥٠) ، ومسلم (٨٠٠) ، والترمذي (٣٠٢٤) .

منهن : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿ [النساء : ٢٦ - ٢٨] .

ذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه : « كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر » .

وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي ﷺ : « أنه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها ، وقال : إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان ، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته ، فليأت أهله ، فإن ذلك يرد ما في نفسه » (١) ، نفى هذا الحديث عدة فوائد .

منها : الإرشاد إلى التسلي عن المطلوب بجنسه ، كما يقوم الطعام مقام الطعام والثوب مقام الثوب .

ومنها : الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية ، وهو قضاء وطره من أهله ، وذلك ينقض شهوته لها ، وهذا كما أرشد المتحابين إلى النكاح كما في سنن ابن ماجه مرفوعاً : « لم ير للمتحابين مثل النكاح » (٢) .

ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق جعله الله دواء شرعاً ، وقد تداوى به داود - عليه السلام - (٣) ولم يرتكب نبي الله محرماً ، وإنما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبتة لها ، وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ، ولا يليق بنا المزيد على هذا .

وأما قصة زينب بنت جحش : فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه ، وكان

(١) حديث صحيح : أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٠) ، ومسلم (١٤٠٣) ، وأبو داود (٢١٥١) .

(٢) حديث صحيح : أخرجه ابن ماجه (١٨٤٧) . صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٧٦) .

(٣) هذا خطأ بالغ في الرواية ، وما كان لرسول الله - صلوات الله عليهم - أن يتورطوا في هذه الزلات التي يخلل من مثلها آحاد الناس .

يستشير النبي ﷺ في فراقها ، وهو يأمره بإمساكها ، فعلم رسول الله ﷺ أنه مفارقها ولا بد ، فأخفى في نفسه أنه يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس : أن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه ، فإنه كان تبني زيدا قبل النبوة ، والرب تعالى يريد أن يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده ، فلما طلقها زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت في صدره لما ذكرها رسول الله ﷺ ، فناداها من وراء الباب : « يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك » ، فقالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ، وقامت إلى محرابها فصلت ، فتولى الله عز وجل نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه ، وعقد النكاح له من فوق عرشه ، وجاء الوحي بذلك : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] .

فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها ، فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك وتقول : « أنتن زوجكن أهاليكن وزوجني الله عز وجل من فوق سبع سموات » ، فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب .

ولا ريب أن النبي ﷺ كان قد حجب إليه النساء كما في الصحيح عن أنس عنه ﷺ قال : « حُجِبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ ، وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(١) ، هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم « حُجِبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ » ، زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد في هذا الحديث : « أَصْبِرَ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَلَا أَصْبِرُ عَنْهُمْ » ، وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك فقالوا : ما هم إلا النكاح ، فرد الله سبحانه عن رسول الله ﷺ ونافح عنه فقال : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] .

وهذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها .

وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها

(١) حديث صحيح : سبق تخريجه .

فكمل المائة ، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة ، سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه فقال : « عائشة رضى الله عنها ، وقال عن خديجة : « إني رزقت حبها »^(١) .

فمحنة النساء من كمال الإنسان ، قال ابن عباس : « خير هذه الأمة أكثرها نساء »^(٢) ، وذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم جلولاء^(٣) جارية كأن عنقها إبريق من فضة ، قال عبد الله : « فما صبرت أن قبلتها والناس ينظرون » ، وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء ، بخلاف الأمة المشتراة .

والفرق بينهما أن انفساخ الملك لا يتوهم في المسبية ، بخلاف المشتراة فقد يتفسخ فيها الملك ، فيكون مستمتعاً بأمة غيره .

وقد شفع النبي ﷺ لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت ، وذلك في قصة مغيث وبريرة ، لما رآه النبي ﷺ يمشى خلفها بعد فراقها ، ودموعه تجري على خديه ، فقال لها رسول الله ﷺ : « لو راجعته ؟ » فقالت : أنا أمرني يا رسول الله ؟ فقال : لا ، إنما أشفع ، فقالت : لا حاجة لى به ، فقال لعمه : يا عباس ألا تعجب من حب مغيث وبريرة ومن بغضها له؟^(٤) . ولم ينكر عليه حبها ، وإن كانت قد بانث منه .

وكان النبي ﷺ يسوى بين نسائه في القسم ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك »^(٥) ، يعنى في الحب .

(١) حديثان صحيحان: أخرجه الأول البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤)، والثاني مسلم (٢٤٣٥)، وأصله عند البخاري (٣٨١٦).

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٦٩).

(٣) جلولاء: بلدة في طريق خراسان من سواد العراق، كانت بها وقعة مشهورة على الفرس للمسلمين سنة (١٦ هـ) فاستباحهم المسلمون.

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٥٢٨٣)، وأبو داود (٢٢٣١)، وابن ماجه (٢٠٧٥).

(٥) حديث ضعيف: أخرجه أحمد (١٤٤/٦)، والترمذي (١١٤٠)، وأبو داود (٢١٣٤)، والنسائي (٦٤/٧)، وابن ماجه (١٩٧١). وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٥٩٦).

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩].

يعنى فى الحب والجماع . ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائر وصلهن ، كما تقدم من فعل أبى بكر وعثمان . وكذلك على رضى الله عنه أتى بسلام من العرب وجد فى دار قوم بالليل ، فقال له : ما قصتك ؟ قال : لست بسارق ، ولكنى أصدقك :

تعلقت فى دار الرياحى خريدة	يذل لها من حسن منظرها البدر
لها فى بنات الروم حسن ومنصب	إذا افنخرت بالحسن خافتها الفخر
فلما طرقت الدار من حر مهجتي	أبيت وفيها من توقدها الجمر
تبادر أهل الدار بى ثم صيخوا	هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع على بن أبى طالب رضى الله عنه شعره رق له ، وقال للمهلب بن رباح : أسمح له بها . فقال : يا أمير المؤمنين ، سله من هو ؟ فقال : النهاس بن عيينة ، فقال : خذها فهى لك .

واشترى معاوية جارية فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تتشد أبياتاً منها :

وفارقت كالغصن يهتز فى الثرى طريراً وسيماً بعدما طر شاربه

فسألها : فأخبرته أنها تحب سيدها ، فردها إليه ، وفى قلبه منها .

وذكر الزمخشري فى ربيعة أن ربيعة قرأت فى طريق مكة على - انط :

أما فى عباد الله أو فى إمانه كريم يجلى الهم عن ذاهب العقل ؟
له مقللة أما الأماقى قريح - وأما الحشا فالنار منه على رجل

فندرت أن تحتال لقائلهما إن عرفته ، حتى تجمع بينه وبين من يحبه ، فينماهى بالمزدلفة إذ سمعت من ينشد البيتين ، فطلبته ، فزعم أنه قالها فى ابنة عم له نذر أهلها أن لا يزوجهما منه ، فوجهه إلى الحى ، وما زالت تبذل لهم المال حتى

زوجوها منه ، وإذا المرأة أعشق له منه لها ، فكانت تعده من أعظم حسناتها ، وتقول :
ما أنا بشيء أسر منى من جمعى بين ذلك الفتى والفتاة .

قال الخرائطى : وكان لسليمان بن عبد الملك غلام وجارية يتحابان ، فكتب الغلام يوماً :

ولقد رأيتك فى المنام كأنما عاطيتنى من ريق فيك البارد
وكان كفك فى يدى ، وكأننا بتنا جميعاً فى فراش واحد
فطفقت يومى كله متراقداً لأراك فى نومي ولست براقداً

فأجابته الجارية :

خيراً رأيت ، وكل ما أبصرته ستاله منى برغم الحاسد
إنى لأرجو أن تكون معانقى فنييت منى فوق ثدى ناهد
وأراك بين خلاخلى ودمالجى وأراك فوق ترائبى ومجاسدى

فبلغ سليمان ذلك فانكحها الغلام ، وأحسن حالهما على فرط غيبرته .

وقال جامع بن برخية : سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة : هل فى حب دهمنا من وذر ؟ فقال سعيد : إنما تلام على ما تستطيع من الأمر ، فقال سعيد : والله ما سألنى أحد عن هذا ، ولو سألنى ما كنت أجيب إلا به .

أقسام عشق النساء :

* فعشق النساء ثلاثة أقسام : قسم : هو قرية وطاعة ، وهو عشق امرأته وجاريته ، وهذا العشق نافع ؛ فإنه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها النكاح ، وأكف للبصر والقلب عن التطلع إلى غير أهله ، ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس .

وعشق : هو مقت من الله وبعد من رحمته ، وهو أضر شئ على العبد فى دينه ودنياه ، وهو عشق المردان : فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله وطرده عن بابه ، وأبعد قلبه عنه ، وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله ، كما قال بعض السلف :

«إذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبة المردان» ، وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط ما جلبت ، فما أوتوا إلا من هذا العشق ، قال الله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

ودواء هذا الداء : الاستغاثة بمقلب القلوب ، وصدق اللجأ إليه ، والاشتغال بذكره ، والتعويض بحبه وقربه والتفكير في الألم الذي يعقبه هذا العشق ، واللذة التي تقوته به ، فيرتب عليه فوات أعظم محبوب ، وحصول أعظم مكروه ، فإذا أقدمت نفسه على هذا وأثرته فليكبر على نفسه تكبير الجنازة ، وليعلم أن البلاء قد أحاط به .

والقسم الثالث : العشق المباح وهو الواقع من غير قصد ، كعشق من وصفت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير قصد ، فتعلق قلبه بها ، ولم يحدث له ذلك العشق معصية ، فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه ، والأنتفع له مدافعتة والاشتغال عنه بما هو أنفع له منه ، ويجب الكتم والعفة والصبر فيه على البلوى ، فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وتركه طاعة هوأ وإيثار مرضاة الله وما عنده .

[أقسام الناس في العشق]

✽ والناس في العشق ثلاثة أقسام :

منهم من يعشق الجمال المطلق وقلبه يهيم في كل واد ، له في كل صورة جميلة مراد .

ومنهم من يعشق الجمال المقيد ، سواء طمع في وصاله أو لا .

ومنهم من لا يعشق إلا من يطمع في وصاله ، وبين هذه الأنواع الثلاثة تفاوت في القوة والضعف .

فعاشق الجمال المطلق يهيم قلبه في كل واد وله في كل صورة جميلة مراد :

فيوماً بحزوري ويوماً بالعقيق وبالـ عذيب يوماً ويوماً بالخليصاء

وتارة ينتحى نجداً وأونة شعب العقيق وطوراً قصر نيماء

فهذا عشقه أوسع ، ولكنه غير ثابت كثير التنقل :

يهيم بهذا ثم يعشق غيره ويسلاهم من وقته حين يصبح

وعاشق الجمال المقيد أثبت على معشوقه ، وأدوم محبة له ، ومحبته أقوى من محبة الأول ؛ لاجتماعهما فى واحد ، ولكن يضعفهما عدم الطمع فى الوصال ، وعاشق الجمال الذى يطمع فى وصاله أعقل العشاق وأعرفهم ، وحبه أقوى ؛ لأن الطمع يمدده ويقويه .

[حديث : « من عشق فعف »]

وأما حديث : « من عشق فعف »^(١) ، فهذا مما يرويه سويد بن سعيد . وقد أنكره حفاظ الإسلام عليه ، قال ابن عدى فى كامله : هذا الحديث أحد ما أنكر على سويد . وكذا ذكر البيهقى وابن طاهر فى الذخيرة والتذكرة ، وأبو الفرج بن الجوزى وعده فى الموضوعات ، وأنكره أبو عبد الله الحاكم على تساهله وقال : أنا أتعجب منه .

قلت : والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس رضى الله عنهما موقوفاً عليه ، فغلط سويد فى رفعه ، قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان : حدثنا أبو بكر الأزرق عن سويد به فعاتبه على ذلك ، فأسقط ذكر النبى ﷺ ، وكان بعد ذلك يسأل عنه فلا يرفعه ، ولا يشبه هذا كلام النبوة .

وأما رواية الخطيب له عن الزهرى : حدثنا المعافى بن زكريا ، حدثنا قطبة بن الفضل ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سويد ، عن ابن مسهر ، عن هشام بن عروة عن أبيه ، عن عائشة مرفوعاً ، فمن أبين الخطأ ، ولا يحمل هشام ، عن أبيه ، عن عائشة مثل هذا عند من شم أدنى رائحة من الحديث ، ونحن نشهد الله أن عائشة ما حدثت بهذا عن رسول الله ﷺ قط ، ولا حدث به عنها عروة ، ولا حدث به هشام قط .

(١) حديث موضوع : أورده الألبانى فى «ضعيف الجامع» (٥٧٠-٥٧١) . وقال : موضوع .
و«الضعيفة» (٤٠٩) .

وأما حديث ابن الماجشون عن عبد العزيز بن أبي حارم ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس مرفوعاً ، فكذب على ابن الماجشون ، فإنه لم يحدث بهذا ، ولا حدث به عنه الزبير بن بكار ، وإنما هذا من تركيب بعض الوضاعين ، ويا سبحان الله كيف يتحمل هذا الإسناد مثل هذا المتن ؟ فقبح الله الوضاعين .

وقد ذكره أبو الفرج بن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل ، حدثنا يعقوب بن عيسى ، من ولد عبد الرحمن بن عوف ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مرفوعاً ، وهذا غلط قبيح ، فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطي ، ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاثمائة ، فمحال أن يدرك شيخه يعقوب بن أبي نجيح ، لا سيما وقد رواه في كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير ، عن عبد الملك عن عبد العزيز ، عن ابن أبي نجيح ، والخرائطى هذا مشهور بالضعف في الرواية ، ذكره أبو الفرج في كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الإسلام في إنكار هذا الحديث هو الميزان ، وإليهم يرجع في هذا الشأن ، ولا صححه ، ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ، ويرجع في التصحيح إليه ، ولا من عاداته التسامح والتساهل ، فإنه لم يصف نفسه له ، ويكفى أن ابن طاهر الذي يتساهل في أحاديث التصوف ، ويروى منها الغث والسمين ، قد أنكره وشهد ببطلانه .

نعم ابن عباس لا ينكر ذلك عنه .

وقد ذكر أبو محمد بن حزم عنه : أنه سئل عن الميت عشقاً ، فقال : « قتل الهوى لا عقل له ولا قود »^(١) ، ورفع إليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ ، فقال : « ما شأنه ؟ فقالوا : العشق ، فجعل عامة يومه يستعيد من العشق وقد تقدم ذلك . فهذا نفس ما روى عنه ذلك .

وَمَا يُوَضِّحُ ذَلِكَ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَدَّ الشَّهْدَاءَ فِي الصَّحِيحِ^(٢) ، فَذَكَرَ الْمَقْتُولَ فِي

(١) لا عقل له: أى لا دية . سميت بذلك : لأن الإبل كانت تعقل بفناء دار القليل ، والقود : القصاص .

(٢) حديث صحيح . أخرجه البخاري (٢/٢٠٨) ، ومسلم (٣/١٥٢) .

الجهام ، والمبطون ، والحريق ، والنفساء يقتلها ولدها ، والغريق ، وصاحب ذات الجنب ، فلم يذكر منهم من يقتلهم العشق .

وحسب قتيل العشق أن يصح له هذا الأثر عن ابن عباس رضى الله عنهما ، على أنه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ، ويعف لله ، ويكتم لله ، لكن العاشق إذا صبر وعف وكنم مع قدرته على معشوقه ، وأثر محبة الله وخوفه ورضاه ، هذا من أحق من دخل تحت قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ - ٤١] ، وتحت قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

فنسأل الله الكريم رب العرش الكريم أن يجعلنا ممن أثر حبه ورضاه على هواه ، ابتغى بذلك قربه ورضاه . آمين يا رب العالمين .
وصلّى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين آمين .



فهرس الأحاديث

الصفحة	طرف الحديث
٧٩	أتعجبون من غيرة سعد
١٩٠	
١٤٦	اجتنبوا السبع الموبقات
١٥٦	أجعلتنى لله نداً
٨	ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة
٢٠٦	إذا أنت المرأة
٥٦	إذا أراد بالعباد نقمة
١٨٧	إذا أصبح العبد
٢٧٤	إذا تجلى لهم
٥٨	إذا خفيت الخطيئة
٤٠	إذا رأيت الله يعطى العبد
٣٦	إذا صار أهل الجنة
٥٥	إذا ضن الناس بالدينار
٥١	إذا ظهرت المعاصى
١٢٤	إذا كذب العبد
١٤١	إذا مررتم برياض الجنة
٢٣١	
٣٥	إذا وضعت الجنازة
٢١٩	اذهبوا إلى محمد
٣٢	استعيذوا بالله
١٥٥	اشتد غضب الله
١٥٩	أشد الناس عذاباً
١٨٨	أكثر ما يدخل الناس
١٤	ألا أخبركم بشيء

الصفحة	طرف الحديث
١٤٦	ألا أنبئكم بأكبر
١٤٦	الإشراك بالله
١٩٣	التائب من الذنب
٨١	الحياء خير كله
٩	الدعاء سلاح المؤمن
١٠	الدعاء ينفع مما نزل
١٠٠	الدنيا ملعونة
٩	الرجل يطيل السفر أشعث
١٥٢	الشرك في هذه الأمة
٩٣	الشیطان ذئب الإنسان
١٤٥	الصلوات الخمس والجمعة
١٣	الظوا ياذا الجلال
١٥٩	العظمة إزارى
١٨٤	القم والفرج
١٣٧	القلوب أربعة
٢٩	الكيس من دان نفسه
٦١	أما بعد يا معشر قریش
٣٦	إن أحدكم إذا مات
١٦٠	إن أخنع الأسماء
٥١	إن الرجل ليحرم
١٢٦	إن السكينة تنطق
١١٧	إن الشيطان قد قعد لابن آدم
٣٢	إن العبد المؤمن
١٠١	إن العبد ليتكلم بالكلمة
١٨٥	
١١٩	إن الغضب جمرة
٢٢٣	إن الله اتخذنى خليلاً

الصفحة

طرف الحديث

٥	إن الله لم يضع داء
٥	إن الله لم ينزل داء
٤١	إن الله يعطى الدنيا
١٩٠	إن الله يغار
٦١	إن المؤمن إذا أذنب
٦٨	إن المؤمن يرى ذنوبه
٢٧٩	إن المرأة تقبل فى صورة
٣٦	إن المصورين يعذبون
٥٨	إن الناس إذا رأوا الظالم
٣٨	إن أول الناس يقضى
١٧٣	إن أول ما ينشأ من الإنسان
١٣٠	أن تجعل لله نداً
١٤٦	أن تدعو لله نداً
١٣٠	أن تزانى حليمة جارك
٩٨	إن روح القدس نفث
١٢٥	إن للملك بقلب ابن آدم
٨١	إن مما أدرك الناس
١٨٦	إن من أحدكم ليتكلم
٨٠	إن من الغيرة
١٥٤	إن من شرار الناس
٥٣	إن من كان قبلكم كان إذا عمل
١٥٥	إن من كان قبلكم كان إذا مات
١٥٥	إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور
٩٢	إن هذه القبور ممتلئة
١٥٣	أنا أغنى الشركاء
٢٦	أنا عند حسن ظن عبدى
٢١٧	أنا مع عبدى ما ذكرنى

الصفحة	طرف الحديث
٦٠	إنكم لتعملون أعمالاً
١١٩	إنما تطفأ النار بالماء
٣٤	إنما مثلى ومثلكم
٢١٠	إنه لا يذل من واليت
٢٢٣	إنى أبرأ إلى كل
٢٧٨	إنى أحب أن أسمع
٣٥	إنى أرى ما لا ترون
٢٨١	إنى رزقت حبها
٢٣٠	إنى لأعلم كلمة
٢٣١	إنى لست كهيتكم
٣٤	أى إخوانى لمثل هذا
١٧٧	إياكم والجلوس فى الطرقات
٢٣٨	إياكم ومحقرات الذنوب
٥٩	
٢٦٨	بعثت بالسيف بين يدي
١٠٠	
٢٠٤	بعثنى رسول الله
١٥	بلى ينبغي لمن سمعها
٣٦	تدنو الشمس يوم القيامة
١٨٥	ثكلتك أمك يا معاذ
٢٢١	ثلاث من كن فيه
٢٤٤	حب إلى من دنياكم النساء
٢٨٠	
٢٥٠	حبك الشئ يعمى
٢٥٣	خذ من حسنة
٣١	خطباء من أمك
٧٨	خلق الله آدم

الصفحة

طرف الحديث

٢٨١	خير هذه الامة
٤٠	دخل رجل الجنة
٢٤١	ذاق طعم الإيمان
١٧٥	رأيت في الجاهلية
١٧٤	سباب المسلم فسوق
٤٩	سبقك بها عكاشة
٥٨	سيظهر شرار أمتي
٦٠	عذبت امرأة في هرة
٢٣	علم عبدى أن له رباً
١٧٧	غضوا أبصاركم
١٤	فأيما مسلم
١٣١	فما ظنكم
٢٧٣	فوالله ما أعطاهم
٦	قتلوه قتلهم الله
١٥٧	قد عرف الحق لأهله
١٨٧	قل آمنت بالله
١٢٦	كان الملك ينافح
٢٧٤	كان الناس يوم القيامة
٢٤٠	كان خلقه القرآن
١٨٤	كف عليك هذا
١٢٣	كل الناس يغدو فبائع
٦٧	كل أمتى معافى
١٨٧	كل كلام ابن آدم
٢٧٦	كل ما يلهو به الرجل
٣٤	كل مسكر حرام
٣٠	كنت آمركم بالمعروف
٣٦	كيف أنعم وصاحب القرن

الصفحة	طرف الحديث
٢٨١	لا ، إنما أشفع
٧٩	لا أحد أغير من الله
١٩٠	
١٤	لا إله إلا الله الحليم
١٤	لا إله إلا الله العظيم
١٧٦	لا تتبع النظرة
١٧٤	لا ترجعوا بعدى كفاراً
١٧٣	لا تقتل نفس
٤٦	لا يا ابنة الصديق
٢٣٤	لا يا عمر
٢٦٩	لا يؤمن عبد حتى
٢٢٤	لا يبدل القول لدى
١٨٩	لا يحل دم امرئ
٢٥٣	لا يدخل الجنة قاطع
١٩٢	لا يدخل الجنة ولد زنية
١٧٤	لا يزال المؤمن فى فسحة
٨٤	لا يزنى الزانى حين يزنى
١٨٤	لا يستقيم إيمان عبد
١٥٥	لا ينبغي لأحد أن يسجد
١٢٥	لا تخف ولا تحزن
٥١	لا تزال هذه الأمة تحت يدى الله
٣٩	لا تشرك بالله شيئاً
١٣١	لا يدخل الجنة من لا يأمن
١٠	لا يرد القدر
١١	لا يزال العبد
١١	لا يزال يستجاب لأحدكم
١٠	لا يغنى حذر من قدر

طرف الحديث

الصفحة

١٧٤	لزوال الدنيا أهون
٢٥٢	لعن الرائي
١٥٤	لعن الله اليهود والنصارى
١٥٥	لعن الله زوارات القبور
١٩٩	لعن الله من عمل
٤٧١	لعن من
٧٢	
٣٥	لقد تضايق على هذا
١٢	لقد دعا الله باسمه
١٢	لقد سألت الله
١٢٦	لك بمثله
٥	لكل داء دواء
١٤	لم يدع بها مسلم
٢٧٩	لم ير للمتحابين
٤٣١	لما عرج بى مررت
٥٢	
٥١	لن يهلك الناس حتى
١٢	اللهم إنى أسألك بعلمك
٤١٥	اللهم إنى عبدك
٢٤٣	
١٥٥	اللهم لا تجعل قبرى
٢٨١	اللهم هذا قسمى
٢٢٣	لو كنت متخذاً من
١٣٨	ليس الشديد بالصرعة
٤٤	ليس المخبر كالمعاین
١٣٨	ليس المسكين
١٧٣	ما أعظمك وأعظم حرمتك

الصفحة	طرف الحديث
٤٢	ما الدنيا في الآخرة
٤٥	ما أنزل الله من داء
٢٠٧	
١٤١	ما بين بيتي ومنبري
٢٣١	
٢٢٢	ما تحاب رجلان
٢١٥	ما تقرب إلى عبد
٥٧	ما طفف قوم كيلاً
٢٨	ما ظن محمد
٢٨	ما ظن نبي الله
٢١٨	ما ظنك باثنين الله ثالثهما
٥٩	ما من قوم يعمل فيهم
٣١	مالى لم أر ميكائيل
٣١	مررت ليلة أسرى بي
٥٨	مروا بالمعروف
٢٠٥	من أتى بهيمة
٢١٤	من أحب لقاء الله
٢٢٢	من أحب لله
٣٩	من أخذ شبراً
٣٧	من اشترى ثوباً
١٩٠	من أشراط الساعة
٢٠٤	من تخطى الحرمتين
٣٧	من ترك الصلاة سكرأ
٣٦	من تعظم في نفسه
١٨٦	من حسن إسلام المرء
١٥٦	من حلف بغير الله
٤٦	من خاف أدلج

طرف الحديث

الصفحة

١٨٥	من ذا الذي يتألى على
٣٧	من شرب الخمر مرة
١٧٢	من صام رمضان
١٧١	من صلى العشاء
٢٨٥	من عشق فف
٢٣	من قال في يوم
١٧٤	من قتل معاهداً
١٧٢	من قرأ قل هو الله أحد
٢٢٩	من كان آخر كلامه
١٨٦	من كان يؤمن
٣٩	من كانت عنده لأخيه
٢٥٤	من لا يأمن جاره
١٠	من لم يسأل الله
١٩	
٣٧	من مات مدمناً
١٩٨	من وجدتموه يعمل
٢٠٤	من وقع على ذات
١١٥	من يسألني فأعطيه
٢٧١	
٣٩	ناركم هذه التي يوقد
١٧٧	النظرة سهم مسموم
٣١	نعم إن القلوب
٢٥٣	نهى أن يخطب
٣١	هؤلاء الذين يأكلون
٧٤	هل رأى أحد منكم
٢٧٤	وأسألك لفة النظر
٧	وما يدريك أنها رقية

الصفحة

طرف الحديث

٥٧	والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة
٢٣٣	والذى نفسى بيده لا يؤمن
٥٦	وتبايعوا بالعينة
١٨٦	وما يدريك فلعله
١٨٦	وما يدريك لعله
١٥٩	ومن أظلم ممن ذهب
١٣٤	ونعوذ بالله من
٧٩	يا أمة محمد
١٣	يا حى يا قيوم
٥٣	يا معشر المهاجرين
٣١	يا مقلب القلوب
٧٩	يا أمة محمد ما أحد أغير
٣١	يؤتى بأنعم أهل الدنيا
٥٩	يأتى زمان يذوب فيه
١٣٠	يا رسول الله أى الذنب
٢٣٠	يجاء بالرجل يوم القيامة
٥٩	
١٧٣	يجىء المقتول بالقاتل
٥٢	يخرج آخر الزمان
١١	يستجاب لأحدكم
٣٨	يضرب الجسر على جهنم
٣٥	يضغط المؤمن
٣٧	يعرض الناس يوم القيامة
٥١	يوشك أن تداعى عليكم

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة المحقق
٥	لكل داء دواء
٦	دواء العمى السؤال
٦	القرآن شفاء
٨	موانع إجابة الدعاء
٩	الدعاء شفاء
١٠	الإلحاح من أسباب الإجابة
١١	من موانع الإجابة
١٢	أوقات الإجابة وصفة الداعي
١٢	ما يدعو به الداعي
١٦	أحوال الدعاء
١٧	ذم التوكل على القدر مع ترك الأسباب
١٩	ارتباط الأسباب بالمسيبات
٢٢	مخالطة النفس حول الأسباب
٢٢	خطأ في فهم الاستغفار
٢٣	ذم التعلق بالجبر
٢٤	ذم التعلق بالإرجاء
٢٤	الخطأ في فهم المحبة
٢٤	خطأ في فهم عفو الله تعالى ورحمته
٢٤	خطر الفهم الفاسد
٢٦	لا تكال على حسن الظن
٢٨	حسن الظن الصحيح
٢٩	لفرق بين حسن الظن والغرور
٣٠	يضع كل من الخوف والرجاء موضعه

الصفحة	الموضوع
٤١	الاغترار بالدنيا
٤٣	اليقين بالمعاد وترك العمل
٤٥	الفرق بين حسن الظن والغرور
٤٦	الفرق بين الرجاء والأمانى
٤٧	ما كان عليه السلف من الخوف والعمل
٤٩	ضرر الذنوب فى القلب كضرر السموم فى الأبدان
٦٢	قد لا يؤثر الذنب فى الحال
٦٣	من آثار المعاصى
٦٥	تأثير المعصية على العمر
٦٦	المعصية تجلب معصية
٦٧	المعصية تضعف التوبة
٦٧	المعصية تهتك ستر الله تعالى على العبد
٦٧	المعصية ميراث عن الأمم السابقة
٦٨	المعصية سبب هوان العاصى على الله تعالى
٦٨	عظم المعصية على المؤمن وهوانها على الفاجر
٦٩	تأثير المعصية على الدواب
٦٩	المعصية تورث الذل
٦٩	تأثير المعصية على العقل
٧٠	تأثير المعصية على القلب
٧٠	لعن رسول الله ﷺ للمعصاة
٧٢	لعن الله تعالى للمعصاة
٧٣	المعصية تحرم العاصى من دعوة رسول الله ﷺ
٧٤	عقوبات بعض المعاصى
٧٦	المعاصى سبب الفساد فى الأرض
٧٧	المعاصى سبب الخسف والزلازل
٧٨	تأثير المعصية فى هيئة الإنسان وخلقه

الصفحة

الموضوع

- ٧٩ معصية تجعل العاصي لا غيره له
- ٨١ لعاصي تذهب الحياء
- ٨٢ لعاصي تضعف في القلب تعظيم الرب
- ٨٣ لعاصي تستجلب نسيان الله تعالى للعبد
- ٨٤ لعاصي تخرج صاحبها من دائرة الإحسان
- ٨٥ لعاصي تحرم رفقة المؤمنين
- ٨٦ لعاصي تعوق سير القلب إلى الله تعالى
- ٨٧ لعاصي تزيل النعم وتحل النقم
- ٨٨ لعاصي تلقى الرعب والخوف في القلوب
- ٨٩ لعاصي توقع في الوحشة
- ٩٠ لعاصي تمرض القلوب
- ٩١ لعاصي تعمى البصيرة
- ٩٢ لعاصي تصغر النفوس
- ٩٣ لعاصي في سجن الشيطان
- ٩٤ لعاصي تسقط الكرامة عند الله تعالى وعند الخلق
- ٩٤ مصيبة مجلبة للذم
- ٩٥ مصيبة تحرم العقل الفهم والتدبر
- ٩٧ لعاصي توجب القطيعة بين العبد والرب
- ٩٨ لعاصي تحقق البركة
- ١٠٠ مصيبة تجعل صاحبها من السفلة
- ١٠٤ لعاصي تجرئ على الإنسان أعداءه
- ١٠٥ مصيبة تضعف القدرة على جلب النفع ودفع الضرر
- ١٠٧ لعاصي تعمى القلب
- ١١١ ب الله وحزب الشيطان
- ١١٣ اخل الشيطان على الإنسان
- ١١٤ خل العين

الصفحة	الموضوع
١٥	مدخل الأذن
١٦	مدخل اللسان
١٨	مدخل النفس
٢٠	المعصية تنسى العبد نفسه
٢٤	المعاصى تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة
٢٤	المعصية تبعد عن فاعلها الملك وتقرب منه الشيطان
٢٨	المعاصى سبب هلاك العاصى فى الدنيا والآخرة
٢٨	العقوبات الشرعية على المعاصى
٣٠	عقوبات المعاصى شرعية وقدرية
٣٢	القتل والقطع والجلد
٣٤	العقوبات القدرية
٣٧	محاربة النفس
٣٧	من عقوبات المعاصى: الختم على القلب
٣٨	خسف القلب
٣٨	مسح القلب
٣٩	نكس القلب
٤٠	حجب القلب عن الرب
٤٠	المعيشة الضنك
٤٢	الصراط المستقيم
٤٤	أصل الذنوب
٤٥	الذنوب كبائر وصغائر
٤٨	الحق فى المسألة
٥٠	شرك الوساطة والشفعاء
٥١	شرك من جعل مع الله إلهاً آخر
٥٢	الشرك فى العبادة
٥٣	أقسام الشرك

الصفحة

الموضوع

- ١٥٤ الشرك فى الأفعال والأقوال والإرادات والنيات
- ١٥٦ الشرك فى اللفظ
- ١٥٧ الشرك فى الإرادات والنيات
- ١٥٧ شرك تشبيه الخالق بالمخلوق
- ١٦٠ سوء الظن بالله
- ١٦٧ الشرك والكبر
- ١٦٧ القول على الله بغير علم
- ١٦٨ الظلم والعدوان
- ١٧١ جريمة القتل
- ١٧٤ جريمة الزنا
- ١٧٦ مداخل المعاصى
- ١٧٨ مدخل الخطرات
- ١٨٤ مدخل اللفظات
- ١٨٨ مدخل الخطوات
- ١٩٦ الخلاف فى عقوبة الزنى واللواط أبهما أغلظ؟
- ٢٠٣ القول الفصل فى المسألة
- ٢٠٥ عقوبة واطئ البهيمة
- ٢٠٦ اللواط والسحاق
- ٢٠٦ دواء اللواط
- ٢١١ اشتغال القلب بالخوف من الله تعالى والحب له
- ٢١٢ المحبة الصادقة لله توحيدة
- ٢١٣ مراتب الحب وخصائصها
- ٢١٩ آخر مراتب الحب
- ٢٢٢ التمييز بين أنواع المحبة
- ٢٢٣ الخلقة
- ٢٢٤ التفاضل بين المحبة والخلقة

الصفحة	الموضوع
٢٢٤	إيثار الأعلى
٢٢٥	إيثار الأنفع
٢٢٦	أقسام المحبوب
٢٢٨	الحب أصل كل عمل
٢٢٩	كلمة التوحيد
٢٢٩	المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد
٢٣٣	المحبة المحمودة والمحبة المذمومة
٢٣٤	الحب أصل الحركة
٢٣٦	استقرار الكون واستقامته قائم على مبدأ الإله الواحد
٢٣٨	آثار المحبة
٢٤٣	عشق الصور
٢٤٦	عشق قوم لوط
٢٤٧	دواء العشق
٢٥٢	مقامات العاشق
٢٦٨	المحبة النافعة هي محبة الله
٢٧٢	كمال اللذة في كمال المحبوب وكمال المحبة
٢٧٣	رؤية الله
٢٧٧	الحب الذي لا ينكر ولا يذم
٢٧٨	محبة الزوجات
٢٨٤	أقسام الناس في العشق
٢٨٥	حديث : «من عشق فعف»
٢٨٩	فهرس الأحاديث
٢٩٩	فهرس الموضوعات